

وهنا يُقر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٩٧)

وهم هنا يُقرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم ببدء الأبوة كي يستغفر لهم ما ارتكبه من ذنوب كثيرة ، فقد آذوا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقرَّ به مَنْ فعله ، ونلاحظ أنهم قالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٩٧) [يوسف]

أى : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتى الحق سبحانه بما قاله يعقوب :

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٨)

ونلاحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿ لَا تَحْزَبْ ^(١) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٦)

[يوسف]

لكن والدهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها يقول :

(١) حزبه : لامة وعطب عليه . وثرَّبه بالتضميف : أكثر لومه وميَّره بذنبه وأثَّبه على سوء فعله .

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (٩٨) [يوسف]

ولم يقل : « سأستغفر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشد من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخر الاستغفار لهم إلى السحر ، لأن الدعاء فيه مُستجاب .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ

ادْخُلُوا مَصْرَ ۖ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (١١)

ونعلم أن الجد إسحق لم يكن موجوداً ، وكانوا يغلبون جهة الأبوة على جهة الأمومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة^(١) .

(١) آوى : ضمّه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [القاموس القويم ٤٥/١] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٤٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال
العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر
ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذي أوى
فيه أبويه .

ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ (٩٩)

[يوسف]

ففي الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. ﴾ (٩٩)

[يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان
يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بد أنه قد سمع من إخوته عن مكانته
ومنزلة ، والابن كان مُتَشَوِّقًا للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنين لها ، فهي
انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ،
ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلم عليه مُصَافِحَةً ، وآخر تلتقى به
ويغلبك شوقك فتحضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادي ، بدليل أن يوسف عليه
السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما في حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان في يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزيرة من بنى عدى بن النجار^(١) ، وهو مستنصل^(٢) عن الصف - أى خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - قطع رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال له : « استنَّ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْنِي^(٣) .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتقه سواد وقبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسول الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير^(٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) انظر ترجمة سواد بن غزيرة في « الإصابة في تمييز الصحابة » (١٤٨/٣) .

(٢) تنصَّلت الشيء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوْد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بعثها قبل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٦٢٦/٢) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية ٢/٢٧١ » .

إنه هو سبحانه الذي قال ذلك ، وهو سبحانه الذي أمر الملائكة من قَبْلُ بالسجود لآدم^(١) فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم؟ والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم : على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه للهَّم بالسجود لآدم ، فأَدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذي خلق هذا الخلق .

وكذلك سجد آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذي جمع شملهم ، وهو سبحانه الذي قال هذا القول ، ولم يُجرَّم سبحانه هذا الفعل منهم^(٢) ، بدليل أنهم قَدَّمُوا تحية ليوسف هو قادر أن يردّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هي الأمور التي تُفعل من الأدنى تقرُّباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإن كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هي الأمور المحرَّمة .

أما العبادة لله فهي اتباع أوامره وتجنُّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدِّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرَ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخُلَ للعبادة به^(٣) .

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ ﴾ (٢٤) [البقرة] .

(٢) نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم . وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [راجع : تفسير القرطبي ٢٦٠٠/٥] .

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحس بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أفيعتق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم . أورده القرطبي في تفسيره (٢٦٠٠ / ٥) وعزاه لابن عبد البر في التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحسّرُ تحريراً منطقياً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لايقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حِينَ سَجَدُوا لِيُوسُفَ ! هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. (١٠٠) ﴾

[يوسف]

وقد كانت الرؤيا هي أول لُقطة في قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

[يوسف]

وقوله في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. (١٠٠) ﴾

[يوسف]

أي : امرأ واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أن سجدوا ليوسف سجود الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والأب والخالة التي تقوم مقام الأم ، ورؤيا الانبياء كما نعلم لا بد أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رؤيا إبراهيم عليه السلام التي أمره

ففيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه : فقام إلى تنفيذها : واستسلم إسماعيل لأمر الرؤيا .

نقول : إن الأنبياء وهدمهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم : لأن الشيطان لا يُخايلهم : فهم معصومون من مخيلة الشيطان .

أما إن جاء إنسان وقال : لقد جاءتنى رؤيا تقول لى نَقِّذْ كذا . نقول له : أنت غير ملزم بتنفيذ ما تراه فى منامك من رؤى : فليس عليك حكم شرعى يلزمك بذلك : فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه فى المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك : فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعى بتنفيذ الرؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذى حدث ليهين لنا عظم الابتلاءات التى مرّت على إبراهيم . وكيف حاول أن يتم كل ما توجه له السماء من أوامر ، وأن يتفد ذلك بدقة .

وقال الحق سبحانه مُصَوِّراً ذلك :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ (١) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٢٤)﴾ [البقرة]

(١) ابتلاه : اختبره ليعرف أمره وحاله . وبلوت الشيء : امتحنته واختبرته . فسأل تعالى : ﴿وَنَبِّئُوكُمْ بِالْأَخْسَرِ أَفْئَةٍ رَّأَيْنَا تَرْجِعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء] أى : نخبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [القاموس القويم ٨٤/١] .

وكانت قمة الابتلاءات هي أن يُنقذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك
أكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلزمون بتنفيذ رؤاهم ، أما
أي إنسان آخر إن جاءته رؤيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من
نزع الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. ﴾ (١١٠)

[يوسف]

ولفائل أن يسأل ؛ ولماذا لم يذكر يوسف الأحداث الجسام التي
مرت به في تسلسلها ؛ مثل إلقاء إخوته له في الجُب ؟

نقول ؛ لم يرد يوسف أن يذكر ما يُكدر صفو اللقاء بين العائلة
من بعد طول فراق ، ولكنه جاء بما مرّ به من بعد ذلك ، من أنه صار
عبداً ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لغواية امرأة العزيز ،
وكيف منّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن
حتى ظهرت النعمة ، ويكفي أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل ؛ إن القصة هنا غير مُنسجمة مع بعضها ، لأن
بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذكر .

نقول ؛ إن القصة مُنسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص
التاريخ كتاريخ ؛ وبين قصص يوضح المواقف الهامة في التاريخ .

والمناسبة في هذه الآية هي اجتماع الإخوة والاب والخاله ،
ولا داعي لذكر ما يُنقص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال
من قبل ؛

﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ ۖ عَلَيْنَا يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٦) [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل :

﴿هَلْ عَلَّمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) [يوسف]

وهو هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يذكر إحسان
الحق سبحانه له فيقول :

﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ..﴾ (١٠٠) [يوسف]

ويثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ..﴾ (١٠١) [يوسف]

وهو إحسان له في ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْرِ ..﴾ (١٠٢) [يوسف]

وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ « إلى » ، فتقول :

« أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو
هنا في مجال « أحسن بي » .

أي : أن الإحسان بسببه قد تعلّق بكل ما اتصل به : فجعله
حاكماً ، وجاء بأهله من البدور^(١) : أما الإحسان إليه فيكون محصوراً
في ذاته لا يتعداه .

(١) ثَرَبٌ عَلَيْهِ : لاهمه وعثره يثنبه ، وذكره به . والمثْرَبُ : المُعَيَّر . قال ثعلب : معنى الآية :
أي لا تُذَكَّر ذنوبكم . [لسان العرب - مادة : ثرب] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٦٠٢) : « يُروى أن مسكن يعقوب كان يارحى كنعان ،
وكانوا أهل مواشٍ وبرة . وقيل : كان يعقوب تحول إلى يادى وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته : وقسم للغير ، واعتبر مجيء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البدو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا توطُن لهم في مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوت مبنية يستقرون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلا ومساقط المياه ، ويحملون رحالهم إلى ظهر الجمال متقللين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نعيم الحضارة . ففي الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة في البدو تُحتم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة في الحضر عنها في البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد^(١) شوقي - رحمة الله عليه - صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فَأَنَا مِنَ الْبَيْدِ ^(٢) يَا ابْنَ جُرَيْجٍ	وَمِنْ هَذِهِ الْعَيْشَةِ الْجَافِيَةِ
وَمِنْ حَالِبِ الشَّاءِ فِي مَوْضِعٍ	وَمِنْ مُوقِدِ النَّارِ فِي نَاحِيَةِ
مُقَدِّيكُمُو مَعْبِدٍ وَالْقَرِيقِ	وَقَيْنَتُنَا الضَّبْعُ الْعَاوِيَةِ
هُمْ يَأْكُلُونَ فُذُونَ الطَّهَاءِ	وَنَحْنُ نَأْكُلُ مَا طَهَّتِ الْمَاشِيَةِ

فأبن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعادة من حَلَبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل

(١) أحمد شوقي من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء في العصر الحديث ، وما زالت إثارة الشعر عنده .

(٢) البِيد : جمع بَيْداء . وهي الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء . سُميت بذلك لأنها تبيد ساكنيها ، والإبادة - الإهلاك . [لسان العرب - مادة بِيد] .

الحضر صوت المَعْنَيْن المشهورين فى ذلك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضَّبَاعِ العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِهِ الطُّهَاءُ ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلَى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتُ هَندُ يا ابنَ جَرِيحٍ	وكانت على مَهْدِها قَاسِيه
فَمَا البِيدُ إِلَّا دِيَارُ الكِرَامِ	ومنزلةُ الدُّمَمِ الواقِيه
لها قِبْلَةُ الشَّمْسِ عندَ البُرُوعِ	والحُضْرِ القِبْلَةُ الثَّانِيه
ونحنُ الرِّياحِينِ ملءُ القِضاءِ	وهُنَّ الرِّياحِينُ فى آتِيه
ويَقْتُلُنَا العِشْقُ والحَاضِرَاتُ	يَقْمُنُ من العِشْقِ فى غَامِيه

وقولها « اعتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى : أن هندا ظلمت البِيدَ يا ابن جريح ، ثم جاءت بميزات اليدو ؛ فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المزروعة فى الفضاء الواسع ، عكس بنات الحضر التى تشبه الواحدة مهن الريحانة المزروعة فى أصص الزرع ، أو أى آتية أخرى .

ثم تأتى إلى القيم : فتفخر أن بنت البادية يقتلها العِشْقُ ، ولا تنال ممنُ تعشق شيئاً ؛ فتتسل وتموت ، أما بنت الحضر ؛ فصحتها تأتى على الحب .

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سبحانه من البادية ، ليعيشوا فى مسكن ذات الحضارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قد ضحَّ

الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَطَفٍ^(١) العيش إلى حياة اللين والدُّعَةِ^(٢) .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول :

﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ^(٣) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. ﴾ [١٠٠] [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبته يوسف للشيطان : وصَوَّرَهُ على أنه « تَرْغ » .

أى : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أى : أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزَةٍ تُنْبِئُهُ إلى الشيء الضار فيندفع له الإنسان ، وهى مأخوذة من المَهْمَازِ الذى يُرَوِّضُ به مدرب الخيل أى حصان ، فهو ينغزه بالمَهْمَازِ نَزْغَةً خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْزُ تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْنِ .

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان : فيقول لنا :

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴾ [٢٠٠] [الأعراف]

وَكُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَهُ عداوة مُسَبِّقَةٌ ، وحين تستعِذ بالله من الشيطان ، فانت تكتسب حَصَانَةً من الشيطان .

وسبحانه القائل :

(١) الشَطَفُ : يَبْسُ العيش وشدته [لسان العرب - مادة : شَطَف] .
(٢) الدُّعَةُ : الراحة والترف فى العيش - [لسان العرب - مادة : دَع] بتصرف .
(٣) نَزْغَةُ الشَّيْطَانِ : وسوس له بالبشر - ونَزَغَ بين الرجلين : أفسد ما بينهما - قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴾ [٢٠٠] [الأعراف] - [القاموس القويم - مادة : نَزَغ] بتصرف .

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ^(١) مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)

[الأعراف]

أي : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْع .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف :

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

[يوسف]

فسبحانه هو المدير الذي لا تَخْفَى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لُطْفٌ » ضد كلمة « كُثَافَةٌ » فاللطيف هو الذي له جِرم دقيق ، والشئ كلما لُطِفَ عَنَّفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

ولا شئ يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شئ ، فهو يجمع بين اللُطْف والخبرة ، فَلُطْفُهُ لا يقف أمامه أي شئ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شئ ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مُطْلَق ، وهو حكيم يُجْرِي كل حَدَثٍ بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أي شئ ، فهو صاحب الكمال المطلق .

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٢١)

(١) الطائِف من الشيطان - مسَّهُ للإنسان بالسوسة فهو يأنبه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه ولا

ذكر الله . [القاموس القويم ١ / ٤١٠] .

(٢) نظر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو قاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (١٠٠)

[يوسف] خالفهما . وفي اللفظ معنى الشق فإنهما كانتا رتقا ففتقهما . وقول : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

مرَّة ۖ ﴾ (١٢١) [الإسراء] أي : خلقكم أول مرة في الدنيا . [القاموس القويم ٢ / ٨٥] .

ونعلم أن الربوبية تعنى الخلق من عدم ، والإمداد من عدم ؛
والإقانة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه
العمليات فى تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ،
واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حظُّ فى عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ،
وكل مخلوقات الكون مُسَخَّرَةٌ لكل الخلق ، فسبحانه هو الذى استدعى
الخلق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء
الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ
والسلطان ؛ فلا أحد يملك قهراً عن الله ؛ وحتى الظالم لا يملك قهراً
عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ
وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢١) ﴾

[آل عمران]

وإتيان الملك لا توجد فيه مقاومة ممن يملك ؛ ولكن نزع الملك هو
الذى يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذى يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وهو الذى يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وحين تتغلغل هذه الآية فى نفس المؤمن : فهو يُوقِنُ أنه لا مفرٍّ من القدر ، وأن إيتاء الملك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير : كى لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعَدِّلُ فى إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدَّرَ محذوفاً فى الآية . وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين فى الآية وشرَّين محذوفين.

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريدُه الله : فكل ما يُجرِّيه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا :

﴿ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ .. (١٠١) ﴾

[يوسف]

يقتضى أن نفهم معنى « الملك » : ومعنى « الملك » ، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شيء يملكه : مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمَّى : « الملك » . أما « الملك » فهو أن تملك مَنْ يملك .

وقد ملك الله بعضاً من خلقه لخلقهِ ، ملكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع الملك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألة رتابة ذات .

ومثال هذا : هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفي طَوْعِهِ جيش قوى ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التي كان الشاه يُثَبِّت بها عرشه : فزال عنه المُلْك .

وأنت في هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك : تقول لليد « إضربي فلان » فتضرب يدك فلاناً ، إلى أن يأتي اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه : لأن المُلْك يومها يكون لله وحده ، فسبحانه القائل :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

ففى اليوم الآخر تنتفى كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده . وبجانب « المُلْك » و « المَلِك » : هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول :

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . (٥٥)﴾ [الأنعام]

أى : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات : فتتعجب من دِقَّةِ خَلْقِ الله .

ومنَّ وهبه الله دِقَّةَ العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام فى مناجاته لربه :

﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصه بالقدرة على تأويل الأحاديث : تلك التي أول بها رؤيا الفتيتين اللذين كانا معه في السجن ؛ وأول رؤيا الملك ؛ هذا التأويل الذي قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً ش :

﴿فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠٢)﴾ [يوسف]

وما دام سبحانه هو خالق كل شيء ؛ فليس غريباً أن يُعلمه سبحانه ما شاء ، وكان إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الملك]

ونحن في حياتنا نجد الذي صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ بوضع مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت ثورجاً^(١) أو محراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السوية التي يؤدي بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعي الميكانيكي الذي ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخص بدقة ما تحتاجه السيارة ، ويصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التي لا تحتاجها السيارة .

(١) الثورج : آلة لدراس الحبوب يجره الحيوان والمحراث آلة الحرث .

وهكذا نرى أن كل صانع في مجاله يعلم أسرار صنيعته ، فما بالنا
بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شيء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه :

﴿ فَاطْرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ۝١٠١ ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية
ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره
يوم ، أو يموت في بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان
الأغيار .

أما السماوات والأرض فهي مخلوقات ثابتة . فالشمس لا تحتاج
إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطى الدفء للأرض ، وهي مرفوعة عن
الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ
رَّحِيمٌ ۝٦٥ ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق :

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ [غافر]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فتأبى إلى ما شاء

الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله :

﴿أَنْتَ وَلِيّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. (١٠١)﴾ [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف في الدنيا ، وقد نصره وقربه وأعانه : بدليل كل ما مرّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألا يقتصر عطاء الله له في الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً في الباقية ، الآخرة .

وما دام سبحانه وليّه في الدنيا والآخرة : فيوسف يدعوّه :

﴿تَرْفُقْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقَتِي بِالصَّالِحِينَ (١٠٢)﴾ [يوسف]

وقوله : ﴿تَرْفُقْنِي مُسْلِمًا (١٠٢)﴾ [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له في الآخرة : فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومتّع به ، ومشى فيه بما يرضى الله .

وعند تمسّي يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمنّاها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفّقاً في الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز^(١) أنه قبل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم : كان يطلب

(١) هو : أبو حفص الخليفة الصالح . من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام . ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة . وولى إمارتها للوليد . ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام . وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ . ولم تطل مدته . فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً . (الأعلام للزركلي ٥ / ٥٠) .

الأكثر منه نُعومة ، وإذا جِئَ له بطعام لَئِنْ : كان يطلب الأكثر نُيونة .
 وحين صار خليفة ! كانوا يأتونه بالثوب ! فيطلب الأكثر خشونة ،
 وظن مَنْ حوله أنه لم يَعدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً
 تَوَاقَّة إلى الأفضل ! تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَأَقَّ إلى الإمارة
 جاءته : وحين تَأَقَّ إلى الخلافة جاءته ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة^(١) .

وتجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له : رضى الله عنهما : دخل
 عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل
 ربك الموت وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً ! فأحييت سنناً ،
 وأمت بدعاً : وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتم الله
 عليه نعمته قال :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)

[يوسف]

وقوله :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً .. ﴾ (١٠١)

[يوسف]

مكونة من شقين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثاني : أن يموت مسلماً .

وكُلُّنا يُتَوَفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : إن نفسى هذه تواقّة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تآقت إلى ما هو
 أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شىء أفضل منها تآقت إلى ما هو أفضل منها .
 قال سعيد بن عامر : الجنة أفضل من الخلافة . [حلية الأولياء ٢/ ٢٣١] .

مطلوب في ذاته ؛ لانه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثاني ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون^(١) .

وإن قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حتماً ؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبي لربه :

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٢)

[يوسف]

وهل هناك صالح يأتى إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبي مرسل ؟

نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الانبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام^(٣) ؛ ولذلك يتجه الحق

(١) عن بريدة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان فأنلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع . ونسأل الله لنا ولكم العاقبة » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٢/٥ ، ٢٥٩) . ومسلم في صحيحه (٩٧٥) .

(٢) توفى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبي في تفسيره (٢٦٠٥/٥) أنه دفن في التل في صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات نشأ الناس عليه ، كل يحب أن يدفن في محلته ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه في التل من حيث مفرق الماء بمصر . فبصر عليه الماء ، ثم يتفرق في جميع مصر ، فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من التل ونقل تابوته بعد أربعين سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه .

سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المُرَاد من القصة التي جاءت مكتملة في سورة كاملة ، غير بقية قَصَص القرآن التي تتناثر أي منها في لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باستثناء قصة نوح التي جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا « إن هذا تكرار للقصة في لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تاسيس للقطات ؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتي اللقطات متفرقة ؛ لأن كل لُقطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآني قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خلال عمره الرُسالي الذي استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرض لأحداث جسام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزل الحق سبحانه ما يُثَبِّت به فؤاد^(١) رسوله ﷺ فيوضح له في موقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سيقك من الرسل حدث معهم كذا^(٢) .

بل قد تجد في الواقعة الواحدة لقطتين ، مثلما جاء في العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقِطْهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرِئًا ^(٣) ۝ (٨) ﴾ [القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

(١) يقول تعالى في كتابه : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَقَّبْتَ بِهِ فُؤَادَكَ فِي حَذْرِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢٥) ﴾ [فاطر] .

(٣) الْحَزْنُ وَالْحَزَنُ : الهم والحَمَمُ . [القاموس القويم ١/ ١٥٢] .

ويقول في نفس المسألة أيضاً :

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ .. (٣٩)﴾ [طه]

وهنا تكون العداوة من جهتين : لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداً من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداوة معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يطيل أمد المعركة .

والمثل الثاني هو قول الحق سبحانه في نفس قصة موسى : وهي لفظة متقدمة حدثت في الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تلقى أمه في اليم ؛ فقد مهد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك :

﴿فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧)﴾

[القصص]

وهذا شحذ لهُمَّتْهَا قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظة أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه :

﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ .. (٣٩)﴾ [طه]

والذين قالوا : إن قصص القرآن جاء مُبعَثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت في موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مُحْبُوكَة من أول الرؤيا إلى تولّى الملك ، وجمع شمل العائلة .

ونزلت القصة في سورة واحدة بعد أن سألوا عنها : وهم يعلمون

أن محمداً ﷺ لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ في كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتى لهم مَوْضِعُ أن الحق سبحانه قد انزل عليه ، فكذبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتى بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها .

ويقول الحق سبحانه فى نهاية القصة :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ^(١) وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (١٠٢)

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب موجه إلى محمد ﷺ
أى : أنك يا محمد لم تكن معهم حين قالوا :

﴿ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ^(٢) ۝ (١٠١) ﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب - كما علمنا من قبل - هو ما غاب عنك ، ولم يغيب عن غيرك ، وهو غيب نسبي ؛ وهناك الغيب المطلق ، وهو الذى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضى الذى لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذى لم يأت بعد .

(١) أجمع التزم على أمر : اتفقوا عليه ، واجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا كُذُّكُمْ ثُمَّ اتَّوَا مَقًا ۝ (١٠١) ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/ ١٢٧] .

والثاني : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدث في مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً .

و ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ .. (١٠٢)﴾ [يوسف]

أى تُعلمك به بطرف خفى ، حين اجتمعوا ليتفقدوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يلقوه في غيابة^(١) الحب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه ﷺ أُمى لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ^(٢) يَمِينِكَ إِذَا لَأَرْثَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ؛ إقامة وترحالاً والتقاءً بائٍ أحد .

فلو علموا انه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّةٌ ، وحتى الأمر الذى غابت عنهم فطنتهم فيه ؛ وقالوا :

(١) غيابة الحب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستمر ما أختبأ فيه (القاموس القويم ٦٤/٢) والحب : هى البئر التى لم تُكن بالحجارة .

(٢) الخط : السطر والكتابة . خط الكتابة يخطه خطأ : كتيه . قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : قبل القرآن ما كنت فارساً ولا كاتباً . [القاموس القويم ١٩٨/١] .

[النحل]

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ... (١٠٢) ﴾

فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٢) ﴾

[النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قَصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّا ت القرآن » ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ^(١) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

[آل عمران]

وقوله الحق :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقَرِيِّ^(٢) إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾

[القصص]

فكان مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

(١) القلم : السهم أو خشبة تشبیهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه في القمار أو في القرعة ومن استعمله في القرعة . قوله : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] فالأقلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم . [القاموس القويم ١/٢٣٢] .

(٢) هو : الجبل القريب الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي . [ابن كثير ٢/٣٩١] .

باللذذ^(١) والجحود - وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود - وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف فى مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفى سورة واحدة ، لا فى لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذى أرسله ، وهو الذى علمه ؛ وهو الذى أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعز ذلك على رسول الله ﷺ ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تياس :

﴿ لَمَلِكٌ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول له سبحانه :

﴿ فَلَمَلِكٌ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ هَذَا الْخَدِيثُ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك ليسلى رسوله ﷺ حين رأى لدى الكافرين ؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . . (١٤) ﴾ [النمل]

(١) لذ يلد : اشتد فى الجدل والخصومة . والالذ : اسم تفضيل أى الأشد خصومة وجداً . قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَّامُ (١٠١) ﴾ [البقرة] [القاموس الغويم ١٩١/٢] .

(٢) باخع نفسه : قتلها مما وغىظا وحزنا . [لسان العرب - مادة : باخع] .

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط . وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخلق يجبروتهم ، والدين سيُسوى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢)

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ (٩٠)

[البقرة]

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ ﴾ (١٢٨) [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعتكم فى العنت [القاموس القويم ٢٩/٢] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هي طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله في الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له في الآخرة ؛ فليسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمُرُه فيها مَوْقُوت بِالْقَدْرِ الذي قَدَره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبا عن الناس أعمارهم في الدنيا ، لم يَكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو في حقيقته عَيْنُ البَيَان ، فإشاعة حدوث الموت في أى زمن يجعل الإنسان في حالة تَرْقُبٍ .

ولذلك فمِيتَاتُ الْفُجَاءَةِ لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب في حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت في حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع في الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما في الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه في الآخرة بقدرته الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخلق .

وهَبَّ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أي : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً : وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهي المنهج إن منعتك عن شر تفعله بغيرك : فقد منعتُ الغير أن يفعل بك الشر ، في هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التي لا دُخُل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي « دَرءُ المفسدة مُقَدَّم على جَلْبِ المصلحة » .

وهَبَّ أن إنساناً مُحِباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقدفها لك . بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقدفك في نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردَّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرءُ المفسدة مُقَدِّماً على جَلْبِ المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور : لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها - من بعد ذلك - الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة «د. د. ت» التي قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٣٦)

[الإسراء]

وعليك أن تدرس أى مُخْتَرَع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدْخِلُونَ الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فيش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كي لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صمّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إن لمسّها يدٌ بشر . وهذا هو ذرء المفسدة المُقَدَّم على جلب المنفعة ، وعليها أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٢)

[يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ .. ﴾ (١٠٣)

[يوسف]

نسبة للذين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

(١) قفاه : يفتوه فتواً ؛ مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٣٦) [الإسراء] أى : لا تتبع من الحقائق ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تستنسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

لفائدتهم ، فانت تفعل ذلك دون أجر : رغم أنهم لو فطنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدموا أجراً لمن يهديهم سواء^(١) السبيل ، لأن الأجر يُعطى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمان دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل^(٢) :

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٩٠)﴾ [الأنعام]

ولم يقل ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدَّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أسوة حسنة .

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿قَالَ غَسَقَ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس الفوري ٢٢٨/٦] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .

وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .

وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .

وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .

وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨١] .

وقالها محمد ﷺ رسول الله : [حنبل : ٤٧] .

ونحن نجد في عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصي الذي يُلَقِّن الابن مبادئ القراءة والكتابة ، فما بالنا بمن يضيء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نفعا أبديا لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا سَأَلْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٤)

وفي هذا القول الكريم ما يوضح أن النبي ﷺ لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَمْ نَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (١٥)

[الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله في موقع آخر :

﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (١٧)

[سبا]

وهو هنا يُعْطَى الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدفع ، فهو يطلبها من الذي لا تُحَدُّ قدرته في إعطاء الأجر ؛ فكان العمل الذي يقوم به لا يمكن أن يُجَازَى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذي يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ لِلْعَالَمِينَ (١٠١)﴾

[يوسف]

والذكر يُطْلَقُ إطلاقاً متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف »
و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات
استقبال هي الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها
إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لِتُحْفَظَ
لفترة في هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن
تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بؤرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ؛ كان
المعلومة كانت موجودة في مكان ما في نفسك ؛ لكنها لم تكن في
بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهي تنتقل من حاشية
الشعور إلى بؤرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة
الشعور .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . (٥٠)﴾

[إبراهيم]

أي : ذكِّرْهم بما مرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهي غير
موجودة الآن في بؤرة شعورهم . وسُمِّيَ القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذَكِّرُ كل
مؤمن به بالله الذي تفضَّلَ علينا بالمنهج الذي تسيِّر به حياتنا إلى
خير الدنيا والآخرة .

فالذكر - إذن - يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخلق ، فلم يترك الخلق منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بدقة بديعة ، وفيه كل مقومات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الرباني .

وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة في الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّرَ الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ رَكَائِنٌ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ

يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ١٠٥

وإذا سمعت « ركائِن » افهم أن معناها كثير كثير كثير : بما يفوق الحَصْر ، ومثل « كائِن » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشئ الذي فوق الحصر : تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يَعُدُّ النقود التي يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذي نريد أن نتسوجه لعَدِّه فوق الحصر ، ولا أحد يَعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُتَبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۖ ۝ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

و « إِنَّ » هي للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكرراً ، وتُكرّر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أي نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدت فيها نعمة لا تُحصَر ولا تُعدُّ .

إذن : فكلمة « كَأَيْنَ » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه : كم نصحتك ! وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتى « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن ممن توجّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صدقاً ، أو كأنك استحضرت النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أن يلقى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ؛ وطلبه من المخاطب دليل على أنه سيُقرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيْنَ (٣٥) ﴾

[يوسف]

فمعناها أن ما يأتى بعدها كثير .

وسبحانه القائل :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ^(١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا^(٢) لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا^(٣) وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٧١١﴾﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن (كآين) تعنى الكثير جداً ؛ الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إن لم نُحصِه .

والآيات هى جمع « آية » ؛ وهى الشئ العجيب ، المُلَفَّت للنظر ، ويُقال : فلان آية فى الذكاء . أى : أن ذكائه مُضْرِب المثل ، كما مر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية فى الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشئ العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه فى الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور فى الكون حكمة ، وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التى تحدثنا عنها ، وهى عجائب ؛ وهى حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذى أوجدها ؛ وهى تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

(١) الرُّبَى : العالم الشئى الصابر ، قال تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ .. (٧١١)﴾ [آل عمران] والربى : مَنْ رَبَّيْنَاهُ ، وهم هنا من رباعم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ٢٥١/١] .

(٢) الوهن : انضعف فى العمل والامر . ورجل واهن فى الامر والعمل . وموهون فى العظم والبدن [لسان العرب - مادة : وهن] .

(٣) استكان : خضع وذل . [لسان العرب - مادة : سكن] .

وقد نشر الحق سبحانه هذه الآيات في الكون . وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها ، ولم يقل أحد غيره : « أنا الذي خلقت » فهذه المسألة - مسألة الخلق - تثبت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خلقت من أجل هدف وغاية .

وفى سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾

[الروم]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه

(١) أظهر : دخل في وقت الظهيرة . والظهيرة : وقت الظهر ، ويتسع إلى العصر ، قال تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [النور] أى : حين تستريحون في منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجيء الإسلام به :
وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسوة على الأسيرة ، لكنهم لجأوا إليه بعد أن عضتْهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذى يحاولون الآن وَضْعَ نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقسولون : لا شىء يمنع العقل البشرى من التوصل إلى ما يفيد .

وهكذا نجد الآيات الكونية هى عجائب بكل المقاييس ، والآيات المصاحبة للرسول هى معجزات خَرَقَتْ النواميس ، وآيات القرآن بما فيها من أحكام تَقَى الإنسان من الداء قبل أن يقع ، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعرضون عن آيات الكون التى إنْ دَقَّقُوا فيها لَنُثِبَتْ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسرى تربية وتنمية ، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت نتيجة لملاحظات ظاهرة ما فى الكون .

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليظهر فى قدرٍ ؛ ثم رأى غطاء القدر يعلو ؛ ففكَّر وتساءل : لماذا يعلو غطاء القدر ؟ ولم يُعرض الرجل عن تأمل ذلك ، واستنباط حقيقة تحول الماء إلى بخار ؛ واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخَّر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حيزٍ أكبر من الحيز الذى كان فيه قبل التمدد .

وكان هذا التأمل وراء اكتشاف طاقة البخار التى عملتُ بها البواخر والقطارات ، وبدأ عصر سُمِّي « عصر البخار » . وهذا الذى رأى طُفُوَ طبق على سطح الماء وتأمل تلك الظاهرة ، ووضع قاعدة باسمه ، وهى « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أي إنسان يتأمل الكون بدقّة سيجد في ظواهره ما يفيد في الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممّن قدّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا ترى أن الحق سبحانه لا يضرّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .
إذن : فقله تعالى :

﴿ وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ۖ ﴾ (١٠٥) [يوسف]

إن أردتها وسيلة للإيمان بالله ؛ فهي تقودك إلى الإيمان ؛ وإن أردتها لفائدة الدنيا فالحق لم يبخل على كافر بأن يُعطيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألا تمرّ على آيات الله وأنت معرض عنها ؛ بل على الإنسان أن يقبل إقبال الدارس ، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثري حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهاية لها ، وهي حياة الآخرة ، أو تُسعد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ

إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١٨)

وهكذا ترى المصافي التي يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .
المصافي الأولى : قوله تعالى :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) [يوسف]

أى : أن الكثير من الناس لن يصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهة من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمان متذبذب ، ويشركون به غيره .

والمصطفى الثانى : قوله تعالى :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦) [يوسف]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٨٧) [الزخرف]

ويقول فيهم أيضاً :

﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٢٥) [لقمان]

[لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل من ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذين يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى فى العرف مودة : لأنه تقربٌ ممثلى بالذلة : لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً فى النفع والضرر ؛ وفى هذا لون من الشرك .

ويأتي الواحد من هؤلاء ليقول لمن يتقرب منه : أرجو أن تقضى لي الأمر الفلاني . ويرد صاحب النقود : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادى في الدلة . ليقول : وأنا أعتمد عليك أيضاً ، لتقضى لي هذه الحاجة .

أو يرد صاحب النقود ويقول : أنا سوف أفعل لك الشيء الفلاني ؛ والباقي على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذي ليس باقياً . اليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حكماً في أشياء تمنّاها أصحابها ؛ ففُضِيَتْ ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمنّاها أصحابها ؛ فلم تُقَضْ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَأَطْلُبُوا الْأَشْيَاءَ بِعِزَّةِ الْإِنْفُسِ فَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِمَقَادِيرِ

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عين العطاء ، ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شيء آخر .

ودائماً أذكر بأننا حين نحج أو نعتمر نسعى بين الصفا^(١) والمروة

(١) الصفا والمروة : جبلان بين بطحاء مكة والمسجد . واصل الصفا العريض من الحجارة الملصق . [لسان العرب - مادة : صفا] . والمروة : الحجر الأبيض الهش اليراق . ومروة المسعى التي تُذكر مع الصفا . وهي أحد رأسية اللذين ينتهي السعى إليهما سميت بذلك . [لسان العرب - مادة : صفا] .

لنتذكر ما فعلته سيدتنا هاجر التي سعت بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رجل ولیدها إسماعيل .

فقد أخذت هي بالأسباب ، فجاء لها ربُّ الأسباب بما سألت عنه . ولم يأت لها الحقُّ سبحانه بالماء في جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التي سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها في هذا المكان .

فقد قالت له : «أنزلتنا هنا برايك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرني ربِّي . قالت : إذن لا يضيعنا»^(١) .

وقد سعت هي بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرت على الماء بقدرة المسبب الأعلى .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [١٤١]

[يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : ما دام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتي لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول :

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ^(٢) دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٧٠٧/٥) . وحينئذ استقبل إبراهيم عليه السلام القبلة . ثم دعا فقال : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [٢٧] [إبراهيم] .

(٢) الفلك : السفينة . للمذكر والمؤنث . والواحد وللجمع . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغهُ الله عليك من فضل قضائك لحاجته : وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته في قضاء تلك الحاجة تذلل وخضع ، وبعد أن تنقضى يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك : لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر : رغم أنك أنت من أحسنت إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هي طبيعة الإنسان .

يقول تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَانٌ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال في المثل : « اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تَمُنَّ عليه بالإحسان : كي لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أي مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممن فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فُكِّر لحظة أن أدَّيتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيباً الناس بك في الجهة التي تُؤدِّي له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجد معه في هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارمه في البحر » ؛

لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ،
وانسَ أنك فعلتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكور هو أجدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذى
يُجَازى عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناوذك أجره وثوابه بيده ؛
ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كي يُعوّضك الله بالخير على
ما فعلت .

ويُقال فى الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربّ ، إني
أسألك ألا يُقال فيّ ما ليس فيّ . فأوضح له الله : يا موسى لم
أصنعها لنفسى ؛ فكيف أصنعها لك .

وبعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ،
فيقول سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا^(١) إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَرَلَهُ^(٢) نَعْمَةً مِنْهُ
نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾ [الزمر]

والإنسان لحظة أن يمسه الضرّ ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفلة
بمصالحه : يا ربّ أنت الذى خلقتنى ، وانت المتكفل بتسريبتى ؛ وأنا

(١) اتاب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَرَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى] أى : إليه أتوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله :
﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. (٣٦)﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه . أى : كونوا تائبين
وكونوا متقين . [القاموس القويم ٢ / ٢٩٠] .

(٢) خوله : ملكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١ / ٢١٤] .

أَتَرْكُلْ عَلَيْكَ فِي مَصَالِحِي ، فَأَنْقِذْنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرِّبَانِ الذي يَنْقِذُهُ اللهُ بِأَعْجُوبَةٍ مِنَ الْعَاصِفَةِ ؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسُوا الْمُنْعَمَ الْمُسَبَّبَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وإياكم أن تُفْتَنُوا بِالْأَسْبَابِ ؛ فستغفلوا عن الْمُسَبَّبِ ؛ وهو سبحانه مُعْطَى الْأَسْبَابِ .

وأقول ذلك حتى لَا تَقْعُوا فِي ظُلْمِ أَنْفُسِكُمْ بِالشُّرْكِ بِاللهِ ؛ فسبحانه القائل :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ^(١) إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) ﴾

[الأنعام]

والظلم - كما نعلم - هو أن تُعْطِيَ الحق لغير صاحبه ؛ فكيف يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَتَجَاهَلَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ ؟ فيقع في الشرك الخفى ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾

[القصص]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) لم يلبسوا إيمانهم بظلم - أى - لم يخالطوا إيمانهم بشرك ، وهو الظلم العظيم ، ولا بأي نوع من الظلم ، [القاموس القويم ١٨٨/٢] -

﴿ اَفَاٰمَنُوْا اَنْ تَاْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّٰهِ اَوْ تَاْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ (١٠٧)

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذي يعمُّ ؛
لأن الغاشية هي العقاب الذي يعمُّ ويغطّي الجميع ؛ أم أنهم استبطنوا
الموت ، واستبطنوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلّق على رقاب
الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته » (٣) .

فما الذي يُبطّئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدى لله ، بدون
أن يمسّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتة ؛ أى : بدون جرس
تمهيدى .

ونعلم أن مَنْ سيقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن
إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخلق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع
أحداثه .

والفائم مثلاً لا يعرف كم ساعة قد نام ؛ لأن وعيّه مفقود فلا

(١) قال مجاهد : عذاب يفشاهم . وقال قتادة : وقية تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى السواحق
والقوارع . [تفسير القرطبي ٥ / ٢٦٠٨] .

(٢) بغتة - يفتاً وبغتة : فاجاه على غرة وغفلة . قال زعمال : ﴿ فَاَخَذْنَاهُمْ بِغَتَةٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴾ (٩٦) [الانعام] .

(٣) ذكره العجلوني فى كشف الحقائق (حديث رقم ٢٦١٨) من أنس بن مالك رضى الله عنه .
ونصاه : « اكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غلى كثره عليكم ، وإن ذكرتموه فى
صيق وسعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعرف الزمن ، والذي يوضح لنا ان الذين سيقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق :

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦) [التازعات]

ويأتى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨)

أى : قل يا محمد هذا هو منهجى . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق :

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي .. ﴾ (١٠٨) [يوسف]

يدل على أن كلمة السبيل تأتى مرة مؤنثة ، كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مذكرة : كما فى قوله الحق :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ (١) يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .. ﴾ (١٤٦) [الأعراف]

وأعلن يا محمد أن هذه الدعوة التى جئت بها هى للإيمان بالله الواحد : وسبحانه لا ينتفع بالمنهج الذى نزل عليك ليُطبَّقه العباد ، بل

(١) البصيرة : نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور ، وهى أيضاً ما يبصره القلب من الحق الواضح . والبصيرة : البيان الواضح والحجة المقتنعة والطريقة البينة التى لا تيس فيها ولا تموض . [القاموس القويم ١ / ٧٠] بتصريف .

(٢) الغي : الفساد والضلال والخيبة . والغواية : الانهماك فى الغي . [لسان العرب - مادة : غوى] .

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الاول قبل كل شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعا هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم انتم ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِر .

ولنقرأ قوله الحق:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذِنَتْ ^(٢) لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق]

فهى تنشق فور سماعها لأمر الله ، وتأتى لحظة الحساب .

وقوله الحق :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ .. ﴾ (١٦٨) [يوسف]

أى : ادعو بالطريق الموصِّل إلى الله إيمانا به وتقبُّلا لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر - كما نعلم - للمُحَسَّنَات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسى لا يُوَدِّى نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هى يقينٌ مصحوبٌ بنور يقنع النفس البشرية ، وإن لم تكن الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها فى

(١) أذنت : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القريم ١/٣٦٦] .

(٢) حق الأمر بحق : ثبت ووجب . وحق له : ثبت له . وحق له بالبناء لمتجهول أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق] أى : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٦] .

النِّمَّ . ولو قاسَتْ هِي هَذَا الامر بعقلها لما قَبِلَتْهُ ، لكنها بالبصيرة قَبِلَتْهُ ؛ لانه وَاَرَدَ مِنْ الله لَا مُعَانِدَ لَهُ مِنَ النَفْسِ الْبَشَرِيَّةِ .

فالبصيرة اِنَّ : هِي يَقِينٌ وَنُورٌ مَبْنِيٌّ عَلَى بَرَهَانٍ مِنَ الْقَلْبِ ؛ فَيُطِيعُهُ الْعَبْدُ طَاعَةً بِتَفْوِيضٍ ، وَيُقَالُ : اِنَّ الْاِيْمَانَ طَاعَةُ بِصِيرَةٍ .

ويمكن ان نقرأ قوله الحق :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي اَدْعُو اِلَى اللّٰهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۚ ۞ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها :

﴿ اَنَا وَمَنْ اَتَّبَعَنِي ۚ ۞ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

او نقرأها كاملة :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي اَدْعُو اِلَى اللّٰهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ اَنَا وَمَنْ اَتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّٰهِ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ ۞ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وقول الحق :

﴿ وَسُبْحَانَ اللّٰهِ ۚ ۞ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

اي : اَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنْزَهُ تَنْزِيْهًا مُّطْلَقًا فِي الْذَاتِ ، فَلَا ذَاتَ تُشَبِّهُهُ ؛ فَذَاتُهُ لَيْسَتْ مُحْصَوْرَةٌ فِي الْقَالِبِ الْمَادِيِّ مِثْلَكَ ، وَالْمَنْفُوخَةُ فِيهِ الرُّوحُ ، وَسُبْحَانَهُ مُنْزَهُ تَنْزِيْهًا مُّطْلَقًا فِي الْاَفْعَالِ ، فَلَا فِعْلَ يُشَبِّهُ فِعْلُهُ ؛ وَكَذَلِكَ صِفَاتُهُ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْبَشَرِ ، فَحِينَ تَعْلَمُ اَنَّ اللهَ يَسْمَعُ وَيَرَى ، فَخُذْ ذَلِكَ فِي نِطَاقٍ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ ۞ (١١١) ﴾ [الشورى]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك : لأن وجوده وجود واجد أزلي ، وانت حدث طارئ على الكون الذي خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء^(١) والمعراج^(٢) على قدرة رسول الله ﷺ : ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أسرى بي »^(٣) .

ونزل قول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ : ولكن بقوة من خلق الكون كله ، القادر على كل شيء ، والذي لا يمكن لمؤمن حق أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٩]

(١) أسرى يسرى : سار ليلاً ، وأسرى به : جعله يسرى . أو حمله معه على السير ليلاً . وهذا يشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومعيناً له في إسرائه [القاموس القويم ٢١٢/١] .

(٢) معراج يعرج عروجاً ، صعد وعلا وارتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع : معارج . [القاموس القويم ١٢/٢] .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم في صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

وينتقل الحق سبحانه هذا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ :
فالحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٤)
[الإسراء]

أى : أنهم كانوا يطلبون رسولا من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل . ولو كانت قد حدثت من قَبْلُ ؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ » .

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدَّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى :
﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٥)
[الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحسبوا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأن تكون قُدوة أو أُسوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة :
﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۖ﴾ (٩٦)
[التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسوة للإنسان ؛ لأن الملك مخلوق غيبي غير مُحَسَّن من البشر ؛ ولو أراد الله رسولا لجسده بشرا ؛ ولو جعله بشرا لبقيت الشبهة قائمة كما هي .

أو : أن الآية جاءت لِتَسُدَّ على الناس ذرائع^(١) انفتحت بعد ذلك

(١) الذريعة : الوسيلة . وقد تفرع فلان بذريعة ، أى : توسل . والجمع : الذرائع . والذريعة : السبب إلى الشيء . يقال : فلان ذريعتى إليك . أى : سببى ووصلتى الذى أتسبب به إليك . [لسان العرب - مادة : ذرع] .

على الناس في حروب الردة حين ادّعت سجاح أنها نبيه مُرسلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .. ﴾ (١٠٩)

[يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامً بلاغ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكَنًا .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألا يسقط عنه تكليف تعبدى في أى وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث^(١) ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُستوفى الأداء التكليفى فى أى وقت .

ثم كيف يطلبون ذلك ولم تأت فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أياً منهم ، ولم يستأذن من أى واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يؤمر أن يُبلّغه للناس ، ويكون الأمر بواسطة الوحى .

والوحى كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مفوض لبلاغ ما يجب أو يُشرع ؛ لكن كل رسول مكلف بأن ينقل ما يُبلّغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوضه الحق سبحانه فى أن يُشرع ، ونزل فى القرآن :

﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

(١) طمئت المرأة تطمئ : حاضت ، والطمئ : الدم والنكاح ، [لسان العرب - مادة : طمئ] .

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم :

﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .. (١:٩) ﴾

[يوسف]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة في عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدوئ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض . وترقُّ حاشية^(١) كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدوئ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْلَ على ظهر جَمَله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكَلَا^(٢) لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون في أهل القرى رِقَّةٌ وعِلْمٌ وأدبٌ تناول وتعامل ؛ ولذلك لم يأت رسول من البدو كي لا تكون معلوماته قاصرة ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قول وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحُسْنِ المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُسَاةً ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعي .

(١) الحاشية السجاني والفاصية . أي : أنه يكون مهذباً يمت الطباع ، حسن السمات . لين الجانب ، سليم الطوية .

(٢) الكلا : العشب والبقل . وقيل : هو العشب رطباً ويابساً . [لسان العرب - مادة - ك] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..
(١٢٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم إن كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها :
ولا يعلمون متى يعودون : فليأخذوا الدنيا مقياساً : وليتظروا فى
رُقعة الارض : ويتظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسَل ، إنهم سيجدون
أن الهلاك والعذاب قد حاقاً^(١) بكل مُكذَّب .

ولو أنهم ساروا فى الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لراوا قُرَى مَنْ
نحتوا بيوتهم فى الجبال^(٢) وقد عصفت بها الحق سبحانه ، ولراوا أن
الحق قد صبَّ سَوَطَ العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ
من الآخرة : فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..
(١٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو من لَفَتَاتِ الكَوْنِيَّاتِ فى القرآن ، فقد يما كنا
لا نعرف أن هناك غلافاً جويّاً يحيط بالارض ، ولم نَكُنْ نعرف أن هذا
الغلاف الجوى به الأكسوجين الذى نحتاجه للتنفس .

ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

(١) حاق به الشيء : يحيق : نزل به وأحاط به . واحاق الله به : أنزله . وقيل : حاق بهم العذاب
أى : أحاط بهم ونزل كانه وجب عليهم . [لسان العرب - مادة : حيق] .

(٢) هؤلاء هم أصحاب الحجر ، قال عنهم رب العزة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ (٨٧)
وَاتَّبَعُوا آبَاءَهُمْ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨٨) وَكَانُوا يَتَحَفَّضُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا آمِنِينَ (٨٩) فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ (٩٠) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩١) ﴾ [الحجر] .

وأنت حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوى يكون فوقك ؛ وبذلك فأنت تسير فى الأرض ؛ لأن ما فوقك من غلاف جوى هو من ملُحقات الأرض .

والسَّيْر فى الأرض هو للسياحة فيها ، والسياسة فى الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبرُ الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله :

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾ (٩)

[الروم]

ويُعبرُ سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ..﴾ (٢٠)

[العنكبوت]

إذن : فسياحة الاعتبار هى التى تُلَفَّتْ لِقَدْرَةِ اللَّهِ سبحانه ، وسياحة الاستثمار هى من عمارة الأرض . يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ..﴾ (١٠٠)

[النساء]

وأنت مُكَلَّف بهذه المهمة ، بل إن ضائق عليك مكان فى الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ..﴾ (٩٧)

[النساء]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرط ألا يُلْهِيك الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾ (١٠٩)

[يوسف]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال^(١) الذى حدث لهم فى الدنيا :
بل هناك نكالٌ أشدُّ وطأة فى انتظارهم فى الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٩)

[يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كذبوا : يظهر لنا كمقابل
لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المكذبين بالتعبير
المباشر ، ويُسمون ذلك فى اللغة بالاحتباك^(٢) .

مثل ذلك قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾ (٤٦)

[الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتى العقاب من جانب الله ، وناخذ المقابل له فى الدنيا :
ومرة يأتى بالثواب المقيم للمؤمنين ، وناخذ المقابل فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتى
لهم بما هو أشدَّ شراً من عذاب الدنيا فى اليوم الآخر ؟

(١) النكال : التعكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كُفَّيَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ .. ﴾ (٥٥) [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم ٢ / ٢٨٨] .

(٢) هو نوع من أنواع الحذف ، قال السيوطى : « هو من اللفظ الأنواع وأبدعها ، وقل من تنبيه له أو تنبيه عليه من أهل فن البلاغة . وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ .. ﴾ [البقرة] . التفسير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى يتعق ، والذى يُتعق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة ، الذى يتعق ، عليه . ومن الثانى الذى يتعق به لدلالة ، الذين كفروا ، عليه ، [الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ١٨٢] .

وأقول : إن السياق العقلى السطحى الذى ليس من الله : هو الذى
يمكن أن يُذكّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .
ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عدل عن هذا إلى المقابل
فى المؤمنين ؛ فقال :

﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٩)

[يوسف]

فإذا جاء فى الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء فى الآخرة بالثواب
للمتقين ؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ
عسير . وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كي نعرف كيف يُحبك
النظم القرآنى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا
يُرْدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١١٠)

وكلمة :

﴿ حَتَّىٰ ﴾ (١١٠)

[يوسف]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامت هناك غاية فلا بد أن بداية
ما قد سبقتها ، ونقول : « أكلت السمكة حتى رأسها » . أى : أن
البداية كانت أكل السمكة ، والنهاية هى رأسها .
وبالبداهة التى تسبق :

﴿ اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ .. ﴾ (٦١١) [يوسف]

هى قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٦١٢) [يوسف]

وما دام الحق سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمِنُوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيسر الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحْمَلَ المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا الْمُخْتَبَر اختِباراً دقيقاً .

ولا بد أن يمر الرسول - الأسوة لمن معه - ومن يتبعه من بعده بمحن كثيرة ، ومن صبر على المحن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أهل لأن يحمل المهمة ^(١) .

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا^(٢) مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ .. ﴾ (٦١٤) [البقرة]

إذن : لا بد من اختبار يُمَحِّص - ونحن فى حركة حياتنا نُؤَهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم تُؤَهِّله

(١) مثال هذا : قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا فَصَلْ طَائِفَتٍ بِالْجُرُودِ قَالَ إِنْ اللَّهُ بِتَلْبِكُمْ بِنَهْرِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هَرَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .. ﴾ (٦١٤) [البقرة] .

(٢) خلا الأمر ، يخلو : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿ وَرَأَتْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا لَهَا نَذِيرٌ ﴾ (٦١) [فاطر] أى : مضى وسبق . [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

لنيل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤمله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإن أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجهد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتولى مسئولية العمل الذي يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بالنا بعملية بعث رسول إلى قوم ما ؟ لا بُدَّ إذن من تصحيحه هو ومن يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا المؤمن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستينس الرسل ؟

نقول : فلنفهم أولاً معنى « استيناس » ؛ وهناك فرق بين « يأس » و « استيناس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شيء ، و « استيناس » تعنى : أنه يُلحَّ على قطع الأمل .

أى : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومن قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إن كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مسببه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تصل به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمنى الأسباب ؛ لأن معنى المسبب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَيَاسُرُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ

﴿ (٨٧) ﴾

[يوسف]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيذاً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِقَ النواميس .

أما المؤمن فهو يأوى إلى رُكنٍ شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مُسَبِّب كل الأسباب ، والقادر على أن يَخْرِقَ الأسباب .

ولماذا يستبشرون الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجيل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلاً :
سأل المؤمنون :

﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ .. (٩١) ﴾

[البقرة]

فضلاً عن ظنهم أنهم كُذِّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا .. (٩١) ﴾

[يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » ر « الياء » منها « كَذَّبَ » ، و « كُذِّبَ عليه » و « كُذِّبَ » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقل هو من يُورد كلامه على ذهنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشيد الذي لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام

على عَوَاهِئِهِ^(١) : ولا يمسرر الكلام على ذمّه : ولذلك يقال عنه « مخرف » .

وقد سبق لنا أن شرحنا الصدق ، وقلنا : إنه تطابق النسبة الكلامية مع الواقع . والكذب هو ألا تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع .

وَمَنْ يَقُولُ كَلَامًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ : يقال عنه : إنه مُتَعَمِّدُ الْكُذْبِ ، وَمَنْ يَقُولُ كَلَامًا بِغَالِبِيَةِ الظَّنِّ أَنَّهُ لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ ، ونقله عن غيره : فهو يكذب دون أن يُحْسِبَ كُذْبَهُ اقْتِرَاءً . والإنسان الذي يَتَوَخَّى الدَّقَّةَ ينقل الكلام منسوباً إلى مَنْ قَالَه له : فيقول « أخبرني فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقول دائماً : يجب أن يَفَرِّقَ العلماء بين كذب المُفْتَتِنِ ، وكذب الخبير : وكذب المُخَيَّرِ . فالخبير الكاذب مسئول عنه مَنْ تَعَمَّدَ الكذب ، أما الناقل للخبير ما دام قد نسبته إلى مَنْ قَالَه ، فموقفه مختلف .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرتها عنها نجد لها قراءتين : قراءة هي : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » أي : حَدَّثَهُمْ غَيْرُهُمْ كُذْبًا ؛ وقراءة ثانية^(٢) هي : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » وهي تعني : أنهم قد

(١) القى الكلام على عَوَاهِئِهِ : لم يتدبره - وقيل - هو إذا لم يُبَلِّغْ أَصَابَ أم أخطأ - وممن الشيء إذا حضر ، أي : أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل من خطأ وصواب . [لسان العرب - مادة : عهن] .

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكرها القرطبي في تفسيره (٣٦١١/٥) قال : « قرأ مجاهد وخميد : « قد كُذِّبوا » بفتح الكاف والذال مُخَفَّفًا ، على معنى - وظن قوم الرسل أن الرسل قد كُذِّبوا ، لما رأوا من تفضُّلِ الله عز وجل في تأخير العقاب » .

ظَنُّوا أَن مَّا قِيلَ لَهُمْ مِّنْ كَلَامٍ عَنِ النَّصْرِ هُوَ كَذِبٌ .

ولِقَائِلَ أَن يَسْأَلَ : كَيْفَ يَظُنُّ الرِّسْلُ ^(١) ذَلِكَ ؟

واقول : إِن الرِّسْلَ حِينَ يَطْلُبُ مِنْ قَوْمِهِ الْإِيمَانَ : يَعْلَمُ أَنَّ مَّا يُؤَكِّدُ صِدْقَ رِسَالَتِهِ هُوَ مَجِيءُ النَّصْرِ ؛ وَتَمَرُّ عَلَيْهِ بَعْضُ مِنَ الْخَوَاطِرِ خَوْفًا أَن يَقُولَ الْمُقَاتِلُونَ الَّذِينَ مَعَهُ : « لَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنَا » ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ إِخْبَارٌ بِالرَّاجِحِ .

وَلَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ الرِّسْلِ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُعَاذَ اللَّهِ - قَدْ كَذَّبَهُمْ وَعَدَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ النَّصْرَ سَيَأْتِيهِمْ بِسُرْعَةٍ ؛ وَأَخَذُوا بِطَاءِ مَجِيءِ النَّصْرِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَأْتِيَ .

أَوْ : أَنَّهُمْ خَافُوا أَن يُكَذِّبَهُمُ الْغَيْرُ .

وَلِذَلِكَ نَجِدُ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يُعَلِّمُ رِسْلَهُ أَنَّ النَّصْرَ سَيَأْتِي فِي الْمَوْعَدِ الَّذِي يَحْدُدُهُ سَبْحَانَهُ ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ ، فَسَبْحَانَهُ لَا يَعْجَلُ بِعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ .

وَيَقُولُ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . ﴾ (١١٠) [يوسف]

(١) سَأَلَ عُرْوَةُ بْنُ هِشَامٍ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ مِنْ وَجَلْ : ﴿ وَحَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرِّسْلُ .. ﴾ [يوسف] فَقَالَ : أَكْذَبُوا أَمْ كَذَّبُوا ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : كَذَّبُوا . قُلْتُ : فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ تَوَمُّهُمْ كَذِبَهُمْ ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ ؟ قَالَتْ : أَجَلَ لِعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ . فَقُلْتُ لَهَا : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا .. ﴾ [يوسف] قَالَتْ : مُعَاذَ اللَّهِ ، لَمْ تَكُنِ الرِّسْلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا . قُلْتُ : فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ ؟ قَالَتْ : هُمْ أَتْبَاعُ الرِّسْلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرِّسْلُ مَعَهُمْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرِّسْلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا عِنْدَ ذَلِكَ ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٤٦٦٥) وَأَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَقْسِيرِهِ (٣٦١١/٥) .

وهكذا يأتى النصر بعد الزلزلة الشديدة : فيكون وَقَعَهُ كَوَقَعَ الْمَاءُ
 عَلَى ذِي الْغُلَّةِ^(١) الصَّادِى ، وَلَنَا أَنْ نَتَخِيلَ شَوْقَ الْعِطْشَانِ لِكُوبِ الْمَاءِ .
 وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطى غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون
 فى الغرور ، وحين يأتى النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ،
 وأيضاً يتضاعف غم الكافرين به .

وسجىء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين : لأن تلك
 هى مشيئة الله الذى يقع بأسه وعذابه على الكافرين به .
 ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
 مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي
 بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
 لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١٣)

ونلاحظ أن هذه الآية جاءت فى سورة يوسف : أى : إن أردت
 قصة يوسف وإخوته : ففى السورة كل القصة بمراميتها وأهدافها
 وعظمتها ، أو المهم فى كل قصص الانبياء .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِفُؤَادِكَ ..﴾ (١١٤) [هود]

ونعلم أن معنى القصص ماخوذ من قص الأثر : وتتبعه بلا زيادة
 أو نقصان .

(١) الغلة : شدة العطش وحرارته . ويعبر غلّ وغلان : عطشان شديد العطش . [لسان العرب .
 - مادة : غل] والصّدَى : شدة العطش .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١)﴾ [يوسف]

وفى أول السورة قال الحق :

﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٦)﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلى إلى خفى .

والعبرة فى هذه القصة - قصة يوسف - وكذلك قصص القرآن كلها : نأخذ منها عبرة من الجلى فيها إلى الخفى الذى نواجهه : فلا نفعل الأمور السيئة : ونُقدم على الأمور الطيبة .

وحين نُقبل على العمل الطيب الذى جاء فى أى قصة قرآنية :
وحين نبتعد عن العمل السيء الذى جاء خبره فى القصة السقرآنية :
بذلك نكون قد أحسنّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى القصص القرآنى : وفى قصة يوسف تحديداً : وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد مِثْلَ العبرة ، ويبنى حياته على ألا يظلم أحداً .
وحين يرى الإنسان مستأ المظلوم وهو ينتصر : فهو لا يحزن إن تعرض لظلم : لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أى : انتقل من شاطئ إلى شاطئ .

وكذلك قولنا « تعبر الرؤيا » أى : تؤولها : لأن الرؤيا تأتى

رمزية : وتعبرها أى : تشرحها وتنقلها من خفى إلى جلى : وإيضاح المطلوب منها .

وَنَصِفُ الدَّمْعَةَ بِأَنَّهَا « عَبْرَةٌ » ؛ وَالْحَزَنُ الْمَدْفُونُ فِي النَّفْسِ
الْبَشَرِيَّةِ تَدُلُّ عَلَيْهِ الدَّمْعَةُ .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١١١) [يوسف]

وَالْعِبْرَةُ قَدْ تَمَرُّ ، وَلَكِنْ لَا يَلْتَقِثُ إِلَيْهَا إِلَّا الْعَاقِلُ الَّذِي يُمَحِّصُ
الْأَشْيَاءَ ، أَمَّا الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْهَا مُرُورَ الْكَرَامِ ! فَهُوَ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا .

و« أُولَى الْأَلْبَابِ » هُمُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ ، وَ« الْأَلْبَابِ »
جَمْعُ « لُبٍّ » . وَاللُّبُّ : هُوَ جَوْهَرُ الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ ؛ وَالْقَشْرُ مَوْجُودُ
لِصَيَاةِ اللَّبِّ ، وَسُمِّيَ الْعَقْلُ « لُبًّا » لِأَنَّهُ يَنْثَرُ الْقَشُورَ بَعِيدًا ، وَيُعْطِينَا
جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ وَخَيْرَهَا .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴾ (١١٢) [يوسف]

أَيُّ : أَنْ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْزَلَهُ الْحَقُّ وَحْيًا عَلَيْكَ
لَيْسَ حَدِيثٌ كَذِبٌ مُتَعَمَّدٌ ؛ بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَطَابِقُ الْكُتُبَ الَّتِي سَبَقَتْهُ .

وَيُقَالُ : « بَيْنَ يَدَيْكَ » أَيُّ : سَبَقَكَ ؛ فَإِذَا كُنْتَ تَسِيرُ فِي ظَاهِرٍ ؛
فَمَنْ أَمَامَكَ يُقَالُ لَهُ « بَيْنَ يَدَيْكَ » ، وَمَنْ وَرَاءَكَ يُقَالُ لَهُ « مَنْ
خَلْفَكَ » .

وَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ لِيَصْدُقَ الْكُتُبَ الَّتِي سَبَقَتْهُ ؛ وَلَيْسَتْ هِيَ الَّتِي
تُصَدَّقُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْمُهَيْمِنُ ، وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ..﴾ (٤٨) ﴿[المائدة]

ويضيف الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها :

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ (١١١) ﴿[يوسف]

فالقُرآن يُصَدِّقُ الكُتُبَ السَّابِقَةَ ، وَيُفَصِّلُ كُلَّ شَيْءٍ ؛ أَيُ : يعطى كل جزئية من الأمر حُكْمَهَا في جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْمَلاً ، بل يجرى تفصيل كل حُكْم بما يناسب أيُّ أمر من أمور البشر .

وفى أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » .
أى : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكَمَةٌ عليه حين يرتديها .

وفى الأمور العقديّة تجد - والعيان بانث - مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة فى الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شىء ، ويعجز عن شىء آخر ؟

وإن قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نردُّ عليهم : ليست تلك هى الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ^(١) وَرَجُلًا سَلَمًا^(٢) لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحالُ هذا العبد المملوك لهم
يعيش في ضنك وعذاب ؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحالُه
يختلف ؛ لأنه يَأْتُمِرُ بأمر واحد ؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانُ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله في الكون ، فنقول له : وهل يُعقل
أن كل هذا الكون الدقيق والمُحْكَم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصِّلَ هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد
سوى إله واحد في الكون ، ونجد القرآن يُفَصِّلُ لنا الأحكام ؛ ويُنْزِلُ
لكل مسألة حُكْمًا مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حُكْمٌ من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحْكَم والمُتَشَابِه ؛ والمثل هو قول
الحق سبحانه .

﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران]

ويقول في موقع آخر :

(١) متشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشترك له آلهة متعددة يتنازعون فيه .
[القاموس القويم ٣٥٤/١] .

(٢) سَلَمًا : أى مُلْكًا خالصاً له لا يتنازعه فيه أحد . [القاموس القويم ٢٢٤/١] .

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ (١٣٢) [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « فسى » : لأن كلاً منها مناسبة ومُفَصَّلَةٌ حَسَبَ موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعنى أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهى الغاية التى سيجعل إليها ، أما مَنْ يسارع فى الخيرات : فهو يحيا فى الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد فى الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) [لقمان]

ونجد قوله الحق :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٢) [الشورى]

وواحدة منهما وردت فى المصائب التى لها غَرِيم ، والأخرى قد وردت فى المصائب التى لا غريم فيها : مثل المرض حيث لا غريم ، ولا خُصومة .

أما إذا ضربنى أحد : أو اعتدى على أحد أبنائى : فهو غريمى وتوجد خُصومة : فوجوده أمامى يهيج الشرف فى نفسى : وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ﴾ (٢) [فصلت]

أى : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذى نزلت فى مناسبتة .

ومثال هذا هو قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ^(٣١) نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١)

[الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١)

[الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسِقٌ فِي دَاخِلِهَا ، وَتَمَّ تَفْصِيلُهَا بِمَا يَنْسَبُ مَا جَاءَتْ لَهُ ، فَقَوْلُهُ :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ .. ﴾ (١٥١)

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُتَشَغِلٌ بِرِزْقِهِ عَنْ رِزْقِ ابْنِهِ ،
أما قوله :

﴿ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ .. ﴾ (٣١)

[الإسراء]

أى : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْفٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى الْإِنْسَانِ ؛
وهو خوف من أمر لم يَطْرَأَ بَعْدَ .

وهكذا نجد في القرآن تفصيل كل شيء تحتاجونه في أمر دنياكم
وأخركم ، وهو تفصيل لكل شيء ليس عندك ؛ وقد قال الهمداني :
ملكة سبأ بلقيس :

﴿ وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٦٢)

[النمل]

(٦٢) أَمْلَقٌ : افتقر بعد غنى ، وإِمْلَاقٌ : الفقر . [القاموس القويم ٢/ ٢٣٤] .

وليس معنى هذا أنها أوتيت من كل شيء في هذه الدنيا ، بل هي
قد أوتيت من كل شيء تملكه ، أو يُمكن أن تملكه في الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ۝ (١١١) ﴾ [يوسف]

لا يعنى أن نسال مثلاً : « كم رغيفاً فى كيلة القمح ؟ » .

وقد حدث أن سأل واحد الإمام محمد عبده هذا السؤال ! فجاء
بخيار ، وساله هذا السؤال ! فأجاب الخبان ! فقال السائل : ولكنك لم
تأت بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله
الحق :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفَرِّط فى الكتاب من شيء .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن الهدى هو الطريق المؤدى إلى الخير ، وهذا الطريق
المؤدى إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثانى : علاج لمن وقع فى المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أَنْ أَنْاسًا يَعْمَلُونَ الشَّرَّ : فنردهم عنه ونشفيهم
منه : لأنه مريض ، وهو رحمة بمعنى ألا يقعوا فى المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآني قد نزل وقاية لمن لم يقع في المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لمن وقع في المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآني وقاية وعلاجاً ، فيقول :

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

[يوسف]

أى : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقي أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذي يمكنك أن تعود إليه فى كل ما يصون حياتك ، فإن كنت مؤمناً بالله ؛ فُخِّذْ الهدى ، وُخِّذْ الرحمة .

ونسأل الله أن تُعطى هذا كله .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وغير ذلك من الحروف التوقيفية التي جاءت في أول بعض من فَوَاتِحِ السُّورِ .

ولكن الذي أحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القرآن كلها مَبْنِيَّةٌ على الوَصْلِ : لا على الوقْفِ ؛ ولذلك تجدها مَشْكُولة ؛ لأنها مَوْصُولَةٌ بما بعدها .

وكان من المفروض - لو طَبَّقْنَا هذه القاعدة - أن نقرأ « المر » فننطقها : « أَلْفٌ » « لَامٌ » « مِيمٌ » « رَاءٌ » ، ولكن شاء الحق سبحانه هنا أن تأتي هذه الحروف في أول سورة الرعد مَبْنِيَّةٌ على الوقف ، فنقول : « أَلْفٌ » « لَامٌ » « مِيمٌ » « رَاءٌ » .

وهكذا قرأها جبريل عليه السلام على محمد بن عبدالله ﷺ ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. ﴾ (١)

[الرمز]

أى : أن السورة القادمة إليك هي من آيات الكتاب الكريم - القرآن - وهي إضافة إلى ما سبق وأنزل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) [الفاحة]

في أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس.

ونعلم أن الإضافة تأتي على ثلاث مَعَانٍ : فمرة تأتي الإضافة بمعنى « من » مثل قولنا « أردب قمح » والمقصود : أردب من القمح .

ومرة تأتي الإضافة بمعنى « في » مثل قولنا : « مذاكرة المنزل » والمقصود : مذاكرة في المنزل .

ومرة ثالثة تأتي الإضافة بمعنى « اللام » ومى تتخذ شكلين .

إمّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالُ زيدٍ لزيدٍ » .

والشكل الثانى أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجام الفرس »
أى : أن اللجام يخص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لجاماً .

إنن : فقول الحق سبحانه هنا :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

يعنى تلك آيات من القرآن ؛ لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقتُ : فهى
تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول « فلان الرجل » أى : أنه رجل حقاً ؛ وكأن
سلوكه هو معيار الرجولة ، وكأن خصال الرجولة فى غيره ليست
مُكتملة كاكتمالها فيه ، أو كقولك « فلان الشاعر » أى : أنه شاعر
مُتميزٌ للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقتُ ينصرف فى العقائد إلى
القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلقت فى النحو انصرفت إلى كتاب
سيبويه الذى يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه فى وصف القرآن الكريم :

﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن مراد الذى يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء
تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى^(١) وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١) [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكسب منكم ، لكنه شاء أن ينزل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) [الرعد]

أى : أن أكثر من دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يحسنوا تأمل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهوى ، وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢)

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه ..﴾ (١٧٢) [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عنده نفسه . [القاموس القويم ٢ /

وكلمة « الله » عَلمٌ على واجب الوجود ؛ مَظْمُورَةٌ فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظة أن تقول « الله » كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطَى » إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبطر^(١) »^(٢) .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّرَ لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسَخَّرْ أنت الأشياء بقدرتك .
ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أى عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لأنه سبحانه هو الذى ذُلِّلَ للإنسان كل شيء ، ولو لم يُذَلِّلْهَا لَمَا استجابت لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل ، ويأمره بأن « ينخ » ويركع على أربع ؛ فيمثل الجمل لذلك .

ونجد اليرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كله عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويذل هذا الإنسان الجُهدَ الجَهِيدَ لِيُمسِكَ به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسَخَّرْ أى شيء بإرادته أو مشيئته ،

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره ، فهو أبطر . والبتر : أصله القضم الحسى والقضم المعنوى من الخير . [نسان العرب - مادة : بتر . القاموس القويم ٥٤/١] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢٥٩/٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبطر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذي يذلل كل الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧٢) [يس]

وانت حين تُقبل على أى عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإن أقبلت على عمل يحتاج مالا : تقول : « باسم الغنى الذى وهبني بعضاً من مال أقضى به حاجاتي » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبل عليها تحتاج إلى قدرة : وحكمة : وغنى ، وبسط : وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخر بها سبحانه لك كل شئ : فشاءت رحمته سبحانه أن سهل لنا أن نفتتح أى عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسمونه « علّم على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المطلق إلا فيه : فصارت كالاسم .

فالعزیز على إطلاقه هو الله . ولكننا نقول عن إنسان ما « عزيز قومسه » ، ونقول « الغنى » على إطلاقه هو الله ، ولكن نقول « فلان غنى » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفات أخذت مرتبة الأسماء : وهى إذا أطلقت إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْلِ أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماء ذات ؛ وإما أن تكون أسماء صفات ؛ فَإِنْ كان الاسم لا مقابل له فهو اسم ذات ؛ مثل : « العزيز » .

أما إِنْ كان الاسم صفة الصفة والفعل ، مثل « الْمُعِزُّ » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذِلُّ » .

ولو كان يقدر أن يُعَزَّ فقط ؛ ولا يقدر أن يُذِلَّ لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لَمَا استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أن يَسُطَّ ، ولا يقدر أن يقبض^(١) لما استطاع أن يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقابِلها ؛ ويظهر فعلها في الغير ؛ فسبحانه - على سبيل المثال - عزيزٌ في ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمة « الله » هي الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثلاثة سنعرفها إِنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرٌ ^(٢) (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ^(٣) (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلاحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العلوي أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

(١) قال الحلبي في معني الباسط : أنه الناشر فضله على عباده برزق من يشاء ويوسع ويجود ويُفضل ويمكِّن ويخول ويعطي أكثر مما يُحتاج إليه . وقال في معني القابض : يطوى به ومعه روقه عن يريده ويضيق ويكثر أو يحرم فيفقر . ذكره القرطبي في كتابه « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » (١ / ٢٦٠) .

(٢) نشر الوجه : حسنٌ وكان له رونق وبهجة . ويقول تعالى : ﴿ وَفَقَاهُمْ نُفُورًا وَسُرُورًا ^(٤) ﴾ [الإنسان] . أي : وأكسب الله وجوههم نُفُورًا ، أي : حُسْنًا وبهجةً وجمالاً . [القاموس

القيوم ٢ / ٢٧١] .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ .. (٢)﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان في رَضْع ثم رفعته عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

فقد كان أبوا يوسف في موضع أقل ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كانا فيه ، فهل كانت السماء مرفوعة في موضع أقل ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذي قال : « لو قلت : سبحانه الله الذي كَبَّرَ القليل ؛ فهل كان القليل صغيراً ثم كَبَّرَهُ الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإن قلت : سبحانه الله الذي صَغَّرَ البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صَغَّرَهَا الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. (٦)﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفي العرف البشرى نعرف أن مقتضى رفع أى شيء أن توجد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلق الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق^(١) ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

(١) الأفق : الناحية - وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين - وجميعه أفاق . قال تعالى ﴿سُرِّيهِمْ أَنَآ أَنَا لِي الْآفَاقُ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٤٥)﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفَاقِ الْمُبِينِ (٢٢)﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [القاموس القويم ٢٢/١] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أى اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظنُّ أنه من أعمدة رَفَع السماء ؛ وهى مَرْتِيَةٌ هَكَذَا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْتِيَةٍ ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَفَع أمر آخر ؛ فقد قلنا ؛ إن الشيء إذا رَفَع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمِلُهُ ؛ وسيحانه يقول فى أمر رفع السماء ؛

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٥)

[الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكَةٌ من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق ؛ (يمسك) يعنى أنه سيحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بِمَسْحِ الأرض والقضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَدًا ترفع السَّمَاوَاتِ أو تُمسِكُهَا .

والمهندسون يتبارون فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَد ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ والطفَ من أن تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع - لا جمع - ومفردهما «عمود» او «عماد» .
وقد جاءت هذه الآية بمثابة التفسير لما أُجمل في قول الحق سبحانه
في سورة يوسف :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿[يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل : فأوضح لنا أنه :

﴿رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوٰهَا ..﴾ (٢) ﴿[الرعد]

أى : لا ترونها أنتم بحكم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أن
يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العين وسيلة من وسائل الإدراك . ولها
قانون خاص ؛ فهي ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرت إلى إنسان طوله متران يتحرك مُبتعداً
عك ؛ تجده يصغر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه
لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مُحكوم بقانون ؛ له مدى مُحدد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛
وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر تستفيد بآثارها ، ولكننا لا نراها ، فلا
تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين
خاصة .

وبإشاء الحق سبحانه أن يُدلل على صدق ذلك بأن يجعل
ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوَى لم تكن معروفة من
قبل ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندري ؛ مما يدل على أن إدراك

الإنسان غير قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عمد نراها ؛ قد
يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هي مرفوعة
بغير عمد على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. (٢)﴾

[الرعد]

هو كلام خبري ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا
خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحت
له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبري ؛ لكن المراد به إنشائي .

وبإبراز الكلام الإنشائي في مقام الكلام الخبري له ملاحظ ، مثلاً
تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبري ؛
فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغم من أنك لا تدري : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت
ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمة واقعة به ، وكان من الممكن أن تقول :
« مات فلان يا ربّي ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. (٢)﴾

[الرعد]

أي : دققوا وأمعنوا النظر إليها ، وابتحثوا فيما يعينكم على ذلك إن
استطعتم ، وإذا لفّتك المتكلم إلى شيء ليُحرّك فيك حواس إدراكك ؛
فمعنى ذلك أنه واثق من صنّعه .

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يكون له مثل - حين تدخل لتشتري صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة في المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة في المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَدٍ ؛ وانظروا أنتم : بِمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمنان عدم وجود أعمدة مُتَحَقِّقٍ لك ولغيرك على مدى أَفُقٍ أَيْ منكم .

ولكُلِّ إنسان أَفُقُهُ الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه : فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفي التعبير اليومي الشائع يقال : « فلان ضَيِّقُ الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معي ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتُ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجي كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض . وهذا دليل صدق القضية التي قالها الحق سبحانه في هذه الآية :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢)﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهي كل ما علاك فاطلُّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ﴾ (٢٢) ﴿الْبَقَرَةِ﴾

ونعلم أن المضر إنما نزل من السُّحُب التي تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة في السماء ، وإذا أُطْلِقَت السماء انصرفت إلى السماء العليا التي تُظَلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْمٌ ^(١) أم ليس لها جِرْمٌ ؛ وهل هي امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة. وقد نثر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته . وأدلة حكمته ، وأدلة صنّعه في الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة في نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذَّارِبَاتِ)

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون في كل يوم شيئاً
جديداً وسراً عجبياً ، سواء في التشريح أو علم وظائف الأعضاء .
وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التي
كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرك بعضها الآن ،
ويُدرك بعضها لاحقاً.

(٦) الجرم : الجسم والبدن . [ثمان العرب .. مادة : جرم] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالاجسام ، أم هي مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراك البعض للمجهول في الماضي يُؤدِّن بأنك سوف تدرك في المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ^(١) وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ۝ (٥٣) ﴾

[فصلت]

ومعنى ﴿ سُرِّيهِمْ ۖ ۝ (٥٣) ﴾

[فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ؛ لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومن نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاء جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٥٧) ﴾

[غافر]

وأنت حين تفكر في خلق السماوات والأرض ستجده مسألة غاية في الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحير في مسألة خلقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحدٍ ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بالك بخلق السماوات والأرض التى وُجِدَتْ من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنفثق بأمر الله ، وتتكرر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

(١) الأفق : الناحية - وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين ، وجمعه آفاق - [القاموس القديم ١/٢٢] - بتصريف ، والآفق والآفق : ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها - [لسان العرب - مادة : أفق] -

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحَدَّثُ عنها إياك أن تخطط فيها بروحك : أو بتخمينك : لأن هذه مسألة لا تدرك في المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرى تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أن تكتفى بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها : وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٣٦) [الإسراء]

وقد حذر الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين : فلا داعي أن تُرهق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان : وهل كان قرداً في البداية ثم تطوّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدي بك إلى الضلال .

والأمر الثاني : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع . وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٥١)

[الكهف]

(١) قفيا الشيء ، يقفوه : مشى خلفه أو تبعه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٣٦) [الإسراء] ، أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم . ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لغزاً للأبد ؛ ولن تحل أنت هذا اللغز أبداً ؛ بل يحله لك البلاغ عن الحق الذي خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خلقك وخلق الكون كله .

وبدل الإعجاز البياني في القرآن على أن بعضاً ممن يملكون النطموح العقلي أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحة تلك النظريات التي افترضوها بعض من العلماء عن خلق الإنسان وخلق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدماً ألا نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿ مَا أَشْهَدْتَهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضْلِينَ عَصْدًا ^(١) ﴾ (٥٦) ﴿

[الكهف]

والمُضِلّ هو مَنْ يُضِلُّكَ في المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضِلِّين سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساس له من الصحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصص عليه ، ليعرف كيفية خلق الشمس أو الأرض ، ومن يدعى معرفة ذلك فهو من المُضِلِّين ؛ لأنهم ققوا ما ليس لهم به علم .

(١) العصد - المعاون المساعد ، وهو في الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف . ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿ قَالَ مَتَشَدُّ عَصْدُكَ بِأَخِيكَ .. ﴾ (٥٥) ﴿ [القصص] . أي : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العصد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢٤/٢] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صدق ما قاله سبحانه عن خلق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة في الأرض ، وكل ما في الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرّد الوحيد في الكون هو الإنسان ، فيأتي الحق سبحانه إلى هذا المتمرّد : ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صدق الغيب في الأرض

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذي سواه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة : من المُدبّرات أمراً ومن الحفظة : أن تسجد للإنسان .

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذي بدأت حكاية خلقه من تراب ، ثم خلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم ترك قليلاً ليصير حمّاً مسنوناً^(١) ؛ ثم يجفّ الحمّا المسنون ليصير صلّصاً كالغُخّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقَض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلّب الجثمان ، وبعد أن يُوارى التراب يصير الجثمان رَمّةً^(٢) ؛ ثم

(١) الحمّا والحمّاة : الطين الاسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنسانى أو مصوّر بصورة

إنسان أو طين كالغُخّار صالح للتصوير والصفل . [القاموس القويم ٢٣١/١] .

(٢) رَمّ الميت : بلى جسمه . قال تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس] .

والرميم : الخلق البالى من كل شيء . [لسان العرب - مادة : رمم] .

يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ الْمَوْجُودُ فِي الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَبْقَى الْعِظَامُ إِلَى أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى الْأُخْرَى إِلَى تَرَابٍ .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كُلِّ بِنَاءٍ ؛ فَمَا يُبْنَى فِي نِهَايَةِ أَيِّ بِنَاءٍ هُوَ مَا يُنْقَضُ أَوَّلًا ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخْبِرُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنَّ كَيْفِيَّةَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيْسَتْ فِي مُتَنَاولِنَا ؛ فَقَدْ أَعْطَانَا مِنْ قَبْلِ الدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ ، فِيمَا أَخْبَرْنَا بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ..﴾ (٢) [الرعد]

وكلمة « السماوات » فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى ، يقول سبحانه :

﴿فَقَضَاهُنَّ^(١) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ..﴾ (١٢) [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري .

(١) فضاهن : خلقهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلفهن . [القاموس القويم ١٢٢/٢] . وللقضاء معان كثيرة ذكرها السيوطى فى (الإنقان ١٢٨/٢) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿لَإِذَا نُفِثَ مِنْكُمْ مُنَابِكُكُمْ ..﴾ (٢٣) [البقرة] . ومنها : الفصل . فى قوله تعالى : ﴿لَفُفِّسَ الْأَمْرُ لَمْ لَا يُظْهَرُوا﴾ (٢٤) [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ..﴾ (٢٥) [القصص] .

وشاء سبحانه أن يكذب هذا القول وأصحابه أحياء ؛ فرأى علماء
الفلك كواكباً أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان في ذلك لفظة سماوية
لمن قالوا : إن المقصود بالسموات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحسن نية وبرغبة في ربط القرآن بالعلم ؛
لكنهم نسوا أن يدققوا الفهم لما في كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن
الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا^(١) ، فما بالنا بطبيعة
وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ (٢)

[الرفع]

وهذه قضية هي أهم قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛
قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أي قضية لا بد أن نحلل
الفاظها لننقق على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس
للتجادل ونحن غير مستواردين ومتفقين على فهم واحد ؛ فهذا أمر
لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين
نستقرئ كلمة « استوى » في القرآن نجد أنها قد وردت في آيات
متعددة .

وجاءت مرة واحدة بمعنى الاستواء . أي : النضج ، في قول
الحق سبحانه :

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿ وَزَيْنَا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ ثَقَدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت] .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ^(١) وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ..﴾ [١٤] ﴿[القصاص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجَه الكمالى ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبْقَى نوعه ، وإن تزوج فليسوف يُنجِب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ذُو مِرَّةٍ^(٢) فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ [٧] ﴿[النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الافق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ..﴾ [٢٩] ﴿[البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُساوٍ لاستواء البشر ؛ لاننا قلنا من قبل : إن كل شيء بالنسبة لله إنما نأخذه فى إطار :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..﴾ [١١] ﴿[الشورى]

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة محان يفرض اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ..﴾ [٣٦] ﴿[يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ..﴾ [٥١] ﴿[القصاص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتمل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا ..﴾ [٥٢] ﴿[الاحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد . وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [لسان العرب - مادة : شدد] . يتصرف .

(٢) المِرَّة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتله . قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ﴾ [٣٧] ﴿[النجم] . وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [القاموس القويم ٢٢٢/٢] .

لأن النُّضْجَ إشعاراً بكمالِ سَبْقِهِ نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدَقِّقِينَ قد عِلِّمُوا أن ذِكْرَ اسْتِواءِ الله على العرش قد ورد في سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتِواءِ اللَّهِ فِي كَلِمَاتِهِ عَلَى	الْعَرْشِ فِي سَبْعِ مَوَاضِعٍ فَأَعَدُّ
فَقِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ثَمَّةٌ يُونُسَ	رَفِي الرُّعْدِ مَعَ طَلْعِهِ فَلِلْعَدِّ الْكُدِ
وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ثَمَّةٌ سَجْدَةً	كَذَا فِي الْحَدِيدِ أَفْهَعَةً فَهَمَّ مُؤَيِّدِ

وقالوا في المعنى :

فَلَهُمْ مَقَالَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعَةٌ	قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعْمَانِ
وَهِيَ اسْتَقَرُّ وَقَدْ عَالَا	وَكَذَلِكَ ارْتَفَعَ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعَدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ	يَتِمَامِ أَمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحْمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعاني التي تتمشى مع الاستواء في عُرْفِنَا البشري لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سَأَخَذُ اللَّفْظَ كَمَا قَالَهُ اللَّهُ » .

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴾ (١١)

[الشورى]

طبيعاً ، لا أحدٌ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كلَّ فَهْمٍ لشيءٍ يخصُّ الذاتِ العَلِيَّةَ في إطار :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..﴾ (١١) [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدقة^(١) يقولون : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولة بالنسبة لنا ، والسؤال عن كيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة^(٢) تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿يَسْأَلُونَكَ ..﴾ (١٨٩) [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكهم العربية الفطرية قد فهموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فلم يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحّكوا ، فقال واحد : سأخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإن قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولمن قال ذلك تردّ عليه : إن ما تقوله صالح للأغبياء ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيّر ولا يتغيّر . وإذا سألت عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

(١) روى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢] ، [المائدة : ٤] ، [الأعراف : ١٨٧] ، [الأنفال : ١] ، [الإسراء : ٨٥] ،

[الكهف : ٨٣] ، [طه : ١٠٥] ، [النازعات : ٤٢] .

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخلق والكون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أن يخلق الخلق ، ومُعزٌ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذلٌ قبل أن يخلق مَنْ يُذله ، وله سبحانه صفات الكمال المطلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢٥)﴾ [طه]

وكذا تؤمن بأن صفة الخلق كانت في ذاته قبل أن يخلق خلقه ، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلّق ، وهكذا استتبّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذكر استواء الله ، فهذا يعني تمام المُراد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلّق ومَقْدُور .

وإذا وُجِدَت هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفها سبحانه :

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل]

فهي تختلف عن صفة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص في معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواء الله عن استواء خلق الله ، وإذا ذكر استواء

الله على العرش : فذبح نُفَذَهُ اللهُ عَنْ كُلِّ اسْتَوَاءٍ يَنَاسِبُ الْبَشَرَ ،
ونقول :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

واستوؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره
فى توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استوؤه ، أما
كلمة « العرش » فتحن نجدها فى القرآن بالنسبة لله .

إما مضافاً لاسم ظاهر :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧)﴾ [الحاقة]

وإما مضافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧)﴾ [هود]

وإما مضافاً للتنسيب :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرها
عنها :

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢)﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسَخَّرِ مِنَ المُسَخِّرِ أَنْ يَكُونَ كَمَا أَرَادَهُ
تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأى ، ولا هوى ، والتسخير
ضدّه الاختيار .

والكائن المُسَخَّرُ لا اختيار له ، أما الكائن الذى له اختيار فهو إن
شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل .

وَقُلْنَا قَدِيمًا : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ^(١) مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٧) [الأحزاب]

وبذلك قَبِلَ الإنسان أداء الأمانة وَقَتَ أدائها : لا وَقَتَ تحمُّلها ،
ورقت الأداء غَيْرَ وقت التحمُّل ، وضربت المثل بمن يقول لصديقه :
« عندى ألف جنيه : وأخاف أن يضيعوا مِنِّي : فاحفظهم لى معك :
وحين أحتاجهم اعطهم لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأعطيها لك وقت أن تطلبها » .
والصديق صادق وقت تحمُّل الأمانة : لكن ظروفًا تمرُّ عليه ،
فيتصرف في هذه الأمانة : وحين يطلبها صاحبها : قد يعجز حامل
الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل : لكنه
لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظة أن طلب منه ذلك :
« أرجوك ، ابتعد عني لأني لا أضمن نفسي وقت الأداء » .

وقد أَبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقَتَ عَرْضِها :
وَقَبِلَتْ كل منهم التسخير : فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها
قدرة الاختيار ، ولا هوى لائٍ منها في هذه القدرة : مثلها في ذلك
مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان : ولم نجد قسارًا في الأرض

(١) أشفق من الشيء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴾ (٧٧) [الأحزاب] . أى : ضغن من حمل الأمانة . ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها .
[القاموس القويم ٢٥٦/١] .

قد نشأ من ناحية المُسَخَّرَات .

أما الإنسان فقد قَبِلَ تَحْمُلُ الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفَكِّرُ ويختار ؛
ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد في الكون ، ولو أقبل الإنسان
على العمل وكسأته مُسَخَّرَ خاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عمل الإنسان
مثلاً يستقيم عمل كل الكائنات المُسَخَّرَة بأمر الله .

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبّقوا قول
الحق سبحانه :

﴿أَلَا تَطْهَرُونَ﴾^(١) فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ^(٢) وَلَا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ (٩) ﴿ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم في منهجه ، فإن نفذتم المنهج
تستقيم أموركم ، كما استقامت الكائنات المُسَخَّرَة .

ولا يأتي الخلل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال
باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشْرَع ، أما إذا كنا نؤدي أعمالنا
ونضع نُصَبَ أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿أَلَا تَطْهَرُونَ﴾ فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴿ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابقة لمنهج الله ، وستجد في أعمالنا
ما يَسُرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتي إلا من الاختيار غير المُرتجى لمنهج مَنْ

(١) طهى بطهى : تجاوز الحد . [القاموس القويم ٤٠٢/١] .

(٢) القسط : العدل . وقسط يقسط : عدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور [القاموس
القويم ١١٦/٢] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خُيرَكَ .

ولذلك نجد الصالحين من خَلَقَ الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسَخَّرُونَ لمرادات الله .

وهؤلاء يسمونهم «العباد» لا «العبيد» ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هي اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا^(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا^(٢)﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَنْ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول في الملائكة :

﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ^(٣) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ رَهْمَ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(٤)﴾

[الانباء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه في حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مقهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها

عنها :

(١) الْهَوْنُ وَالْهَوْنُ : التَّوَدُّةُ وَالْوَفْقُ وَالسَّكِينَةُ وَالرَّقَارُ . [لسان العرب - مادة : هون] .

﴿ وَسَخَّرَ^(١) الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾

[لقمان]

ولحظة تجد التنوين مثل « كل » فهذه يعنى كلاً من السابق .
 أى : الشمس والقمر . أما الجرى إلى أجل مُسمى : فيقتضى منّا أن نفهم معنى الجرى : وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعين فقد تمشى الهويّنا : لتصل فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة : والجرى بطبيعة الحال ملحوظ ممّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها : ويُسمى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة : ستجد عقرب الثوانى أسرع من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك : وأنت ترى حركة عقرب الثوانى : لأنها تتم قفزاً : بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق : لأنه يتحرك تبعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة : وكل جزئية فى حركة التُّرس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرس عقرب الثوانى : والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

(١) سَخَّرَه : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتُ يَوْمِهِ .. (٥١) ﴾ [الأعراف] . أى : مسخيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ٢٠٦/١] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية في عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى في النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع في اليوم كله .

وإن أردت أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعة سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقراً قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر في حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نفرّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا في العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم]

والأجل هو المدة المحدودة للشيء ؛ وهي محدودة زمناً إن أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل : إما الأجل النهائي لوجود الشمس والقمر : ثم إذا انشقت السماء كُورَت^(١) الشمس ، وانكدرت^(٢) النجوم .
أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومي .

وقد عرقنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة : لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقات وفتحات في البناء .

فتطلع الشمس كُلُّ يوم من أحد هذه الطاقات : فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها . ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمًى أى يومياً .

وُسُمًى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحمل : والجدي : والثور : والأسد : والسنبلة : والقوس : والحوت : ونحن نرصد هذه الابراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق في الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق في الغابات : فتحرق النار

(١) كُورَت الشيء : لَفَّه على شيء مستدير ، فيقال : كُورَ عمامته : لَفَّها على رأسه .
وقوله : ﴿ يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [القاموس القويم ١٧٧/٢] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٤٤) ﴾ [التكوير] . أى : تغيَّرَ لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وسافطت بسرعة كالصفور المنفضة على فراشها عند قيام الساعة . [القاموس القويم ١٥٥/٢] .

الأكسوجين الذي يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس . ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التي تُجرىها الدول أعضاء النادي الذري ؛ تلك التجارب التي تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غير مستقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج في قوله :

حَمَلَ الشُّورُ جَوْزَةَ السَّرَطَانِ وَرَعَى اللَّيْثُ سُنْبُلَ الْمِيزَانِ
عَقْرَبَ الْقَوْسِ جَدَى دَلَوُ وَحُوتِ مَا عَرَفْنَا مِنْ أَمَةِ السَّرِيَانِ

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها :

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (١) [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رفع السماوات بغير عمد ، واستوائه على العرش . وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجري كلُّ شيء لأجل مُسمى .

وكلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قدّر فخلق ، فهو يُدبّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شيء ، وسبحانه كل يوم هو في شأن^(١) .

(١) عن عبيد الله بن منيب الأزدي قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢) [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : إن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين ، أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٢٧٢) .

وأقول هذا المثل لأوضح - لا لأشبهه قسيحانه مُنْزَهُ عن التشبيه -
ونحن نقول : فلان فُكِّرَ أولاً ثم دُبِّرَ ، والتفكير هو العملية التي تبحث
فيها عن الشيء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتي بقليل من حبوب
القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذي يطلب منك أن تبحث وتُنْقَبَ إلى أن تصل إلى
لُبِّ الأشياء - والتدبُّر يقتضي ألا تقتنع بما هناك إليه فكرك في نفس
اللحظة ، ولكن أن تُمَحِّصَ الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل
إليه فكرك ؟

فربما ما فكرت فيه يُسَعِّفُك ويُعِينُك في لحظتك الحسالية ؛ لكنه
سيأتي لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذي أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع
المبيدات الحشرية ؛ ولم يَقْطِنُوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات
الضارة وحدها ، بل تُسَمِّمُ الطيور التي كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا
التحريم ممن تفاخروا من قَبْلُ على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك
المبيدات ، فقد قَطِنُوا إلى أن ما جاءهم من خَيْرٍ عن طريق تلك
المبيدات هو أَقْلُ بكثيرٍ من الضُرِّ الذي وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا
بتمنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان
لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر في دُبُرِ
الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤)

[محمد]

أى : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبيد الله بن مسعود رضى الله عنه : « تُؤرَوُا^(١) القرآن » .

أى : استخرجوا منه الكنوز بالتدبر ؛ لان التدبر يحمى من حماقة التفكير ، والمثل البسيط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مما بقي فى الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفسافيت الصلبة بعض الشيء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونفاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضت لم تلتفت إلا لنظافة الفم من البقايا ، ولم تدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرت ذلك لقممت بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولجعلت صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمجهز لسرف المياه فقط .

(١) أورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود : « أشيروا القرآن » ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين ، قال شعر : تشوير القرآن قراءته ومفاتحة العلماء به فى تفسيره ومعانيه ، [مائة : ثور] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثك على أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدقق : هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضررك ؟

هذا هو التدبير ، وهو ما نُسَمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٢)

[الرعد]

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمر حكماً مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألني عن فتوى ؛ ويُلِحُّ أن تتوافق الفتوى مع مراده ؛ « نحن لا نُفَصِّلُ الفتوى من أجل هواك ؛ لأن ما عندي هي فتاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفَصِّلَ لك الفتوى على هواك » .

أقول ذلك ؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهي إلى العدم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً ^(١) مَثُوراً ﴾ (٢٢)

[الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جلَّ وعلا :

(١) الهباء : الغبار المتطاير في الجو . قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّثْبَتاً ﴾ [الواقعة] . أي : ثراباً متطائراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُوراً ﴾ [الفرقان] . أي : كل عمل عملوه كالهباء المثار لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢٩٧/٢] .

﴿ كَرَّمَادِ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١) لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تقبل على كل عمل وأنت مؤقن بأن هذا العمل لا ينتهي بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره في حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة في الآخرة باقية أبداً : والتعب فيها غير موقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ^(٢) وَأَنْهَارًا
وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى ^(٣) اللَّيْلُ النَّهَارُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ويتابع الحق سبحانه سرُّد آياته الكونية في هذه الآية :

﴿ مَدَّ الْأَرْضَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

يعنى أنها موجودة أمامك ومُستدة ، وبعض الناس يفهمون المدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البسط تابع للمدَّ .

(١) مصفت الريح : اشتدت هبوبها . والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه . [القاموس القويم ٢٢/٢] .

(٢) الرواسي : الجبال ، لأنها تثبت الأرض قسماً تقسم ولا تحيل . [لسان العرب - مادة : رسا] .
(٣) غُشِيَ الشيء تغشيه إذا غطيته . [لسان العرب - مادة : غشى] قال ابن كثير في تفسيره (٥٠٠/٢) : « أي : جعل كلأ منوعاً يطلب الآخر طلباً حثيثاً » ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر » .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرْوِيَّة ؟
إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال :
إنه قد مدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فلأنفهم كلمة المدَّ أولاً ، ولأنفهم أيضاً كلمة
« الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها
الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القطب الشمالى ، وجنوباً إلى القطب
الجنوبى ، أيًا ما كنْتَ فى أىِّ موقعٍ فهى ممدودة شرقاً وغرباً .
ومعنى :

﴿ مَدَّ الْأَرْضَ .. ﴾ (٢)

[الرد]

تعنى أنك إن وقفتَ فى مكانٍ وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة
أمامك ؛ ولا توجد حافة تنتهى لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لكانَ لها
نهاية ، ولكانت على شكل مُثلَّث أو مُربَّع أو مُسْتطِيل ؛ ولكانَ لها
حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : « لقد وصلتُ
لحافة الأرض ؛ وأمامى الفراغ » ولم يحدث أن قال ذلك واحد من
البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على
اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس
النقطة التى بدأ منها سيره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا
كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث إذا مشيت مُتَّبِعاً أىَّ خط من خطوط
العرض أو خطوط الطول لانتَهت إلى النقطة التى بدأت منها سيرك .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل
أن يَخْتَرَعُوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى .

ونأخذ من قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ .. (٣) ﴾

[الرعد]

معنى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسان في هذا الامتداد : ومن تضيق به الحياة في مكان يُمكنه أن يرحل إلى مكان آخر ، فأرض الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾

[النساء]

وتعلم أن فساد العالم في زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نقائص تصويق مد الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه : يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسى الجميع قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (٢٠) ﴾

[الرحمن]

فسبحانه قد سخر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام^(١) ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني : سيظل العالم في صراع : وستظل بعض من البلاد في حاجة للبشر ، وبعض من البلاد في ضيق من الرزق : لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التي يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال : ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجان والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٠ / ٤) : « أي : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالجيال الراسيات الشامخات لتستقر لها على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم والسننهم في سائر أقطارها وأرجائها » .

وحتى تُحل هذه القضية - كما قلنا في الأمم المتحدة - لابد من تطبيق المبدأ القرآني :

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۖ﴾ [الرعد]

وَمَنْ تَضَيِّقْ بِهِ الْأَرْضَ الْقَىٰ نَشَأَ فِيهَا فَلْيَسْمَحْ لَهُ بِالْهَجْرَةِ .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ ..﴾ [الرعد]

والرواسي هي جمع « رأس » وهو الشيء الثابت .

وسبحانه يقول :

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۖ﴾ [الأنعام]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال ، وفي

آية أخرى يأتينا الله بعلّة كونها رواسي : فيقول :

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ۖ ..﴾ [الأنبياء]

أي : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ؛ لما احتجنا إلى الجبال الرواسي كي تُثَبِّتَهَا ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهي عُرْضَةٌ للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسي لَمَادَتْ الْأَرْضُ .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرائيت من جبل لِنُزَيِّنَ بِهِ أَرْضِيهِ بعض المناطق ؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضاً ودرجات السلالم ، ونقطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق : وحكمته حين دَبَّرَ ، فهذه الأرض لها محيط : ولها مركز : ولها أقطار ، وكلما اقتربتُ من مركز الأرض فالقطر يَقلُّ .

ومثال هذا هو البطيخة : فأنت إن استخلصت القشرة الخارجية لها يكون لديك كرة من القشرة الخضراء : وكرة أخرى من مكونات البطيخة التي نأكلها ، ولو استخلصت كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكما استخلصت كُرَيَات أخرى من مكونات البطيخة : صَفَرَتِ الأقطار : لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة : يشبه المحيط الذي يوجد على الكرة الأرضية : وهذه القشرة التي توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة : أما ما بداخل الأرض وجوفها : فهو مُكوّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صلب .

وكما اقتربنا من مركز الأرض : وجدنا ارتفاعاً في درجة الحرارة : وتدُلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التي تخرج فُوَّارة من فُوهَات البراكين : وهي حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية : وهي حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمة بنا : ذلك أننا حين نبني بيوتاً : أو نقتطع أحجاراً من الجبال : أو نستخدم مكونات الجبال في أي غرض : إنما ننقل بعضاً من مكونات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر :

فالسائل الذى فى باطن الأرض ينتقل من المنطقة التى زاد عليها الثقل إلى المنطقة التى خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتَسَاقَطَتِ العِمَارَاتُ الشَاهِقَةُ التى نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَلُ الذى يُوضَحُ ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة فى حالة دوران لَطَرَدَتِ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء فى « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شيء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية أسمها الطرد الذاتى ؛ لأن قطعة العجين أو أى شيء نضعه على شيء مستدير يتحرك ؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التى يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكى تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثَقُل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفَي الكرة الأرضية من أى موقع تتخيله ، متساوياً فى الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذت من مواد ونقلتها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التى فى بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذى خلق بتدبير دقيق ، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذى لم يجعل الجبال رواسبَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل فى الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصَدِّرها ؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً
من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفَجِّرُ فيها الحق آبار
البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُساوٍ لاي قطاع
آخر من الأرض ، وجعل الله لكل امر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا
من هذا الامر في ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الجبال :

﴿ قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ^(١)
ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٢) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَانَهَا ^(٣) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ^(٤) ﴾ [نصلت]

أى : أنه سبحانه بارك في الجبال ، وهى جزء من الأرض ، وشاء
أن يُقَدِّرَ الأقوات في الجبال والأرض ؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين
يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطمى من
على أسطح تلك الجبال ، فتتجدد خصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هشة لذابت الجبال من عدد قليل من هرات
سقوط المطر ، ولذابت القشرة الخصبة التى تُغذى النبات حين نزرعه
في الأرض .

(١) التذ : المثل والنظير ، وجمعه انداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً .. ﴾ [إبراهيم] .
أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢٠٧/٢] .
(٢) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه : اقوات ، . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴾ [نصلت] . أى اقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيران وكل
شئء حتى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ١٢٦/٢] .

ولكنه سبحانه شاء أن تمر الظروف الجوية باختلافها وتنوعها في تتابع يوفر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق : فيصير سطح الجبال الصلب هشاً لينزل مع المطر : وليغذى الأرض بالخصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلاحظ قوله سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. (٣) ﴾

[الرعد]

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهي الثوابت ، وبين الأنهار وهي التي تحمل الماء السائل ، وهذا جمع بين الأضداد .

والنهر يطلق على ما يحمل المياه العذبة : أما البحر فهو المكون من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها : ستجد أن مجاريها تصب في البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس : لطفى ماء البحر على مياه النهر ، ولما استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العذب هو الأعلى : لأن له مهمة يؤديها قبل أن يصب في البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه :

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ^(١) لَا يَبْغِيَانِ (٤٠) ﴾

[الرحمن]

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . فإله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلا منهما في مجراه فلا يبغي ولا يطفئ على الآخر ، فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبغي العذب عذباً لكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلا منهما في مجراه . [الفاسر القويم ٦٣/١] .

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يُحقّق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إن حفرت عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطئ النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العذب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ ^(١) فِي الْأَرْضِ . . (٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد من يحفر بئراً ويكون مأؤه عذباً ؛ وآخر يحفر بئراً ويكون مأؤه مالحة . وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب ^(٢) تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت - الجبال - كمصدر للغرين ^(٣) وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللازم للرى ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً .

(١) ينابيع : جمع ينبوع . وهو من نبع الماء إذا جرى من العين ، أى : تقعر . والينابيع : الجدول الكثير الماء . [لسان العرب - مادة : نبع] .

(٢) السرب : الطريق والمسلك . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والتقدير من الماء أو الطين . قال الأصمعي : الغرين أن يجرى السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رابت الطين رقيقاً على وجه الأرض فد تشقق .

[لسان العرب - مادة : غرن] .

والثمرة كما نعلم هي الغاية من أى زرع .

وفى نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه :

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٢٣)﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيئان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمنى وفردة حذاء يُسرى ؛ لأن كلمة « زوج » مفرد ، وتستخدم فى الشيء الذى له مدخل ؛ ولذلك نجد العدد الفردى والعدد الزوجى ؛ والعدد الزوجى مُفرد له مثيل ؛ وفى الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (١٩)﴾ [الذاريات]

ويخطئ الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولد مع آخر ، ويقال لأثنين معاً «التوأمين» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣١)﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أى شيء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿سَبَّحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

وَكُلُّ تَكَاثُرٍ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى زَوْجَيْنِ ، وَكُنَّا نَحْتَقِدُ قَدِيمًا أَنَّ التَكَاثُرَ
يَحْدُثُ فَقَطْ فِي النَّبَاتِ ؛ مِثْلَمَا تُلْقَحُ النَّخْلَةُ بِالذَّكَرِ ، وَفِي الْحَيَوَانَ
يُخْصَبُ الْفَحْلُ الْإُنْثَى ، ثُمَّ كَشَفَ لَنَا الْعِلْمُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْكَهْرِبَاءَ - عَلَى
سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الْحَصَرَ - تَتَكُونُ مِنْ سَالِبٍ وَمَوْجِبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرٌ ،
وَكُلُّ مَا قَدَّمَهُ الْعِلْمُ مِنْ كَشُوفٍ يُؤَيِّدُ صِدْقَهُ سُبْحَانَهُ :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۖ .. ﴾ (٢٦)

[يس]

وَيَتَابِعُ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ .. ﴾ (٢٧)

[الرعد]

أَيُّ : أَنْ تَأْتِيَ الظُّلْمَةُ عَلَى النَّهَارِ فَتُغْطِيَهُ ؛ وَهُوَ الْقَائِلُ فِي مَوْقِعٍ
آخِرٍ مِنَ الْقُرْآنِ :

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ .. ﴾ (١٢)

[الإسراء]

وَذَلِكَ تَحْقِيقًا لِمَشِيئَتِهِ الَّتِي قَالَهَا :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً^(١) ۚ .. ﴾ (٦٢)

[الفرقان]

وَأِنْ سَأَلَ سَائِلٌ : هَلِ اللَّيْلُ هُوَ الَّذِي خُلِقَ أَوَّلًا أَمْ النَّهَارُ ؟

أَقُولُ : نَحْنُ نَرَى الْآنَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، كُلُّ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مِهْمَتَهُ فِي
نُصْفِ مَا فِي الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَخْلِفُ الْآخَرَ ، وَلَا بَدَأَ
الْأَمْرُ كَذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ .

(١) أَيُّ : يَجْعَلُ اللَّيْلَ يُغْشِي النَّهَارَ وَيُغْطِيهِ بِظِلَامِهِ . [الْقَامُوسُ الْقُرْآنِيُّ ٢٠٥/٢] .

(٢) الْخِلْفَةُ : اسْمُ مَصْدَرٍ بِمَعْنَى الْإِخْتِلَافِ ، أَوْ مَصْدَرٌ خَلْفَ : جَاءَ بَعْدَهُ لِيُحِلَّ مَحَلَّهُ . أَيُّ : أَنْ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَخْتَلِفُ كُلُّ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ طَوْلًا وَقَصْرًا ، أَوْ يَخْلِفُ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيَأْتِي
بَعْدَهُ . [الْقَامُوسُ الْقُرْآنِيُّ ٢٠٦/١] .

فَإِنْ كَانَ سَبْحَانَهُ قَدْ أَوْجَدَ الْأَرْضَ مَبْسُوطَةً وَفِي مُوَاجِهَتِهَا
الْشَّمْسُ ، لَكَانَ النَّهَارُ هُوَ الْأَسْبَقُ فِي الْخَلْقِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ خَلَقَ
الْشَّمْسُ غَيْرَ مُوَاجِهَةً لِلْأَرْضِ ؛ يَكُونُ اللَّيْلُ هُوَ الَّذِي سَبَقَ النَّهَارَ فِي
الْخَلْقِ .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين
يقول :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) ﴿

[يس]

وكان العرب قديماً يظنون أن الليل هو الذي سبق النهار في
الخلق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله
لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتي بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدَرِ معارفهم ، ثم ثبت لنا أن
الليل والنهار قد وُجِدَا في وقت واحد بعد أن وضحت لنا أن صورة
الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان
نهاراً ؛ وما غابت عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ﴿

[الرعد]

أي : أن على الإنسان مسئولية التفكير فيما يراه من حوله ليصل
إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾﴾

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أواخر

سورة يوسف :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

[يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى :

﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾﴾

[الرعد]

وتنضم إلى :

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ .. ﴿٢﴾﴾

[الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ .. ﴿٢﴾﴾

[الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

(١) الصَّنَو (بكسر الصاد وضمها) : المثَل ، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما صنو ، والجمع صنوان (بضم الصاد وكسرها) . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ۖ (٤)﴾ [الرعد]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التي يعيش عليها أمثالنا ، تلك هي الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهماها ، فهي أوضح من أن تُعرَف .

وكلمة « قُطْع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تميِّز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمَّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه :

﴿قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ۖ (٤)﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذي توجد فيه ، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيَّناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التي يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذي تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة في التماسل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر : ومن قطعة إلى أخرى : فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى : والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى : ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسقى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب فى الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكانهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُختاراً . وأن يكون له عقل يُفكر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذيرات تملك عقلاً تُفكر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التى نراها فى المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها فى حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء . وإن صدّقنا العلماء فى ذلك ، فكيف نُصدّقهم فى أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى فى الطعم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذى قدّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة في مجموعها هي الشمس التي تعطي الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدي مَنْ يسير في القلّة^(١) ، وتيارات الهواء تتنارب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خصبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لا بد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرفّهات أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذي منه القوت الأساسى ، ونحن في حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين ندخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التي يُقدّم عليها الطعام .

ويأتى الحق سبحانه بعد الأعناب والزُرْع الذى منه القوت الضرورى بالنخيل ، وهو الذى ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذى ينتجه ثَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضرورى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٥) ﴾ [الرعد]

(١) القلّة : الثغر من الأرض التي لا ماء بها ولا أنيس . والقلّة : المفازة . وقيل : هي الصحراء الواسعة . [لسان العرب - مادة : قلا] .

يتطلب منا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول ﷺ يقول :
« العم صنو أبيك »^(١) أي : أن الصنو هو المثل .

وبهذا يكون معنى الصنوان هو المثلان . ونرى ذلك واضحا في
النخيل : فنرى أحيانا أصلا واحدا تخرج منه نخلتان : أو ثلاث
نخلات : وأحيانا يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويُطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذي يتفرع إلى
نخلتين أو أكثر : فكلمة « صنوان » تصلح للمثنى والجمع ، ولكنها
في حالة المثنى تُعامل في الإعراب كالمثنى : فيقال « أشرت صنوان »
و « رأيت صنوين » أما في حالة الجمع فيقال « رأيت صدوانا »
و « مررت بصنوان » . والمفرد طبعاً هو « صنو » .

ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها :

﴿ وَجَنَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَحِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ .. ﴾ (٢)

[الرعد]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عبر جذورها كمية من الماء
والغذاء اللازم لإنتاج ثمار ذات شكل وطعم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قبل : إن افتراضات العلماء المتخصصين
في علوم النبات عن أن التباينات تتعدى بخاصية الانابيب الشعرية هو
افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الانابيب الشعرية الخاصة بنبات

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٨٢) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر
رضي الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وكذا أخرجه أحمد في مسنده
(٢٢٢/٢) .

المواد التي أخذتها الانابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر . والأمـر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكن أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك . وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحيث تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشتري حسب موقفك من الانخار ؛ فإن كنت تحب الانخار فسوف تشتري الفاكهة التي من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشتري من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أن يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقى الثمار غير الجميلة الشكل والروني^(١) ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى ستجد يدفع النقود الورقية القديمة التي تُوجد في جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أي إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفَضِ اخذ السيء ؛ وخائف دائماً على التفريط في الحسن .

(١) الروني : الصفاء والحسن . [لسان العرب - مادة : رني] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ..

[الاسراء]

﴿ ٦٠٠ ﴾

وأنت لا تجد في الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً في الطعم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً في طريقة تناولها ؛ فلا أحد منا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونُخرج ما في قلب حبة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية في عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدق التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قطعة من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر في الأكل فقط ، بل نُفضل في الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ :

﴿ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ .. ﴾ [٤]

[الروم]

فنعلم أنه لا يوجد شيء أو أمر مُفضل على إطلاقه . وأمر أحسن مفضول على إطلاقه ، فما دُمنا نُفضل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعني أن كلا منهما مُفضل في ناحية ، ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومي قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتد يدك إلى الديك الرومي ؛ لأن « نفسك » قد طلبته أولاً ، فلا تقل ؛ إن هناك

شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الرقت .
وكذلك الناس : إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛
وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل في ناحية ،
ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمثل : هو صاحب السيارة الفارغة : ثم ينفجر إطار سيارته ؛
فيتمنى أن يرزقه الله بمن يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ
عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛
فيكون هذا الإنسان أفضل منه في قدرته على فكَّ الإطار المتفجر
بالإطار السليم الاحتياطي .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك
أقول : حين تجد نفسك قاضلاً في ناحية إياك أن تقع في الغرور ؛
واسأل نفسك : ما الذي يَفْضُلُ عليك فيه غيرك ؟

وتذكّر قول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ
عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ﴾ (٦١)

[الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزَّع الفضل بين الناس ، ليحتاج
كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل في
الاطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أن تُقدِّم لك
أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ
ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبت نفسك ثمرة الجميز صارت في تقدير
الموازين والتبادل هي الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما
يُخصُّه أو يُحبِّه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٢٨)﴾ [الرعد]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلَوَّن ويتفنن في صناعة الطعام ،
ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنَوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبِلان
على لحم الدجاج : لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفضِّل
لحم « الورك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يُفضِّل
تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً في طريقة تناول مَنْ يحبون السمك : فمنهم
مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها .
ولا أحد يملك معرفة السبب في اختلاف الأمزجة في الانجذاب إلى
الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتى إلى خاطرك قول الحق
سبحانه :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨)﴾ [البقرة]

والسؤال هنا من الله للتعجب ؛ والتعجب عادة يكون من شيء
خفى سببه ، فهل يخفى سبب على الله ليتعجب ؟
طبعاً لا ، فسبحانه مُنَزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر
الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى - فأنت تجد نفسك وأنت
تنطق بكلمة « كيف تسبَّ أباك ؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة
لوالده ؛ فتتعجب لِتُنكر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفرون بالله ؟ لأن الكفر شيء لا يقاى من عاقل . وكان لنا شيخ هو فضيلة العالم أحمد الطويل : وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (٢٨)

[البقرة]

كان يقول : إن الخطاب هنا عام لكل إنسان : لأن الحق بعدها يأتى بالقضية العامة :

﴿ وَكُنْتُمْ أَشْوَاثًا فَأَحْيَاكُمْ .. ﴾ (٢٨)

[البقرة]

وعذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكى عن شيخه أنه حدثهم أن إنساناً كان مُسْرِفاً على نفسه : ثم انصرفت عليه الهداية مرة واحدة : وراه كل مَنْ حوله وهو مُقْبِلٌ على الله : فسألوه عن سبب الهداية . فقال :

كنت أجلس فى بستان ، ثم راقى لى عتقود من العنب : فسقطت العتقود ، وأخذت أنأمل فيه : فوجدت غشاء رقيقاً شفافاً - وهو قشرة حبة العنب - يشف عما تحته من لحم العنب الممتلىء بالعصير .

وحين وضعت حبة العنب فى فمى : صارت ماء رطباً : وأخذنى العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جو شهر يؤونة : ثم وجدت بذرة الحبة ولها طعم المسك : فلما غمرنى السرور من طعم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ » فهتفت : أن يا رب أن أومن بك .

وكل مناً له أن ينظر إلى شيء يعجبه : وسيجد الشيء كأنه يقول له : كيف تكفر بالله وهو خالقى ؟ وهكذا سنجد كل إنسان وهو

مُخاطَب بهذه العبارة ، لأنه ما من كائن إلا وله شيء يعجبه في الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفَضَّلْ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

ونجد أي شيء هو فاضل في وقت الحاجة إليه وطلبه ؛ وكل شيء مفضّل عليه في وقت ما ؛ وإن كان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأكل .

والأكل هو ما يُؤْكَل ؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك ، وسبحانه القائل :

﴿ كَمْثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ^(١) فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ^(٢) .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ أَكَلْهَا دَائِمٌ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وكذلك قال :

﴿ تَوْنِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نجد أن الأكل مقصود به ما يؤكل الآن ، وما بعد الأكل أيضاً .

(١) الوابل : المطر الغزير . وابل المطر : كثر وعظم قطره . [القاموس القويم ٣١٨/٢] .
(٢) الطل (بفتح الطاء) : المطر الخفيف يكون له أثر قليل ، لكنه يقي النبات شرّ الذلّة . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. (٢٥) ﴾ [البقرة] . فإن لم يصب الربوة أو الحديقة وابل يسقيها ويرويها فإنه يصيبها طل ، فهي محفوفة من الظلّة دائماً . [القاموس القويم ٤٠٦/١] .

ويُذِلُّ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الرعد]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعنى أن يمرح الإنسان فى الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطئ ؛ لأن العقل جاء ليُصِرَّ الإنسان بعواقب كل فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياك أن يستهويك الأمر الفلانى لأن عاقبته وخيمة » ، ومن مادة العين والقاف واللام عقل . ويقال : عقلت البعير . ومن مهام العقل أن يُفَرِّز الأشياء ، وأن يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأن يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هى الاستقبال الإدراكى والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كي يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصل إليه بعض من العلماء من اكتشاف أدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخطأ خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الرعد]

نلاحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث فى آيات ربِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أىّ منّا لرأى عقل ثانٍ وعقل ثالثٍ ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبر ما يمكن أن يقع ؛ ولتتكاتف العقول فى استنباط الحقائق النافعة التى لا يتأتى منها

ضئور فبما بعد : لأن من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ
جَدِيدٍ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي
أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠٥﴾﴾

والعجب هو أن تبدى دهشة من شيء لا تعرف سببه ، وهذا التعجب لا يتأتى من الله ؛ لأنه سبحانه يعلم كل شيء ، فإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢٠٥)

[البقرة]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُفكر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان ؛ لكن بعضاً من الناس - رغم ذلك - يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ...﴾ (٢٠٥)

[الرعد]

هو خطاب موجه لرسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يتعجب من أنهم كانوا يُسمونه قبل أن يبعثه الله رسولا بالصادق الأمين ؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صادقاً أميناً ببشريته وذاتيته ؛ ثم إذا أمدّه الحق سبحانه بالممدد الرُسالى تهمونه بالكذب ؟ ألم يكن من الأجدر أن

تقولوا إنه صار أكثر صدقاً ؟ وهل من الممكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله ؟

والتعجب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البعث بالتصديق ؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مبلغاً عن ربه .

ونجد الحق سبحانه وتعالى قد أحترم فضول العقل البشري ، فأوضح سبحانه ذلك ونصب الأدلة عليه ؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخلق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفي البعث سيأتي بنا من موجود ، ومن الغيباء (إنَّ) أن يتشكك أحد في البعث ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث ؛ لأنه لا يقدر على ضبط النفس ؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقي المصير الأسود الذي سيلقاه في الآخرة

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك في البعث ، ويأتي الحق سبحانه بتشكيكهم هذا في قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ .. ﴾ (٢١)

[الجاثية]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البعث في يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١)

[السجدة]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون نراياً ، ويعودون

إلى الأرض كعناصر وتراب تَدْرُوه^(١) الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد ؟

ويقول سبحانه :

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ^(٧٩) ﴾

[يس]

ومن الكافرين مَنْ قَالَ : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تنبتة الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغدّت بعناصرنا ، فيصير بعضُ منا فى مكونات هذا الطفل ؛ والقياس يُوَضِّح أننا سوف ننشأ : فكيف يأتى بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ^(٨٠) ﴾

[الأنعام]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض ؛ وأصابه هُزال . وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لا بدُّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطت بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه ، وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التى استردّها هى نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التى سبق أن فقدها ؟ طبعاً لا .

(١) دَرَسَ الرِّيحَ التُّرابَ تَدْرُوه : أطارته وسقته وأذهبته ، وقيل : حملته فانثارت . [لسان العرب - مادة ذرا] .

(٢) رم الميت : يكى جسمه . والرميم : الخلق البالى من كل شيء . [لسان العرب - مادة : رمم] .

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبي للعناصر ، كذا من الحديد ؛ كذا من الصوديوم ؛ كذا من المغنسيوم ؛ وهكذا .

إذن : فالجزاء في اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

ما دام هناك أمر ؛ وهناك نهي ؛ وهناك منهج واضح يُبين كل شيء . وإن كنت تعجب يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فلك أن تعجب لأنها أمور تستحق العجب .

والحق سبحانه حين يخاطب الخلق فهو يخاطبهم إمّا في أمر يشكّون فيه ، أو في أمر لا يشكّ فيه أحد .

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى - حين نخاطب أنت واحداً في أمر يشكّ هو فيه ؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب ؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكرهم به عبر رسوله ويؤكد لهم .

وايضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يشكّوا فيه ؛ وهو الموت ؛ وقال :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول الرسول ﷺ :

« ما رأيت يقيناً أشبه بالشكّ من يقين الناس بالموت » .

فالموت يقين ، ولكن لا أحد يحاول التفكير في أنه قادم ،
وسبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (٦٥)﴾ [المؤمنون]

وهذا تأكيد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغفلتهم عنه
بدراً كالمنكرين له ، لذلك خاطبهم خطاب المنكرين ، ثم قال بعد ذلك :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (٦٦)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : « ولتبعثون » لأن البعث مسألة لا تحتاج إلى تأكيد ،
وعدم التأكيد هنا أكد من التأكيد ، لأن أمر الموت واضح جداً رغم
الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى - يذهب الإنسان إلى
الطبيب ؛ فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه « اذهب فلن أكتب لك
دواء » . وهذا القول يعنى أن هذا الإنسان في تمام الصحة ؛ وكأن
كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخلق في الشيء الذى ينكرونه
وعليه دليل واضح ؛ فيأتى خطابه لهم بلا تأكيد ؛ وهو يوضح بذلك
انطريقة أنهم على غير حق فى الإنكار ، أما الشيء الذى يتأكدون منه
وهم غافلون عنه ؛ فهو يؤكد لهم ؛ كى لا يغفلوا عنه .

وكذلك فى القسم ؛ فنجد سبحانه قد أقسم بالتين والزيتون ؛
وأقسم بالقرآن الحكيم ؛ وأقسم بغير ذلك . ونجد فى مواقع أخرى
يقول .

سُورَةُ الْبُرْجِ

﴿٧٢١﴾

﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْبَلَدِ﴾^(١) (١) وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٌ وَمَا
وَلَدَ (٣) ﴿

والعجيب أنه يأتي بجواب القسم ، فيقول :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٤) ﴿

وقد يقول قائل : كيف يقول :

﴿لَا أَقْسَمُ .. (٥)﴾

ثم يأتي بجواب القسم ؟

واقول : لقد جاء هنا بقوله

﴿لَا أَقْسَمُ .. (٥)﴾

وكأنه يوضح ألا حق لكم في الإنكار ؛ ولذلك ما كان يصح أن
أقسم لكم ، ولو كنت مقسماً : لا قسمت بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها .

﴿وَأِنْ نَعَجِبْ فَعَجِبْ قَوْلُهُمْ أَفَذَا كُنَّا تَرَابًا أُنْزِلْنَا لَقَدْ خَلَقْنَا جَدِيدًا .. (٦)﴾ [الرعد]

وهو جلٌ وعلا يذكّرهم بما كان يجب ألاّ يتسوه ؛ فقد خلقهم من

تراب ؛ وخلق التراب من عدم ، وهو القائل :

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ^(٧) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥)﴾ [ق]

(١) البلد : المكان المحدود ومستوطته بمساعات من الدّاس ، وقد يسمّى بها المكان الواسع من الأرض ينتفع به أهل البلد ، فيقال تعالى : ﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يُغْرَحُ بِسَاقِهِ بِذُنُوبِهِ .. (٨)﴾ [الأعراف] . وقوله تعالى : ﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْبَلَدِ (١)﴾ [البلد] ، أى : مكة . [القاموس القويم ٨٢/١] بتصريف .

(٢) البلد : المنطقة والعتاء ، فالإنسان على مشقة وعناء ، طول حياته من الصهد إلى اللحد ، [القاموس القويم ١٤٩/٢] .

(٣) ليس الشيء : خلطه وعماه وأبهمه وجعله مشكلاً محجوراً . وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥)﴾ [ق] ، أى : شك ، [القاموس القويم ١٨٨/٢] بتصريف .

إِذْ : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء ؛ ويزيد من العجب أنهم كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ بعد أن جَرَّبُوا فِيهِ الصِّدْقَ . ولمسوا منه الأمانة ؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبْعَثَ ؛ وفوق ذلك أنكَرُوا البعث مع قيام الدليل عليه .

ويصفهم الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ ۝٥ ﴾ [الرعد]

أى : إن هؤلاء المُكَذِّبِينَ لك يا محمد والمُنْكَرِينَ للبعث لم يكفروا فقط بالله الذى أوجب التكليف العبادى ؛ بل هم يكفرون بالربوبية التى تعطى المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ، وتأتى بأمرها الأسباب لتستجيب لأى مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية ؛ وهى عطاءات التشريف التى تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية ؛ هى تكليفات بالطاعة للأوامر التعبدية ؛ الممثلة فى « افعل » و« لا تفعل » .

وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أن يبلغ الإنسان درجة النضج التى تؤهله ؛ لأنَّ يتجيب مثيلاً له ؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتفع فى خير النعم التى أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فَوَرَّ أن تصله الدعوة من الرسول المُبَلِّغ عن الله ؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يَصِفُ المُنْكَرِينَ للإيمان :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ ۝٥ ﴾ [الرعد]

ويضيف :

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥)

[الرعد]

والغُلّ : هو طَوْقُ الحديد الذي له طرف في كل يد لِيَقْبِدها ؛
وطرف مُعْلَقٌ في الرقبة لِيَقْلِلَ من مساحة حركة اليدين ، ولمزيد من
الإنزال .

وهم اصحاب النار : وكلمة « صاحب » تُطلق على مَنْ تعرفه
معرفة تروق كيانك وذاتك : فهناك مَنْ تصاحبه : وهناك مَنْ تصادقه ؛
وهناك مَنْ تُؤاخيه ؛ وهناك مَنْ تعرفه معرفة سطحية ، ولا تقيم علاقة
عميقة معه .

إن المعرفة مراتب ، والصحبة تآلف وتجاذب بين اثنين : ومن
يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ، ويعشق هو النار ، ويحب كل
منهما ملازمة الآخر ؛ ألا تقول النار لربها يوم القيامة :

﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٤)

[ق]

اي : أن العذاب نفسه يكون مشوقاً أَنْ يَصِلَ إلى العاصي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ (٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

(٦) المثلة : العقوبة الفاضحة التي يشمل بها لشدها وشهرتها وتتخذ عبرة وعظة . قال
تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ..﴾ (٦) [الرعد] . اي : مضت العقوبات الزاجرة في
الأمم العاصية مما يُعدُّ عبرة لهم ولغيرهم . [القاموس الفريخ ٢/ ٢١٦] .

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غاية ما ؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غاية ، فأنت تريد أن تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجل أو الاستبطاء له مميزات وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب ؟

إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وخلف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أن قالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتُجِيرَا (٩١) أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِبَفًا (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أن تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . و لم يفكروا في أن يقولوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه » .

بل إنهم قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٩٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خلل في نفوسهم وفسادها ؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدل على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة ؛ لأن العاقل

(٩) الكسفة : القطعة ، وجمعها كسف وكسف . [لسان العرب - مادة : كسف] .

حين يُخَيَّر بين امرين : فهو يستعجل الحسنة : لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

وما دامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة : وما دامت مقاييسهم مُخْتَلَة ، فلا بد أن السبب في ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنة بالنسبة للشخص أو للجماعة : دليل حَقُّ الاختيار في البدائل : فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقي للنافع لهم : لاستعجلوا الحسنة ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ بَلِ الْحَسَنَةُ قَدِ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثَلَاتِ .. ﴾ (٦) [الرعد]

فلماذا يستعجلون العذاب ؟ ألم ينظروا ما الذي حاق بالذين كذبوا الرسل من قبلهم ؟

وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أن كذا وكذا : فهل في ذلك كذب ؟ ولماذا لم ينظروا للعبر التي حدثت غير التاريخ للأقوام التي كذبت الرسل من قبلهم ؟

و« المَثَلَاتِ » جمع « مُثَلَّة » : و في قول آخر « مَثَلَةٌ » . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٤٥) [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴾ (١١٠) [الشورى]

وهكذا تكون « مَثَلَات » من المثل : أي : أن تكون العقوبة مُمَاثِلَة للفعل .

وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ . (٦) ﴿[الرعد]

يعنى : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثل لهم من الأمم السابقة التي كذبت الرسل : إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم ، وإما بالقهر والنصر عليهم .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ..﴾ (٦) ﴿[الرعد]

أى : أنه سبحانه لا يُعَجِّلُ الْعَذَابَ لِمَنْ يَكْفُرُونَ : لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم . وقد صبر سبحانه على أبى جهل : فخرج منه عكرمة بن أبى جهل : وهو الصحابى الصالح : وصبر على خالد بن الوليد فصار سيف الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء فى معسكر الكفر .

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبى جهل : إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أن أفلت منه خالد بن الوليد أيام أن كان على الكفر : وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفَلَّتْ بعض من صناديد قريش من القتل أيام أن كانوا على الكفر ، كي يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

فمع أن الناس ظالمون ؛ فسبحانه يغفر لهم ؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده التائب المؤمن من أحلكم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلّه في قِلاة^(١) .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعَيِّرُ عبداً يذنب استغفر منه الله ؛ هو إنسان آثم ؛ ذلك أن العبد قد استغفر الله ؛ فلا يجب أن يحشر أحد أنفه في هذا الأمر .

ونلاحظ هنا قول الحق سبحانه :

﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

وفي هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ؛ فجاءت « على » بدلاً من « مع » .

ونلاحظ أن « على » هي ثلاثة حروف ؛ و « مع » مكوّنة من حرفين ؛ فلماذا حذف الحق سبحانه الأخف وأتى بـ « على » ؟ لا بد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه بـ « على » في قوله :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « قد أشد فرحاً بقوة عبده حين يتوب إليه من أحلكم كان على راحلته بارض قِلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضى العقوبة ؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ؛ وأن رحمة الله تطفئ على ظلم العباد .

ومثل ذلك قوله سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان]

أى : أنهم يُحبون الطعام حباً جماً ؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تدفعى على حب الطعام .

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطفئ على عقاب دائماً ؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن ؛ وتوهموا أنها قضية عامة ؛ لفسد الكون ؛ ولذلك ينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٩) ﴾ [الزمر]

أى : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم . وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْوَلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (١٠) ﴾

ونحن نعلم أن « لولا » إن دخلت على جملة إسمية تكون حرف امتناع لوجود ؛ مثل قولك « لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ » ، أى : أن الذى يمتنع من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلت « لولا » على جملة فعلية ؛ فالناطق بها يحب أن يحدث ما بعدها ؛ مثل قولك « لولا عطفت على فلان » أو « لولا صفحت عن ولدك » ، أى : أن فى ذلك حصًا على أن يحدث ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار فى هذه الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول ﷺ فى البَيِّان الذى يحمله من الحق لهم ، وكانهم بهذا القول يُنكرون المعجزة التى جاء بها ﷺ وهى القرآن الكريم . رغم أنهم أمةٌ بلاغة وأدب وبيان ، وأداء أغوى رائع ؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخصَّصوا الجوائز للنبوغ الأدبى ، وعَلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمن أنجبته من الشعراء ورجال الخطابة .

فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم ؛ وتفوق على بلاغكم ؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته ؛ كيف، لم تعتبروه معجزة ؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التى تحمل المنهج إلى قيام الساعة .

ولكن الحمق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التى صاحبت رسول الله ﷺ ، لم يلتفتوا إلى أن

الماء قد نبع من أصابعه ﷺ : والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه . والخمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أن بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره : بعد أن كان ﷺ يخطب من فوق الجذع^(١) .

وقد يكونون أصحاب عُذْر في ذلك : لأنهم لم يَرَوْا تلك المعجزات الحِسِّيَّة : بحكم أنهم كافرون : واقتصرت رؤياها على مَنْ آمنوا برسالته ﷺ .

وهكذا نعلم أن الرسول ﷺ لم يُحرم من المعجزات الكونية : تلك التي تحدث مرة واحدة وتنتهي : وهي حُجَّة على مَنْ يراها : وقد جاءت لتثبيت إيمان القلة المضطهدة : فحين يرور الماء مُتفجرا بين أصابعه ، وَهُمْ مَزَلْزَلُونَ بالاضطهاد : هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول ﷺ .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التي قال عنها رسول الله ﷺ : « القرآن كافيي^(٢) » .

والقرآن معجزة من جنس ما تبغثُم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يأت من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٦٠١/٦ فتح الباري) ، والترمذي في سننه - مسلاة الجمعة - باب ما جاء في الخطبة على المنبر ، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٦٧/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحنَّ الجذع ، فأناب النبي ﷺ فمسحه فسكن .

(٢) أورد العجاوني في كشف الخفاء (١٨٦٨) : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى بعده ، وعزاه لأبي يعلى والدارقطني عن أنس مرفوعاً . وقال الدارقطني : رواه أبو معاوية عن الحسن مرسلاً . قال في المقاصد : « وهو أشبه بالصواب » .

لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى معلّم ؛ ولا علم عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يقرض^(١) الشعر ، ولم يعرف عنه أنه خطيب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا^(٢)﴾
مَنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ ﴿[يونس]

أى : أننى عشتُ بينكم ولم أتكلّم بالبلاغة ؛ ولم أنافس فى أسواق الشعر ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لدن حكيم عليم .

ولكن منهم من قال : « لقد كان يكتّم موهبته وقام بتأجيلها » .

وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو فى بطن أمه ، ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام فى التساقط ؛ فقد ماتوا دون مرض أو سبب ظاهر ؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمن على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلن عن موهبته ؟

ثم من قال : إن العبقريّة تنتظر إلى الأربعين لتظهر ؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر فى أواخر العقد الثامن وأوائل العقد الثالث .

(١) القريض : الشعر . والقرض : قرض الشعر . وقرض فى سيره يفرض فرضاً : عدل يمتنه ويؤسره . وقال الجوهري : القرض قول الشعر خاصة . يقال : قرضت الشعر أقرضه إذا قلته . [لسان العرب - مادة : قرض] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤١٠) : « قال جعفر بن أبى طالب للنجاحشى ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة » .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن : هاهو الحق سبحانه يُجرى على السنتكم ما أخفيتموه في قلوبكم : ويُظهره للناس في مُحكم كتابه :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ^(١) عَظِيمٍ (٢٦)﴾

[الذخرف]

وهكذا اعترفتم بعظمة القرآن : وحاولتم ان تغالطوا في قيمة المنزل عليه القرآن .

ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٧)﴾ [الرعد]

فلماذا إذن قلتم واعترفتم ان له رباً ؟ أما كان يجب ان تعترفوا برسالته وتعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أن قالوا : إن رب محمد قد قلاه^(٢) .

وهذا القول يعنى أنهم اعترفوا بأن له رباً : فلماذا اعترفوا به في الهجر وأنكروه في الوصل .

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد ان ربك هو الذي يرسل المعجزات : وهو الذي يُحدد المعجزة لكل رسول

(١) القريتان مكة والطائف . ذكر غير واحد منهم فتادة اثم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . قال ابن كثير في تفسيره (١٢٧/٤) : « الظاهر ان مرادهم رجل كبير من اى القريتين كان » .

(٢) القلى : الينغى . قال ابن سيده : قلىته : ايفضته وكبرهته غاية الكراهة فتركته . وقال تعالى : ﴿مَا وَدَّعْتُ رَبِّكَ (مَا قُلَى (٢٦)﴾ [الضحى] [لسان العرب - مادة : قلى]

حسب ما نبغ فيه القوم المرسل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنذر
فقط : أى مُحذّر :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾ [الرعد]

فكل قوم لهم هاد ، يهديهم بالآيات التى تناسب القوم : فبنو
إسرائيل كانوا مُتفوّقين فى السحر ؛ لذلك جاءت معجزة موسى من
نور ما نبغوا فيه ؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوّقين فى الطب ؛ لذلك كانت
معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

وهكذا نرى أن لكل قوم هادياً ، ومعه معجزة تناسب قومه ؛
ولذلك ردّ الله عليهم الرد المُفْجِع^(١) حين قالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٨) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِنْ نَحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالِهَا تَفْجِيرًا (٩) أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا^(٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (١٠) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ
مِنْ زُخْرَفٍ^(٣) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِوَعْدِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
نَقْرؤه .. (١١) ﴾ [الإسراء]

فيقول الحق سبحانه :

(١) افجحه : اسكته . والمُفْجِعُ : العَبِيْثُ . وكلمة مُفْجِعٌ لم يُطق جوابها . [لسان العرب - مادة
فجم] .

(٢) الكسفة : القطعة . وكسف السحاب وكسفة : قطعه . وكل شيء قطعه فقد كسفته .
[لسان العرب مادة : كسف] .

(٣) الزخرف : الذهب . ثم استعمل فى الزينة وفى اثاث البيت الجميل . وقوله تعالى ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ .. (١٠) ﴾ [الإسراء] . أى من ذهب أو كله زينة واثاث جميل .
[القاموس النويى ١/ ٢٨٥] .

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٢) وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

[الإسراء]

ويأتي الرد من الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٩٥) [الإسراء]

أي : أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات : وأرسلها لهم الله : ومع ذلك كفروا : لأن الكفر يخلق ثوب العناد على الكافر : لأن الكافر مُصمَّم على الكفر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٩٨)

وما المناسبة التي يقول فيها الحق ذلك ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله ﷺ هو منذر ، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنُ لرغبتهم في تعجيز الرسول ﷺ .

(٩١) قال العوفي عن ابن عباس : ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ (٩٨) [الرعد] يعني : النسقط . ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ (٩٨) [الرعد] يقول : مازادت الرحم في العمل على ما غاضت حتى ولدت تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهم من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك يعلمه تعالى . [تفسير ابن كثير ٥٠٢/٢] .

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوها لأصروا على الكفر ، فهو سبحانه العالم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك : يعلم - على سبيل المثال - ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ؛ فهي تحمل الجنين في رحمها ؛ لأن الرحم هو مُستقرُّ الجنين في بطن الأم . وقوله تعالى :

﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ.. (٨)﴾ [الرعد]

أي : ما تُنقص وما تُذهب من السَّقَط في أي إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ؛ ففاضت الأرحام ، أي : نزلت المواليد قبل أن تكتمل خَلْقُهَا ؛ كان ينقص المولود عيناً أو إصبعاً ؛ أو تحمل الخلقة زيادة تختلف عما نألقه من الخلق الطبيعي ؛ كان يزيد إصبع ، أو أن يكون براسين .

أو أن تكون الزيادة في العدد ؛ أي : أن تلد المرأة ثوأمًا أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحمل .

ومكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أي : ما تنقصه في التكوين العادي أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن ؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر ؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض ؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور

أو ثمانية شهور ؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبي حنيفة ؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعي ؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويُقال : إن الضحّاك وُلد لسنتين في بطن أمه^(١) ، وهرم بن حيان^(٢) وُلد لأربع سنين ؛ وظل أهل أمه يلاحظون كِبَر بطنها ؛ واختفاء الطَّمث الشهري طوال تلك المدة ؛ ثم ولدت صاحبنا ؛ ولذلك سموه « هرم » أي : شاب وهو في بطنها .

وهكذا نفهم معنى « تغيض » نُقصاً أو زيادة ؛ سواء في الخلقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ﴾ (٢١) [الرعد]

والمقدار هو الكمية أو الكيف ؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤملات .

وقد عَدَّ الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال :

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ..﴾ (٣٤) [لقمان]

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٠٢) ، أن الضحّاك قال : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين . ووافقتني وقد فجئت ثقيتي .

(٢) هرم بن حيان العبدي ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات في يوم شديد الحر . علما نفضسوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فامطرت ونبت العشب من يومه . (حلية الأولياء ٢/١١٩) .

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالا هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمي ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شيء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتنافسوا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير ؟ ذكي أم غبي ؟ شقي أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إن سألت كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحمل ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذي قال لواحد من عباده :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ۖ لَمْ نَجْعَلْ لِّشَيْءٍ مُّثْلَهُ ۖ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ ۖ ۝٧﴾ [مريم]

وهكذا نعلم أن علم الله لا ينتظر عينة أو تجربة ، فعلمه سبحانه أزلي ؛ مُنْزَه عن القصور ، وهو يعلم ما في الأرحام على أى شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلي طلاقة قدرته في أن تحمل امرأة زكريا عليه السلام في يحيى عليه السلام ، وهو الذي خلق آدم بلا أب أو أم ؛ ثم خلق حواء من أب دون أم ؛ وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة ؛ يقول سبحانه :

﴿كُنْ فَيَكُونُ ۚ ۝٨٢﴾ [يس]

والمثل - كما قلت - هو في دخول زكريا المحرابا على مريم عليها السلام ؛ فوجد عندها رزقا ؛ فسألها :

﴿أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا ۖ ۝٨٧﴾ [آل عمران]

قالت :

﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧) [آل عمران]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؛ ولكن هذا العلم كان فى حاشية شعوره ؛ واستدعاه قول مريم إلى بُؤرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب .

وما أنْ يأتى هذا القول مُحَرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤرة الشعور ؛ حتى يدعو زكريا ربه فى نفس المكان ليرزقه بالولد ؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً^(١) ، وإن امرأته عاقرة ؛ فيذكره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمر هين عليه سبحانه ؛
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ (٩) [مريم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (١)

وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ؛ لا يغيب عنه شيء أبداً ، وما يحدث لأى إنسان فى المستقبل بعد أن يُولد هو غيب ؛ لكن المطلع عليه وحده هو الله .

(١) عنا يعنو عتوا أسن وكبر ونهبت نصارته وغضارته . [القاموس القويم ٦/٢] .

وكان هناك « نموذجاً » مُصَفَّراً يعلمه الله أولاً : وإن اطلع عليه الإنسان في أواخر العمر : لوجده مطابقاً لما أَرَادَهُ وعلمه الله أولاً : فلا شيء يتأبى عليه سبحانه : فكلُّ شيء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة : يعلم ما خفى من حجاب الماضي أو المستقبل ، وكلَّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم - من باب أولى - المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه : لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩)

[الرعد]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى : وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء الله الحسنى : ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » في شعائر الصلاة ؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شيء بالنسبة لمُوجِده هو صغير . ونحن نقول في أذان الصلاة « الله أكبر » : لأنه يُخْرِجُكَ من عملك الذي أوكله إليك ، وهو عمارة الكون : لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التي تمارس بها إنتاج ما تحتاجه في حياتك من مأكَل ، وملبَس ، وسُتْر عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العيادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقي صغير ، لأن الباقي فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نِعَم من المُنعم الأكبر : ولكن الله أكبر مِنَّا : ونقولها حين يُطَلَّب مِنَّا أَنْ نخرج عن أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العيادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقَوِّك ربُّك على عبادته :

فهو الذى يستبقى لك قوتك بالطعام والشراب ، وإن تطعم أو تشرب ؛
لو لم تحرث وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لتصلى وتزكى
وتحج ؛ وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أن قلت: إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال:
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩ ﴾ [الجمعة]

وهكذا يخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ؛
ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠ ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو
أكبر ؛ وهو أداء الصلاة .

وقول الحق سبحانه فى وصف نفسه (المتعال) يعنى أنه العُزَّه
ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ؛ فلا ذات كذاته ؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل
كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً مع غيره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ
مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ١١ ﴾

(١) قال ابن عباس : « مستخف » مستقر ، و « سارب » ظاهر . وقال أبو رجاء : السارب
الذاهب على وجهه فى الأرض . وقال القتيبي : « سارب بالنهار » أى : منصرف فى حوائجه
بسرعة . قال القرطبي فى تفسيره (٣٦٣٦/٥) .

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو » أو « سواء زيد وعمرو وبكر وخالد » .

والمقصود هنا أنه ما دام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة :
فأيُّ سرٍّ يوجد لا بد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل :

﴿الرُّحَمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٤) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٥) وَإِنْ نَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٦)﴾ [طه]

وهل السر هو ما ائتمنت عليه غيرك ؟ إذا كان السر هو ذلك :
فالأخفى هو ما بقي عندك ، وإن كان السر بمعنى ما يوجد عندك
ولم تقله لأحد ؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سرا .

ويتابع سبحانه :

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَنَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)﴾ [الرعد]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ؛ فالعمل كما نعلم
هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ؛ فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ،
وعمل الأيدي أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو
النية ، والعمل كما نعلم يكون مرة قولاً ، ومرة يكون فعلاً .

وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن
البلاغ عن الله قول ، وعمل الجوارح خاضع لمَقُول القول من الحق
سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق
بالجوارح ؛ وأخذ القول شقاً بمفرده ؛ وأخذت أفعال الجوارح الشقَّ
الآخر ؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل في إطار ما سمع من منهج الله .
ولذلك تجمع الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها كل العمل من
قَوْل وفعل :

﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ
وَمُسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)﴾ [الرعد]

وَمَنْ يُسْتَخْفِي بِاللَّيْلِ لَا بُدَّ أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرًا ؛ كأن يريد أن يتسمع
ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أن يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز
ويظهر في النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه في
أنفسهم ؛ لحظة أن حكى الله ؛ فقال :

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة]

فكيف عَلمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السرَّ وأخفى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾

(١) التعقيب : العود بعد البعد . وقال أبو الهيثم : سميت العلائكة « مُعَقِّبَات » ، لأنهن عانت مرة
بعد مرة . [تفسير القرطبي ٥ / ٣٦٢٦] .

وكلمة (له) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهي عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكانَ المُعَقَّبَاتُ لمصالح الإنسان . و « مُعَقَّبَاتٌ » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعَقِّبَةٌ » ، أى : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحفظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتران منها .

والمكَلُّ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن البشر الذين تلدغهم الشعايب ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل فى أثناء صحوتهم ؛ أى : ساعة يكونون فى ستر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما فى اليقظة فقد يتصرف الإنسان بطيشٍ وغفلة فتلدغه الأنعى .

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس » ؛ ونلاحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأن يسقط طفل من نافذة دور علوى ؛ فلا يُصاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعَقَّبَاتُ من السوء ؛ لأن مهمة الحَفَظَةِ أن يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّرَ الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمرات ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهار .

كُلُّ ذلك أعدّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَبْلَ يوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخلق ، ولا يدعه لمقومات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويكلف الله الملائكة المُعَقَّبَاتُ بذلك .

وقد ينصرف معنى المعقبات إلى الملائكة الذين يتعقبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوموا بالعملين معاً : حفظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات : وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا : ويحسن أن نفهم جيداً عن المشرع الأعلى : ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستحسب عليه وتُحصى ! وتُكتب ! يمسك كتابه ليقراه : فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر في مصلحته ، مثله مثل الطالب الذي يرى المراقب في لجنة الامتحان ، فلا يكرهه : لأنه يحمي حقه في الحصول على التقدير الصحيح : بدلاً من أن يغش غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه في التقدير والنجاح : فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليقظ هو دافع لهم للمذاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تكره أن يكون لك أعداء : لأن الذي يقر الإنسان في سلوكه هو نفاق أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت : ولذلك فانت تحذر أن تقع في الخطأ .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

عداى لهم فضل على وميزه	فتعدى لهم شكر على نفهم ليا
فهم كاللدواء والشفاء لمزمن	فلا ابعد الرحمان عنى الاعاديا
هم بحدوا عن زلتى فاجتنبتها	فاصبحت مما ذله العرب خاليا

العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعَقَّبَاتُ يَكُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْإِنْسَانِ وَمِنْ خَلْفِهِ ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبي ﷺ ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبي ﷺ .

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أَنْ يحمي الرسول ﷺ من الرُّصْدِ أو التَّربُّصِ ^(١) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ يَّمِينِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ ۝ (١١) ﴾

[الرعد]

والسطحيّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قَدْرَهُ ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدْرِ الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

(١) أخرج البيهقي في سننه (٤٧٦/٢) أن عمر بن الخطاب قال : « والله ليلة من أبي بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر » ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فامشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فامشى بين يديك » .

ولذلك نجد في القرآن قول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥)﴾ [نوح]

أى : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أن تظن أن الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رادَّ له .

ويتابع سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. (١١)﴾ [الرعد]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه : جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسَخَّرًا للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غَيَّرَ البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقَوِّم ما قام بالمنهج .

واقراءوا قول الحق سبحانه :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا^(١) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١)﴾ [النحل]

(١) رَغَدَ العيش : اتسع وضاب . وقوله تعالى : ﴿رَكَّلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ طَشِمَا .. (٢٥)﴾ [البقرة] أى : أكلَا طيباً مُوسِعاً عليكم فيه . (القاموس القويم ٢٦٩/١) .

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل
أن يُؤَدَّ : كُلُّ ذَلِكَ لِن يَرْجِعَ عَنْهُ اللهُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ يَمْشِي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : لَكِنْ إِذَا مَا حَادَّ الْإِنْسَانُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ :
فِيَلْفَتَهُ اللهُ بِيَعُضٍ مِنَ الْعَبَرِ وَالْعِظَاتِ لِيَعُودَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

والتغيير الذى يُجَرِّبُهُ اللهُ عَلَى الْبَشَرِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَانَفْسِهِمْ :
يشمل الإمدادات الفرعية : أما الإمدادات الأصلية فلا يمتنعها عنهم :
مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء : ولم يمنع الأرض أن تُخْرِجَ لَهُمُ
المياه .

ويصيبهم فى الأشياء التى من الممكن أن يسير الكون فى انتظامه
رغم حدوثها : كالمصيبة فى المال أو المصيبة فى النفس : ويظل
الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم :
ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣)

[طه]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ^(١) .. ﴾ (١٢٤)

[طه]

(١) الضنك : الضيق من كل شيء . والمضنك : ضيق العيش . وقال الثيبي فى تفسيره : أكل
ما لم يكن من حلال فهو ضنك وإن كان مَرُوساً عَلَيْهِ . وقد ضنك عيشه . [لسان العرب -
هامة : ضنك] .

وأنت ترى فى عالمنا المعاصر مجتمعات مُتَرَفِّة : نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة : لكنهم يعيشون فى الضنك النفسى البالغ : وهذا ما يثبت أن الثراء المادى بالنقود أو أدوات الحضارة : لا يحقق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة : وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى^(١) رحمه الله :

ليسَ الحملُ ما أطاقَ الظَّهْرُ ما الحملُ إلا ما وَعَاهُ الصَّدْرُ

فقد يكون الثراء المادى فى ظن البعض هو الحلم : فيجتاح الإنسان إلى الطريق غير السوى بما فيه من عُسُولَات : وعدم أمانة : ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتك به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُعَيِّر ولا يتغيَّر : فهو الْمُغَيِّر لا الْمُتَغَيِّر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١١)

[الرعد]

يُوضَّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئة من تبع نفس تُحرِّك الجوارح : وحين تصلح النفس : تصبح الجوارح مستقيمة : وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

(١) أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر ، يُلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م ، وتوفي بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسى . تنوع إنتاجه بين نظم الشعر والفصوص الشعرية . [الاعلام للزركلى ١/ ١٢٦] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لمُرَادَاتِ النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التي تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَلُ : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أَنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنَزَّةٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنة فهي تَأْمُرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه في الحالتين لا يعصى النفس التي سَخَّرَها لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنْفَعِلَةٌ لإرادة صاحبها ، ولا تتحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك في اليوم الآخر ، وفي الموقف الحق .

ولحظتها لن يستطيع أحد أن يسيطر على جوارحه ؛ لأن المَلِكَ يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطت ولاية الفرد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلته وَقَّتْ أن كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كله في النفس التي تدير الجوارح .

وقَوْلُ الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...﴾ (١١)

[الرعد]

يَدُلُّنا أنه سبحانه لا يتدخل إلا إذا عَنَّتْ^(١) الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفت النفس اللوامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ

(١) عَنَّتْ الشيء، يعني : ظهر أمامك . [لسان العرب - مادة : عَن] والمقصود أن تظهر الفواحش والمعاصي في المجتمع وتفسد .

سُورَةُ الرُّدْعِ

﴿٧٢٤﴾

يَقْدِرُونَ عَلَى الرُّدْعِ - ولو بالكلمة - من هذا المجتمع : هنا يتدخل الحق سبحانه .

وحين يُغَيِّرُ الناس ما بأنفسهم ، ويَصْحَحُونَ إطلاق الإرادة على الجوارح : فتتصلح أعمالهم ؛ وإياكم أن تظنوا أن هناك شيئاً يتأبى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ..﴾ (١١) [الرعد]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ..﴾ (١٢) [الرعد]

و ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ..﴾ (١٣) [الرعد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِثْلٍ﴾ (١٤) [الرعد]

إياك أن تفهم أن هناك سلطة تحول دون أن يُغَيِّرَ الله ما يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْرًا حَتُونًا آخر يُرَبَّتْ عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّوء ، فليس هناك وآل آخر يأخذهم من الله ويتولَّى شئونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِثْلٍ﴾ (١٥) [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة في الكون لها وجهان
وتُستقبل استقباليين ؛ أحدهما : سَارَ ، والآخر : مُزِعَج ؛ سواء في
النفس الواحدة أو في الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

وكلُّنا يعرف البرق . ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعج وبالطمع
فيما يُحبّ ويُرغّب ، فساعة يأتي البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛
لأن الصواعق عادة تأتي بعد البرق ؛ أو تأتي السحابات الممطرة .

وهكذا يأتي الخوف والطمع من الظاهرة الواحدة . أو : أن يكون
الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذي أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب
وصف سيفه بأنه « فَتَحَ لأحبابه ، وَحَتَفَ^(١) لأعدائه » .

والمثل الآخر الذي أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها
« الشريعة » وهي تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة
عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوّجتا ؛ وأخذ كلُّ زوج زوجته إلى

(١) الحتف : الموت . وجمعه : حَتُوف . والحتف : الهلاك . [لسان العرب - مادة : حتف] .

مَحَلَّ إِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ أَحَدُ زَوْجَيِ الْبَنَتَيْنِ يَعْمَلُ فِي الزَّرَاعَةِ ؛ وَالْآخَرُ يَعْمَلُ بِصِنَاعَةِ « الشُّرُوكِ »^(١) . وَقَالَتْ أَمْنَةُ لَزَوْجِهَا : أَلَا تَذْهَبُ لِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْبَنَتَيْنِ ؟ فَذْهَبَ الرَّجُلُ لِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْبَنَتَيْنِ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِيَ فِي رَحَلَتِهِ هِيَ ابْنَتُهُ الْمَتَزَوِّجَةُ مِمَّنْ يَحْرُثُ وَيَبْذُرُ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ حَالُكَ وَحَالُ زَوْجِكَ وَحَالُ الدُّنْيَا مَعَكَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ؟

قَالَتْ : يَا أَبَتِ ، أَنَا مَعَهُ عَلَى خَيْرٍ ، وَهُوَ مَعِيَ عَلَى خَيْرٍ ، وَأَمَّا حَالُ الدُّنْيَا : فَادْعُ لَنَا اللَّهُ أَنْ يُنْزِلَ الْمَطَرَ ؛ لِأَنَّا حَرَثْنَا الْأَرْضَ وَبَذَرْنَا الْبَذُورَ ؛ وَفِي انْتِظَارِ رَيِّ السَّمَاءِ .

فَرَفَعَ الْأَبُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْغَيْثَ لَهَا .

وَذَهَبَ إِلَى الْآخَرَى ؛ وَقَالَ لَهَا : مَا حَالُكَ ؟ وَمَا حَالُ زَوْجِكَ ؟ فَقَالَتْ : خَيْرٌ ، وَارْجُوكَ يَا أَبِي أَنْ تَدْعُوَ لَنَا اللَّهُ أَنْ يَمْنَعَ الْمَطَرَ ؛ لِأَنَّا قَدْ صَنَعْنَا الشُّرَاكَ مِنَ الطَّيْنِ ؛ وَلَوْ أَمْطَرْتُ لَفَسَدَتْ الشُّرُوكُ ، فَدَعَا لَهَا .

وَعَادَ إِلَى امْرَأَتِهِ الَّتِي سَأَلَتْهُ عَنْ حَالِ الْبَنَتَيْنِ ؛ فَبَدَأَ عَلَيْهِ الضِّيقُ وَقَالَ : هِيَ سَنَةٌ سَيِّئَةٌ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ، وَرَوَى لَهَا حَالِ الْبَنَتَيْنِ ؛ وَأَضَافَ : سَتَكُونُ سَنَةٌ مُرْهَقَةٌ لَوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا .

فَقَالَتْ لَهَا أَمْنَةُ : لَوْ صَبَرْتَ ؛ لَقُلْتُ لَكَ : إِنْ مَا تَقْسُوهُ قَدْ لَا يَتَحَقَّقُ ؛ وَسُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ لَهَا : وَنَعَمْ يَا اللَّهُ ، قَوْلِي لِي كَيْفَ ؟ فَقَالَتْ أَمْنَةُ : أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ :

(١) الشُّرُوكُ : جَمْعُ شُرْكَ ، وَهُوَ خِبَالُ الصَّائِدِ . وَكَذَلِكَ مَا يَنْعَسِبُ لِلطَّيْرِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ - شُرْكَ] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ^(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا^(٢) فَتَرَى
الْوَدْقَ^(٣) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ^(٤) فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ .. ﴿١٣﴾﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أن رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ،
ودعا : اللهم اصْرِفْ عن صاحب الشُّرَاكِ المطر : وافِضْ بالمطر على
صاحب الحرث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴿١٤﴾﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخاف الإنسان من الصواعق ، ويطمع
في نزول المطر ، أو من متقابلين : واحد ينفعه هذا : وواحد يضره
هذا .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ^(١٢)﴾ [الرعد]

(١) أزجاء : سافه برفق . وقال تعالى عن السفن : ﴿رَبِّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ..
(١٦)﴾ [الإسراء] أي : يدفعها ويُسِيرُهَا برفق فوق الماء . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

(٢) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . [لسان العرب - مادة : ركم] .

(٣) الودق : المطر شديد دمه . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [النور] أي : المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم في السماء . [القاموس
القويم ٢٢٧/٢] .

(٤) البرد : حبات صفار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . [القاموس القويم ٦٢/١] .

ونحن نعلم أن السحاب هو الغيم المتراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبِّئاً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذي يبدو كُنُتَفٍ^(١) القطن .
ويُقال عند العرب : « لا تستطِىء الخيل ؛ لأن أبطأ الدلاء قَيْضاً املؤها ، وأثقل السحاب مَشِياً أحفلها »^(٢) .

فحين تنزل الدلو في البئر ؛ وترفعه ؛ فالدلو المَلآن هو الذي يُرهقك حين تشدّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيف لحظة جَذْبِهِ خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثَقَال تكون بطيئة لما تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ
وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ
يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ^(٣)﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئى ؛ وهنا يأتى بالرعد وهو صوتى ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامة واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له

(١) الكُتَف : جمع نُتْفَةٍ ، وهو ما نتفته بأصابعك من ثُبَّت أو غيره . [لسان العرب - مادة : نتف] .

(٢) الحَفْل : اجتماع الماء في مَحْقَلِه ، مَحْقَلُ الماء : مُجْتَمِعُه ، وحفلات السماء : اشتد مطرها . [لسان العرب - مادة : حفل] .

(٣) المِحَال من الله : العقاب على الكيد والتدبير المحكم المتيقن ؛ فهم يجادلون ويكيدون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المجادلة الباطلة ، وهو قوي يُحكم التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم . [القاموس القريم ٢/ ٢٦٨] .

« سمعت الرعد » : أى : يطلب له أن يسمع الصوت المزعج الذى يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المزعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسبحةً لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نعمة تُشَارُ فى الكون ، بل هى نعمة تمتزج ببقية أنعام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان : لأن الذى خلق الكائنات كلها علّمها كيف تتفاهم ، مثلما علّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه : وكذلك علّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأت جنود سليمان : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ لَا يَحْطِمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) [النمل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام : لأن الله علّمه منطوق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علّم سليمان منطوق الطير : قال تعالى :

﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .. ﴾ (١٩) [النمل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدد وتكلم معه ؟ بعد أن فكّ سليمان بتعليم الله له شفرة حديث الهدد : وقال الهدد لسليمان :

﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢) إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيت من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم ﴿ (٢٣) [النمل]

إذن : فكّلُ شيءٍ له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومن يفيض الله عليه من أسرار خلقه يُسمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحق سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغة الطير وتكلم بها مع الهدد : وقال له :

﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

[النمل]

﴿ ٢٨ ﴾

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فهم سليمان منطوق الطير وتكلم بها مع الهدد ؛ وهكذا علمنا كيف يتعلم الإنسان لغات متعددة ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مدة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات في قصة النملة وقصة الهدد مع سليمان ؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته في قوله :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [٧٩] ﴿ [الانبياء]

وكان الجبال تفهم تسبيح داود وتردده من خلفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا مَعَ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ وَنُوحًا هَارُونَ وَآدَمَ مَا يَشَاءُ اللَّهُ لِمَنْ يَخْتَارُ ﴾ [١٨] وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿ [١٩] ﴾ [ص]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ ﴾ [١١] ﴿ [فصلت]

فيمثّلان لأمره :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [١١] ﴿ [فصلت]

(١) الأواب : المسيح . أوبى معه : سبّح معه ورجعى التسبيح . والأواب : صيغة مبالغة أى كثير الرجوع إلى الله تعالى . [لسان العرب - مادة : اوب ، والقاموس القويم ١/ ٤٢] .

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغة يتفاهم بها ، ونحن نلاحظ أن لكل نوع من الحيوانات صوتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لغة الأسماك ، ويحاولون أن يضعوها لها معجماً .

إذن : فساعة تسمع :

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسَبِّحُ بها الخالق الأكرم^(١) .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

مثملاً لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المراد هنا هو تسبيح الدلالة^(٢) على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فهم تسبيح الدلالة .

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنطق والتفاهم بين متكلم وسماع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : « اركبوها سالمة » ودعوها سالمة » ولا تتخطوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق قرباً مركوبة خير من راكبتها وأكثر ذكراً لله منه » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٩/٢ - ٤٤٠) وابن حبان (٢٠٠٢ - موارد الظمان) .

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق . فانت عندما ترى نعمة إبداعية تسبح الله في حين أن كل مخلوق يسبح بلفظه الخاصة التي لا نستطيع فهمها ، فيجتمع تسييحان الراى لإبداع الخالق وتسييح المرعى بلفظه (لسان اللسان مادة دل ص ٤١٧ ج ١) .

وتحن نرى العلماء في عصرنا يدرسون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر ، وهناك تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذنبية النبات أثناء ريّه بواسطة مزارع مسئول عنه ؛ ثم مات للرجل ؛ فقاموا ذنبية تلك النباتات ؛ فوجدوها ذنبية مضطربة ؛ وكان تلك النباتات قد حزنت على مَنْ كان يعتنى بها ؛ وهكذا توصل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بين لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون :

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ۖ﴾ (٢٩) [الدخان]

فالسما والارض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الاشرار عن الارض ، فالسماوات والارض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مرادات الله ، وحين يأتى كافر ليصنع بكفره نكساراً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

وما دامت السماء والارض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ؛ فلا بد أنهما تفرحان عند هذا الرحيل ؛ ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن^(١) .

ولذلك نجد قول الإمام على كرم الله وجهه ؛ إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان ؛ موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ؛ وأما

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١/١٤٢) قول مجاهد فى تفسير آية الدخان ٢٩ : « ما مات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً » قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل .

مَوْضِعُهُ فِي الْأَرْضِ فَمَوْضِعٌ مُصَلَّاهُ ؛ وَأَمَّا مَوْضِعُهُ فِي السَّمَاءِ
فَمَصْعَدُ عَمَلِهِ ^(١) .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . (١٣) ﴾ [الرعد]

أى : يُنَزِّهِ الرَّعْدَ وَيُسَجِّدُ اسْمَ الْحَقِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَسْبِيحًا
مُصْحَوِيًا بِالْحَمْدِ .

ونحن حين نُنَزِّهِ ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذرات ، وحين
ننزه فعل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله
عن أن تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له
سبحانه ؛ لأنه مُنَزَّهٌ عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أن نُسَرَّ من أنه مُنَزَّهٌ .

ويقول تعالى :

﴿ وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ . . (١٣) ﴾ [الرعد]

ولفائل أن يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال
فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهَابَةِ ، وخيفة الجلال .
ونحن نرى في حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده ؛ فيكون خوفه مَهَابَةً ؛
فما بالناس بالحق سبحانه وتعالى الذي تُحِبُّه ملائكته ونَهَابُ جلاله
وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربهم من فوقهم .

وساعة تسمع الملائكة الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأورد
أيضاً نحوه عن ابن عباس .

ولكنهم يخافون على الناس : لأنهم حفظة عليهم : فالملائكة تعي مهمتها كحفظة على البشر : وتخشى أن يربكهم أى أمر : وهم يستغفرون لمن في الأرض^(١) .

إذن : فقرله :

﴿ وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ.. (١٣) ﴾ [الرعد]

يُبين لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد : فهم مكلفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالا .

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منقفاً خلفاً . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »^(٢) .

وقد يظن ظان أن هذه دعوة ضد الممسك : ولكنى أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خير ؟ فالمُنْفِق قد أخذ ثواباً على ما أدى من حسنات : أما المُمْسِك فحين يبتليه الله بتلف بعض من ماله : ويصبر على ذلك : فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَيُرْمِلُ السُّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

(١) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُزَمِّنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٢٤) ﴾ [غافر] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٠) ، وقال النووي في شرحه : « قال العلماء : هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيغان والصدقات ونحو ذلك . بحيث لا يُدَم ولا يسمى سرقاً . والإمسك المذموم هو الإمساك عن هذا . »

ولا بُدُّ من وجود حَدِّثِ الیم فی الیوم لیتنبه هؤلاء الناس من غفلتهم : وما هو ذا رسولُ الله ﷺ ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الکبار أريد بن ربیعة : أخو لبید بن ربیعة ، وعامر بن الحُفَیل : لیجادلاه بهدف التلکؤ والبحث عن هُفوة فیما یقولہ أو عجز فی معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الکریم :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (۸۳)

[المؤمنون]

وکذلك استعجال بعض من المجادلین للعذاب ^(۱) .

وجاء هذان الاثنان وقالوا لرسول الله ﷺ : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالوا ذلك لأنهما من عبدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوی من الحجارة هو الحديد أو النحاس : فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما ^(۲) .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولا بد وأن تأتي آية كوتبة تصدقها : وقد حدثت تلك الآية الكوتية .

ویقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ .. ﴾ (۱۳)

[الرعد]

والجدال فی الله أنواع متعددة : جدال فی ذاته : وجدال فی

(۱) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا فَلَمَّا بَلَغَ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص] . وقال أيضا : ﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَقَوْلًا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت] .

(۲) أورد هذه القصة القرطبي في تفسيره (۳۶۳۱/۵ - ۳۶۳۲) وعزاها لابن عباس ، وكذا ابن كثير في تفسيره (۵۰۶/۲) ، وأوردها الواحدي في أسباب النزول (ص ۱۹۶) .

صفاته ، أو جدال في الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً في إنزال آية مادية^(١) عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً في الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عقل يُسبح ؛ والملائكة لا تكليف لها ؛ فكيف تُسبح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتي بالخير لمن يشاء ؛ ويصيب بالضرر مَنْ يشاء . فهل هم يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المماراة بقصد الجدل والعناد المذموم ؟ فالجدل في حد ذاته قد يحسن استخدامه وقد يساء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا^(٢) وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة]

(١) قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ سَتَنْ نَقُصِّرُ نَا مِنَ الْأَرْضِ نَبْرُغَا (١٦) أَوْ نَكُونُ لَكَ حِجَّةً مِّنْ نَّحِيلٍ وَحِجَّةً نَنفَعِرُ الْأَنْهَارَ جَلَالِهَا تَفْجِيرًا (١٧) أَوْ نَنْقُطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا (١٨) أَوْ نَكُونُ لَكَ سِتًّا مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه .. (١٩) ﴾ [الإسراء] .

(٢) نزلت هذه السورة مسورة المجادلة في شأن خولة بنت ثعلبة وكانت تشتكي زوجها أوس ابن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله . أبلى شيبابي وبثرت له بطنى . حتى إذا كبر سننى وانقطع ولدى ظاهر منى ، أبى قال لها : أنت حرام على كلهم أمر . [انظر : اسباب النزول للواحدي ص ٢٢٦ ، ٢٢٢] .

وهذا جَدَلُ المراد منه الوصول إلى الحق .

وَيُذِيلُ الله آية سورة الرعد بقوله :

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾

[الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أى : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ،
والمِحَال هو الكَيْد والتدبير الخفى ، وَمَنْ يلجأون إليه من البشر هُم
الضُّعَاف الذين يعجزون عن مواجهة الخصم علانية ، فيُيَيِّتُونَ له
بإخفاء وسائل الإيلاء .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض : لأن البشر لا يعلمون
الغيب ؛ لكن حين يكيد الله : فلا أحد بقادر على كَيْدِهِ ، وهو القائل
سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ
رُودًا (١٧) ﴾

[الم طارق]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْدٌ غير مفضوح لأحد ، ولذلك
قال تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢٠) ﴾

[الأنفال]

هُمْ أرادوا أن يُيَيِّتُوا لرسوله ﷺ ؛ وأرادوا قَتْلَهُ ؛ وجاءوا بمشاب
من كل قبيلة ليمسك سيفاً كى يتوزع دَمُهُ بين القبائل ، وترصدوا له
المرصاد ؛ ولكن رسول الله ﷺ كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم
ملهماً قوله تعالى :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾

[يس]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام :

لا مُجَابَهة وَمُجَاهَرَة ؛ وَلَا كَيْدًا وَتَبْيِيثًا ؛ حَتَّى وَلَوْ اسْتَعْنَمُ بِالْجِنِّ ؛
فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَمَكُرُ وَيُؤَاخِجُ ، وَحِينَ يَفْشَلُ قَدْ يَحَاوِلُ الاسْتِعَانَةَ بِقُوَّةٍ مِنْ
جِنْسٍ آخَرَ لَهُ سُلْطَانٌ كَسُلْطَانِ الْجِنِّ ، وَحَتَّى ذَلِكَ لَمْ يَفْلَحْ مَعَهُ ﷺ ؛
فَقَدْ جَاوَلُوا بِالسَّحَرِ ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ لَهُ بِالرُّؤْيَا مَوْقِعَ وَضْعِ السَّحَرِ ^(١) .

وَذَهَبَ بَعْضُ مَنْ صَحَابَتِهِ لِيَسْتَخْرِجُوا السُّحَرَ مِنَ الْمَوْقِعِ الَّذِي
حَدَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ لَهُمْ .

وَهَكَذَا أَوْضَحَ لَهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ كُلَّ مَا يَفْعَلُونَهُ لَنْ يَجْزِيَ
بِرَسُولِهِ ﷺ ؛ فَسُبْحَانَهُ ؛

﴿ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .. ﴾ (٢١)

وَهَكَذَا كَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَمَا زَالَ وَسَيُظَلُّ إِلَى أَنْ يَرِثَ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ .

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ ؛

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ
شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ
الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٤)

وَسُبْحَانَهُ قَدْ دَعَانَا إِلَى أَنْ نُؤْمِنَ بِإِلَهِ وَاحِدٍ وَهِيَ دَعْوَةُ حَقٍّ ،

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : « سَحَرُ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى كَانَ يَخْشِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ
وَمَا يَفْعَلُهُ . حَتَّى كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ دُعَا وَدُعَا ثُمَّ قَالَ : أَشْعَرْتُ أَنْ اللَّهَ أَقْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي ؟
أَتَانِي رَجُلَانِ فَتَعَدَّ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : مَا وَجَعَ
الرَّجُلُ ؟ فَقَالَ : مُضَيَّبٌ (أَيْ : مَسْحُورٌ) قَالَ : وَمَنْ طَبَّ ؟ قَالَ : لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ . قَالَ :
فِيمَاذَا ؟ قَالَ : فِي مَشْطٍ وَمَشَاقَّةٍ وَجُفٍّ طَلْعَةُ ذَكَرٍ . قَالَ : فَاثْنَيْنِ هُوَ ؟ قَالَ : فِي بَثَرٍ
تُرْوَانِ » أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قد دعا خلقه إلى كلمة الحق وهي « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدت الملائكة شهادة المشهد ، وشهد بها أولو العلم شهادة الاستدلال^(١) ؛ تلك هي دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنسان الذى يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدل على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْ أَنَّ مَنْ الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإن كان الطالب أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب » وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء .

وهكذا ترى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا تسميه فعل أمر بل تسميه دعاء ، والطالب الذكى هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنَّ كان المطلوب هو من الأدنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول « فعل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لى ، وإن كان المطلوب من مُسَاوٍ ؛ فهو يقول « التماس » . وإن كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسباب العبد قد نفذت ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكلُّ مَنْ يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعجزه شيء .

ولكن إن دعوت مَنْ لا يستطيع ؛ فهذه دعوة لا تنفع العبد ، وهم

(١) قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّهُ حَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [آل عمران] .

كانوا يدعونُ الأصنامَ : والأصنامَ لا تضرُّ ولا تنفعُ : فالصنمُ من هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه : فقد كان من الحجر .

وبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً : لأنها لا تقدر على أى شيء .

وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحق هي أن تدعو القادر : أما الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنها تخيب من يدعوها في مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ...﴾ (١٣) [الرعد]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟ ثم يضرب الحق سبحانه المثل بشيء مُحَسَّن : نفعله كلنا : فيقول : ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ...﴾ (١٤) [الرعد]

فالعطشان ما أن يرى ماءً حتى يمدُّ يده إليه ليغترف منه : لكن يده لا تصل إلى الماء : هذا هو حال من يدعو غير الله : فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله : وهو دعاء في ضلال وفي غير متاعة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥)

(١) الاميل : الوقت حين تمسفر الشمس بعد العصر إلى المغرب : وقد يراد به العشى .

والجمع : أصل - وجمع الجمع : آصال . قال تعالى : ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَمْسِلًا﴾ (١٤)

[الأحزاب] . وقال تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥) [النور] [القاموس الغريب

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هي وَقْفَةُ الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ بَعْدَ نِدَائِهِ لَهُ ، وَالصَّلَاةُ أَقْوَالُ وَأَفْعَالُ مُبْتَدَأَةٌ بِالتَّكْبِيرِ وَمُخْتَتِمَةٌ بِالسَّلَامِ^(١) ؛ بِفَرَائِضَ وَسُنَنِ وَمُسْتَحْبَاتٍ مَخْصُوصَةٍ .

والسجود هو الحركة التي تُبْرِزُ كَامِلَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ ؛ فَالسَّجُودُ وَضْعُ الْأَعْلَى مَا فِي الْإِنْسَانِ فِي مَسْتَوَى الْأَدْنَى وَهُوَ قَدَمُ الْإِنْسَانِ ؛ وَنَجْدُ الْعَامَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ : « لَا تَرْفَعُ رَأْسَكَ عَلَى » أَيْ : لَا تَتَعَالَى عَلَى ، لِأَن رَفَعَ الرَّأْسَ مَعْنَاهُ التَّعَالَى ، وَتَخْفِيزُهَا بِالرُّكُوعِ أَوْ السَّجُودِ هُوَ إِظْهَارٌ لِلْخُضُوعِ ، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ (١٥) ﴾ [الرعد]

عَلَيْكَ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ هَذَا مَا يَحْدُثُ فِعْلًا ؛ وَإِنْ لَمْ يَتَسَّعْ ذَهْنُكَ إِلَى فَهْمِ السَّجُودِ كَمَا يَحْدُثُ مِنْكَ ؛ فَلْيَتَسَّعْ ظَنُّكَ عَلَى أَنَّهُ مُنْتَهَى الْخُضُوعِ وَالذَّلَّةِ لِلَّهِ الْأَمْرِ .

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مُسَخَّرٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَلَأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْكَوْنَ خَاضِعٌ لَهُ سَبْحَاتِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَجَابَ الْإِنْسَانُ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِهِ فَهَذَا خَيْرٌ . وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبِ الْإِنْسَانُ - مِثْلًا يَقَعُ الْكَافِرُ - فَعَلَيْهِ سُوءُ عَمَلِهِ .

وَلَوْ اسْتَقْصَيْتَ الْمَسْأَلَةَ بِدَقَّةِ الْفَهْمِ ؛ لَوَجَدْتَ أَنَّ الْكَافِرَ إِنَّمَا يَتَمَرَّدُ بِإِرَادَتِهِ الْمُسَيِّطِرَةِ عَلَى جَوَارِحِهِ ؛ لَكِنْ بَقِيَّةُ أِبْعَاضِهِ مُسَخَّرَةٌ ؛ وَكُلُّهَا تُوَدِّي عَمَلَهَا بِتَسْخِيرِ اللَّهِ لَهَا ، وَكُلُّهَا تُنْفِذُ الْأَوَامِرَ الصَّادِرَةَ مِنْ اللَّهِ لَهَا ؛ وَهَكَذَا يَكُونُ الْكَافِرُ مُتَمَرِّدًا بِبَعْضِهِ وَمُسَخَّرًا بِبَعْضِهِ الْآخَرِ ، فَحِينَ يُمَرِّضُهُ اللَّهُ ؛ أَيْسْتَطِيعُ أَنْ يَعْصِيَ ؟

(١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطَّهْوَرُ ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ . وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٢٣/١ ، ١٢٩) ، وَالدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (١٧٥/١) وَالثِّرَمَذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٨/١) وَقَالَ : « هَذَا الْحَدِيثُ أَصَحُّ شَيْءٍ عَلَى هَذَا وَأَحْسَنُ » .

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقِفَ قلبه أيَقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذي يتعوّد على التمرد على الله في العبادة : وله دربة على هذا التمرد : عليه أن يُجَرِّبَ التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه : وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أن يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار : بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قدراته محكوم بالقهر : وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر في أغلب الأحيان : وتمرده في البعض الآخر : هو مُنتهى العظمة لله : فهو لا يجروّ على التمرد بما أَرَادَهُ اللهُ مُسَخَّرًا منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا :

﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۝ (١٥)﴾ [الرعد]

ولم يقل : « ما في السماوات وما في الأرض » ؟

وأقول : ما دام في الأمر هنا سجود : فهو دليل على قِمة العقل : وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أن كافة الكائنات تعقل حقيقة الألوهية : وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول :

﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ۝ (١٥)﴾ [الرعد]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً : سواء المُسَخَّرُ : أو حتى أبعاض الكافر التي يستخدمها بإرادته في الكفر بالله : هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَضَلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ (١٥)﴾ [الرعد]

ونحن في حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : « فلان يتبع فلانا كظله » : أى : لا يتأبى عليه أبداً مطلقاً ، ويلزمه كأنه الظل ؛ ونعلم أن ظل الإنسان تابع لحركته .

وهكذا نعلم أن الظلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ؛ وإياك أن تظن أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يحدد تلك المسألة بالغدو والآصال ؛ و « الغدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلك في الصباح ستجد الظل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصر الظل إلى أن يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو في الصبح وبعد العصر . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ قُلْ فَاوْزَعُوا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾

و « قل » هي أمر للرسول أن يقول للكافرين ، وهناك في آيات أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ عَلِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزخرف]

(١) أفك يافك : كذب وافتري باطلاً ، والإفك : الكذب . وأفأك : كثير الكذب صيغة مجالفة [القاموس القويم ٢٢/١] .

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة : ولم يتركها لتأتي منهم ؟

ونقول : إن مجيء الإجابة من الحق هنا عن الذي خلق السماوات والأرض أقوى مما لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا : والله المثل الأعلى : قد تقول لابنك الصغير المتشاحن مع أخيه الكبير : مَنْ الذي جاء لك بالحلّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحلّة الجديدة هو أخوه الأكبر الذي تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذي تشاحت معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٦) ﴾ [الرعد]

فسوف يرتبكون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ اللَّهُ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

ويقتابع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .. (١٨) ﴾ [الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجروا واحد منهم على أن يشب خلق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحق سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من

دونه اولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ؛ ولا ضرا ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تُسَوَّرِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ ﴾ (١٥)

[الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالمبصر .

وساعة ترى « أم » اعلم انها ضَرْبُ انتقالي ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شيء مُنْكَرٌ فعلاً :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (١٥)

[الرعد]

أى : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خلق الله ؛ لكان لهم أن يعقدوا مقارنة بين خلق الله وخلق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يقدرون على خلق شيء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتى الأمر من الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۖ ﴾ (١٦)

[الرعد]

وفى آية أخرى يُقَدِّمُ الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ۖ ﴾

(٧٣)

[الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخلق ، ولكن مجيء « لن » هنا يؤكد أنهم حتى بتنبئهم لتلك المسألة ؛ فلن سوف يعجزون عنها ؛

لأن نفى المستقيل يستدعى التحدى : رغم أنهم آلهة متعددة :
ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٧٢) [الحج]

أى : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً مما يملكون لما استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكل شيء :
وتلزم عبادته وحده لا شريك له : وهو جلّ وعلا المتفرد بالربوبية
والألوهية : وهو القهار المتكبر : والغالب على أمره أبداً ، فكيف
يكون من دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ
السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ
أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٧٣)

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشائه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٢/١] .

(٢) الجفاء : الزبد ، مثل الزبد الذى ترمى به القدر عند الغليان . وجفاء الوادى غشاه . رمى بالزبد والغذى . [لسان العرب - مادة : جفاء] .

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتسخر من البحار والأنهار والأرض التي تتفجر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضه على بعض ؛ ويمر بمنطقة باردة فيساقط المطر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد]

والوادي هو المنخفض بين الجبلين ؛ وساعة ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلاحظ أن حكمة الله شاءت ذلك كيلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء في تلك الأودية لغرقت نتيجة ذلك القرى ، ولخربت الزراعات ، وتهدمت البيوت .

والمثل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتي مناسبا في الكمية لحجم المجري ؛ وكان مثل هذا القدر من الفيضان هو الذي يسعد اهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يمثل خطرا يدهم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطرا على قدر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أن يضرب مثلا على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قدر اتساع الأودية .

ومن رأى مشهد نزول المطر على هذا القدر يمكنه أن يلاحظ أن نزول السيل إنما يكنس كل القش والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد

رَغْوَةٌ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ الَّذِي يَجْرِي فِي النَّهْرِ ، ثُمَّ يَنْدَقِعُ الْمَاءُ إِلَى الْمَجْرَى ؛ لِتُزِيحَ تِلْكَ الرَّغَاوَى جَانِبًا ؛ لَيْسِيرِ الْمَاءِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ صَافِيًا رَقْرَاقًا .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا ﴾^(١)
 ﴿١٧﴾ (الرعد)

وهذا المثل يدركه أهل البادية : لأنها صحراء وجبال ووديان ؟
فماذا عن مثل يتناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ۚ ﴾ (١٧) ﴿

[الرعد]

وأنت حين تذهب إلى سوق عمل الحديد أو صنائع الذهب والفضة ؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهُور ؛ ويطفو فوق هذا السائل الزَبَد وهو الأشياء التي دخلت إلى المعدن ، وليست منه في الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائِغُ يَضَعُ الذَّهَبَ فِي النَّارِ لِيُخَلِّصَهُ مِنَ الشَّوَابِّ ؛ ثُمَّ يَضِيقُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَوَادِّ مَا يَقْوِي صَلَابَتَهُ ؛ أَوْ يَنْقُلُهُ مِنْ حَالَةِ النِّقَاءِ إِلَى دَرَجَةِ أَقْلٍ نِقَاءً ، وَحَالَةِ النِّقَاءِ فِي الذَّهَبِ هِيَ مَا نَطْلُقُ عَلَيْهِ « عِيَار ٢٤ » ، وَالْأَقْلَ دَرَجَةٌ هُوَ الذَّهَبُ مِنْ « عِيَار ٢٦ » ، وَالْأَقْلَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الذَّهَبُ مِنْ « عِيَار ١٨ » .

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن دِينٍ لَّيْسَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّوا غَدًا لِلَّهِ ۖ﴾ [الروم] .

والذهب الخالص النقاء يكون لينةً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحلى .

وهذا هو المثلُّ المتناسب لأهل الحضر ؛ حين يصنعون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهى لا بُدَّ وأن تكون من الحديد الصلب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصلابة ؛ فإن أراد الحداد أن يصنع سيفاً فلا بد أن يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّيْدُ فى الماء النازل من السماء إنما يأتى إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ؛ فضلاً عن غسيل مَجْرَى النهر الذى ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّيْدُ على الحَوَافِ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل - مثلاً - فأنت تجد الشواطئ ، وقد ترسبت على جانبي النهر وحَوَافِهِ ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر ؛ فأنت تجد ما تلقىه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لتلقىه الأمواج على الشاطئ .

وهكذا ضرب الله المثل لأهل البدو ولأهل الحضر بما يفيدهم فى حياتهم ؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها فى أَوْجِهْ أعمالهم الحياتية ؛ وهم فى كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التى يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَثِ أو الزَّيْدِ .

وكذلك يفعل الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ ۞ (١٧) ﴾ [الرعد]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويذهب ما يضرُّهم ، وقوله :

﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۚ ۞ (١٧) ﴾ [الرعد]

أى : يبعده ؛ فـ « جُفَاءً » يعنى « مَطْرُوداً » ؛ من الجَفْوَةِ ؛ ويُقال : « فلان جَفَا فلانا » أى : أبعده عنه .

ويُذَكِّلُ الحقَّ سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

و شاء سبحانه أن يُبَيِّنَ لنا بالأمور الحسَّية : ما يساوى الأمور المعنوية ؛ كى يعلم الإنسان أن الظُّلْمَ حين يستشري وَيَطْلُو وَيَطْمَسُ الحق ، فهو إلى زَوَالٍ ؛ مثله مثل الزَّبَدِ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا الْمُلَوَّاتُ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَا فَنَدُ وَأَبْوَاهُ^(١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَيَتَنَسَّ الْمَهَادُ^(٢) ۞ (١٨) ﴾

(١) افتدى : فدَّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأسْرِ . وافتدى الأسير : فداه وأفكَّه . قال تعالى : ﴿ تَوَّأْنُ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فَنَدُوا بِهِ ۚ ۞ (١٨) ﴾ [الرعد] . [القاموس القويم ٧٤/٢] .

(٢) المهَاد : الفراش ، واصل العهد التوثير . يقال : مهدت لنفسى ومهدت أى جعلت لها مكاناً وطناً سهلاً . [لسان العرب - مادة : مهد] .

والذين يستجيبون للرب الذي خلق من عَدَمٍ ، وأوجد لهم مَقُومَاتِ الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ؛ فإذا دعاهم لشيء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتَمِّمٌ لصالحتهم ؛ الذي بدأه بإيجاد كل شيء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنَى ؛ فسيجانه جعل الدنيا مزرعة للأخرة ، وأنت في الدنيا مَوْكُولٌ لقدرتك على الأخذ بالأسباب ؛ ولكنك في الآخرة مَوْكُولٌ إلى المُسَبِّبِ .

ففي الدنيا أنت تبذر وتحرق وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شَطَفًا^(١) وترفاً بقدرتك على الأسباب .

فإذا استجبتَ لله واتبعتَ منهجه ؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى ؛ تحيا فيها مع المسبب ؛ لا الأسباب ؛ فإذا خطر ببالك الشيء تجده أمامك ؛ لأنك في الحياة الأخرى لا يملك الله إلى الأسباب ، بل أنت مَوْكُولٌ لذات الله ، والموكول إلى الذاتِ بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنِّ ..

﴿ (١٧٥) ﴾

[النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الشظف : يُسر العيش وشدته وضيقه . [لسان العرب - مادة : شظف] .

[الرعد]

﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ.. (١٨)﴾

ويقول تعالى فى آية أخرى :

[يونس]

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ.. (٢٦)﴾

والحسنى هى الأمر الأحسن : وسيحاته خلق لك فى الدنيا
الاسباب التى تكدر فيها : ولكنك فى الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون
كدح ، وهذا هو الحسن .

وهب أن الدنيا ارتقت : والذين يسافرون إلى الدول المتقدمة :
وينزلون فى الفنادق الفاخرة : يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك
القهوة : والزر الآخر ينزل لك الشاي .

وكل شئ يمكن أن تحصل عليه فور أن تطلبه من المطعم حيث
يُعدّه لك آخرون : ولكن مهما ارتقت الدنيا فلن تصل إلى أن يأتى لك
ما يمرُّ على خاطرك فور أن تتمناه : وهذا لن يحدث إلا فى الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنثة وأفعل تفضيل : ويُقال « حسنة
وحُسْنَى » : وفى المذكر يُقال « حسن وأحسن » . والمقابل لمن
لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَافْتَدَوْا بِهِ.. (١٨)﴾

[الرعد]

أى : يقول خذوا ما أملك كله واعتقونى ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا الْمِهَادُ﴾ (١٨)

[الرعد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْرٌ : ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ : وجاء الحق سبحانه بكلمة :

﴿وَفِيهَا الْمِهَادُ﴾ (١٨)

[الرعد]

هنا : لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضَعَهُ فِي النَّارِ ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف في مهاده : ومن المؤكد أن النار بِئْسَ الْمِهَادُ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا

يَنْذِرُكُمْ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٩)

والمؤمن هو مَنْ يَعْلَمُ أن القرآن الحاصل للمنهج هو الذي أنزله سبحانه على رسوله : ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه :

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ (١٩)

[الرعد]

وجاء هنا بـ « علم » و « عمى » : لأن الآيات الدالة على القدرة من المرثيات .

ويقول الحق سبحانه :

(١٩) الآية : المعقل وجمعه الباب . [القاموس القويم ١٨٧/٢] ولأب كل شيء : خالصه

وخياره . وهو أيضاً : نفسه وحقيقتة . [لسان العرب - مادة : لب] .

[الرعد]

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٤) ﴾

أى : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (١٥) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعة آمن بالله : فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بالآل يعبد غيره ؛ والآخر يخضع لغيره ؛ والآخر يتقرب لغيره ؛ والآخر ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيماني .

ويتفرع من هذا العهد العقدي الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخلق الله ؛ لأن الناشئ من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنت قد آمنت بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذي أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيت بالمنهج ؛ تكون قد أوفيت بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكاليفات المهمة البارزة القوية في حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتي بها في صيغة البناء ؛ فيما يسمى « البناء للمجهول » ؛ مثل قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾

[البقرة]

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(١) فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾

[البقرة]

(١) القصاص : معاقبة الجاني بمثل جنايته . [الفاموس القريم ١٢٠ / ٢] . والقصاص : القود وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح . وقال اللبث : القصاص والثَّاقص : شيء يشيء . [لسان العرب - مادة : قصص] .

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ .. ﴾ (٢١٦) [البقرة]

وكلُّ التكليفات تأتي مسبقة بكلمة « كُتِبَ » والذي كتب هو الله ؛
وسبحانه لم يُكَلِّفَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ ؛ فساعة إعلان إيمانك بالله ؛ هي
ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِذَ ما يُكَلِّفُكَ بِهِ .

وأنت حرٌّ في أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظة إيمانك بالله تدخل
إلى الالتزام بما يُكَلِّفُكَ بِهِ . وتكون قد دخلت في كتابة التعاقد الإيماني
بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتِبَ » ولم يَقُلْ : « كُتِبَتْ » ؛ لأن
العهد بينك وبين الله يقتضى أن تدخل أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه
لم يُكَلِّفَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ .

وسبحانه هنا يقول :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ^(١) الْأَمِيثَاقَ ﴾ (٢٠) [الرعد]

أى : أن العهد الإيماني مَوْثَقٌ بما أخذته على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصَفَ هؤلاء بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (٢١)

وأول ما أمر به الله أن يُوصَلَ هو صلة الرَّحِمِ ؛ أى : أن تصل
ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلَسَلَ الأنساب ؛ فسيدخل

(١) النقص : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء . وفي الصحاح : النقص نقص البناء والحبيل
والعهد [لسان العرب - مادة : نقص] .

كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي صِلَةِ الرَّحْمِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ رَحِمٌ مُتَدَاخِلٌ ؛ فَإِذَا كَانَ لَكَ عَشْرَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ تُصَلِّهِمْ بِحُكْمِ الرَّحْمِ ؛ وَكُلُّ مُؤْمِنٍ يَصِلُ عَشْرَةٌ مِثْلَكَ ، انْظُرْ إِلَى تَدَاخُلِ الدَّوَائِرِ وَانْتِظَامِهَا ؛ سَتَجِدُ أَنَّ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ فِيهَا .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« أَنَا الرَّحْمَنُ ؛ خَلَقْتُ الرَّحْمَ ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ أَسْمَى ؛ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتَهُ ؛ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتَهُ » ^(١) .

وقد رَوَيْتُ مِنْ قَبْلِ قِصَّةٍ عَنْ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَقَدْ جَاءَ حَاجِبُهُ لِيُعْلِنَ لَهُ أَنَّ رَجُلًا بِالْبَابِ يَقُولُ : إِنَّهُ أَخُوكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَلَا يَدْرِي أَنَّ حَاجِبَ مَعَاوِيَةَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ لَا إِخْوَةَ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِيمَا يَقُولُهُ الرَّجُلُ ؛ وَقَالَ مَعَاوِيَةَ لِحَاجِبِهِ : أَلَا تَعْرِفُ إِخْوَتِي ؟ فَقَالَ الْحَاجِبُ : هَكَذَا يَقُولُ الرَّجُلُ ، فَأَنْزَلَ مَعَاوِيَةَ لِلرَّجُلِ بِالْدُخُولِ ؛ وَسَأَلَهُ : أَيُّ إِخْوَتِي أَنْتَ ؟ أَجَابَ الرَّجُلُ : أَخُوكَ مِنْ آدَمَ . قَالَ مَعَاوِيَةَ : رَحِمَ مَقْطُوعَةٌ ؛ وَاللَّهِ لَا كُونَ أَوَّلَ مَنْ يَصِلُهَا .

وَالْتَقَى الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ ^(٢) بِجَمَاعَةٍ لَهُمْ عِنْدَهُ حَاجَةٌ ؛ وَقَالَ لَهُمْ : مَنْ أَيْنَ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : مِنْ خُرَاسَانَ . قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٩١/١ - ١٩٤) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (١٩٠٧) وَقَالَ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ . وَكَذَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (١٦٩٤) كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ .

(٢) هُوَ : الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضِ بْنِ التَّمِيمِ ، أَبُو عَلِيٍّ ، شَيْخُ الْحَرَمِ الْمَكِيِّ ، مِنْ أَكْبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ ، ثِقَةٌ فِي الْحَدِيثِ ، وَلَدَ بِسَمَرْقَنْدَ (١٠٥ هـ) ، وَسَكَنَ مَكَّةَ وَتَوَقَّى بِهَا (١٨٧ هـ) عَنْ ٨٢ عَامًا . الْأَعْلَامُ (١٥٢/٥) .

وقد أمرنا سبحانه أن نصل الأهل أولاً : ثم الأقارب : ثم الدوائر الأبعد فالأبعد : ثم الجار ، وكل ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق : ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إن وصلته وصلك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومن خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ ﴾ (٢٢) [الشورى]

وقال بعض من سمعوا هذه الآية : قُرباك أنت في قُرباك^(١) .
وقال البعض الآخر : لا ، القُربى تكون في الرسول ﷺ : لأن القرآن قال في محمد ﷺ :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ (٦) [الاحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أُولى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولى الألباب :

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ ﴾ (٢١) [الرعد]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يصيب بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه : أى : أنهم يخافون الله مالكم وخالقهم ومربيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨/١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما أتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تواتوا الله تعالى وأن تقرّبوا إليه بطاعته » قال ابن كثير في تفسيره (١١٢/٤) : « أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تدرككم عند الله زلفى » .

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خَفْتُ زيدا ، وتقول : خَفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر به سبحانه أن يوصل ، وأن يبتعدوا عن أي شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحساب فهو مَنْ يُلْقَى العذاب^(١) ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذاب الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصَفَ أُولَى الألباب فيقول :

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْدِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ
الَّذِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ٢٢﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أُولَى الألباب الذين يتذكرون ويعترفون مواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يوفون بالعهد الإيماني بمجرد إيمانهم بالله في كُتُبات العقيدة

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ . فقال عبدالله بن أبي مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ تُرَوِّقُ يَتَّابِ جَمِيعًا بِسَرٍّ ﴾ (٨) ؟ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ تُرَوِّقُ الحساب يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٦) قال النووي في شرحه : « معناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومقتضيات التشريع الذي تأتي به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها في قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ۚ ۝ (١١١)﴾ [التوبة]

وهي صفقة إيجاب وقبول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مؤكد بالأدلة القطرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهم في هذه الآية من صبروا ابتغاء وجه ربهم ، والصبر هو تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ؛ والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس ؛ كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكل هذا يقتضى مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشاق التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿وَأَنهَا^(١) لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ (٤٥)﴾ [البقرة]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٨٧/١) : « التضمير في قوله : ﴿وَأَنهَا لَكَبِيرَةٌ ۝ (٤٥)﴾

[البقرة] عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً

على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك . .

وهذا صَبْرُ الذَّاتِ عَلَى الذَّاتِ . ولكن هناك صَبْرٌ آخَرُ : صَبْرُ
مَنْكَ عَلَى شَيْءٍ يَقَعُ مِنْ غَيْرِكَ ؛ وَيُخْرِجُكَ هَذَا الشَّيْءُ عَنْ اسْتِقَامَةِ
نَفْسِكَ وَسَعَادَتِهَا .

وهو يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ تَجِدُ فِيهِ غَرِيماً لَكَ ؛ وقِسْمٌ
لَا تَجِدُ فِيهِ غَرِيماً لَكَ .

فالمريض الذي يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ عَنْ حَيْزِ الاسْتِقَامَةِ الصَّحِيَّةِ
وَيُسَبِّبُ لَكَ الْأَلَمَ ؛ لَيْسَ لَكَ فِيهِ غَرِيمٌ ؛ لكنَّكَ تَجِدُ الْغَرِيمَ حِينَ
يَعْتَدِي عَلَيْكَ إِنْسَانٌ بِالضَّرْبِ مِثْلًا ؛ ويكون هذا الذي يَعْتَدِي عَلَيْكَ
هُوَ الْغَرِيمُ لَكَ .

وكل صَبْرٍ لَهُ طَاقَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ تَحْتَمِلُهُ ؛ فَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ
لَيْسَ لَهُ فِيهِ غَرِيمٌ ؛ يكون صَبْرُهُ مَعْقُولاً بَعْضُ الشَّيْءِ ؛ لِأَنَّهُ
لَا يُوْجَدُ لَهُ غَرِيمٌ يَهْيِجُ مَشَاعِرَهُ .

أما صَبْرُ الْإِنْسَانِ عَلَى أَلَمٍ أَوْقَعَهُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ أَمَامَهُ ؛ فَهَذَا
يَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ ضَعِيفَةٍ كَبِيرَةٍ ؛ كَي لَا يَهْيِجُ الْإِنْسَانُ وَيُفَكِّرُ فِي
الْإِنْتِقَامِ .

ولذلك تَجِدُ الْحَقَّ يَفْصِلُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ؛ يَفْصِلُ بَيْنَ شَيْءٍ
أَصَابَكَ وَلَا تَجِدُ لَكَ غَرِيماً فِيهِ ، وَشَيْءٍ أَصَابَكَ وَلَكَ مِنْ مِثْلِكَ
غَرِيمٌ فِيهِ .

ويقول سبحانه عن الصَّابِرِ الَّذِي لَيْسَ لَكَ غَرِيمٌ فِيهِ :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [الْقَمَان]

ويقول عن الصَّابِرِ الَّذِي لَكَ فِيهِ غَرِيمٌ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى كَظْمِ
الْغَيْظِ ، وَضَبْطِ الْغَضَبِ :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٤٣) [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أن يصبروا على إيدائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أن تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فرد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أن يصبر على إيدائك ، وهذا هو قمة التامين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ أذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على أذاك لهم .

فإذا بدرتُ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطيء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيذاً من صير الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أن يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أن تصبر صبراً أولياً بأن تكظم قى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة التزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبْ ؛ ويسمى ذلك ؛

﴿الكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ..﴾ (١٣٤) [آل عمران]

والكظم مأخوذ من عملية رَبَط القربة التى نحمل فيها الماء ؛ فإن لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويقال « كظم القربة » أى : أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٦٤)﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأرقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ أذاك إنما يعتدى على حَقِّ الله فبك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّكَ وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له .

والصبر له دواقع ؛ فهناك مَنْ يصبر كي يُقال عنه ؛ إنه يملك الجَدَّ والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشُمْتَ فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً^(١) لصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَرِ الله .

وَمَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن الله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خَيْرَ بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرَدِ القضاء الذى وقع عليه ، ويقول ؛ أحمدُك ربى على كل قضائك وجميل قَدْرِكَ ؛ حمداً الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فَمَنْ يصبر على الفاقة^(٢) ؛ ويقول لنفسه ؛ « اصبرى إلى أن

(١) الحصيف . جيد الراى مُحْكَمُ العقل . وإحصاف الأمر ؛ إحصاؤه . [لسان العرب - مادة ؛ حصف] .

(٢) الفاقة ؛ الفقر والحاجة . واقتار الرجل أى افتقر . [لسان العرب - مادة ؛ قرق] .

يفرجها الله . « ولا يسأل أحداً : سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَخْرِجَ الْمَالَ مُنْفَعًا

عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ

فَسَلْ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرِهَا

عَلَيْكَ وَإِنْ ذَارًا إِلَى سَاعَةِ الْبُسْرِ

فَإِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الْغَنَى وَإِنْ أَبَيْتَ

فَكُلُّ مُنْوَعٍ بَعْدَهَا وَأَسِيعُ الْعُدْرِ

٢٠ أى : إن راودتك نفسك لتتقترض مالا لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضت تلك المُرَاوِدَةَ ، وطلبت من نفسك أَنْ تعطيك من كَنْزِ الصبر الذى تملكه : وَإِنْ فعلت ذلك كنت الغنى ، لأنك قدرت على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحَدَث وحده يتعجب : والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه : ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذى يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أَنْ يَخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية : لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجْريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصَفَ أُولَى الْأَلْبَابِ :

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (٢٢) [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة : وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها : فهو مَنْ يعلم أنها جَلْوَةٌ^(١) بين العبد وربّه ، ويكون العبد في ضيافة ربّه .

وحين تُعْرَضُ الصَّنْعَةُ على صانعها خمس مرات في اليوم ؛ فلا بد أن تنال الصَّنْعَةُ رعاية وعناية مَنْ صَمَّمَهَا وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .
وقد علّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حزبه^(٢) أمر قام إلى الصلاة »^(٣) .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْبَ في أي وقت تشاء ؛ وأنت الذي تُحَدِّد متى تقف بين يديه في أي وقت يعد أن تُلَبِّيَ دعوته بالفروض ؛ لتؤدي ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنْهَى سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنْهَى أنت اللقاء وقت أن تريد .

ولقد تأدّب رسول الله ﷺ بأدب ربّه ؛ ونخلّق بالخلق السامى ؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسَلِّمُ عليه ؛ إلا أن يكون هو النازع^(٤) .
وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ . . (٢٢)﴾ [الرعد]

- (١) اجشئ الشيء : نظر إليه . وجلى الشيء : كشفه . فالجلوة : الانكشاف والظهور وكانه ينظر إليه . [لسان العرب - مادة : جلا] .
- (٢) حزبه أمر : أصابه . أي تزل به مهم أو أصابه غم واشتد عليه . وأمر حنازب وحزيب . شديد . [لسان العرب - مادة : حزب] .
- (٣) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٣١٩) .
- (٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأمة من أهل المدينة لتساخض بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة . في حاجتها » . أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٩٨) ، وأحمد في مسنده (١٧٤/٢ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إن وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومن يخاف أن يترك عيالا دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقا :

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً^(١)﴾ (٩) ﴿[النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليتم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قدر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يسكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب^(٢) ، ولذلك فعليك أن تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كنى يكون لك مال تُنفق منه ، وعلى حركتك أن تسعك وتسع غيرك .

وهناك من ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقي لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿يُنَافِئُ الَّذِينَ آمَنُوا رَغْوَةَ اللَّهِ وَقَوْلُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ [الأحزاب] أى . موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [الغاموس القويم : ٢٠٧/١] .

(٢) النصاب من المال : القدر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلغه . [لسان العرب - مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مرَّ عليه عام .

عنه وأرضاه : تصدّقتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟
يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله^(١) .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ
يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدّقتُ بنصفها والله عندى نصفها .
وكانه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه
النصف الباقي لله عندى : فليسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف ممّا رزقه الله : بكل ما رزقه سبحانه ،
وهو أبو بكر الصديق : ونجد مَنْ ينفق ممّا رزقه الله ومستبعد لأن
ينفق الباقي إن رأى رسول الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً : فليستعفف فلا
يأخذ شيئاً من مال اليتيم إن كان الوليُّ على اليتيم له مال : وإن كان
الولى فقيراً فليأكل بالمعروف^(٢) .

ولفائل أن يسأل : ولماذا تأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم ؟
وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية :
غياثى بالفقير صاحب الخبرة : وليأكل بالمعروف .

(١) ذكر القصة الكاندملوى فى حياة الصحابة (١٢٧/٢) وعزاها لابی داود والترمذى
والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق
ووافق ذلك ما لا عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . فجئت بنصف مالى
فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مدله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ،
ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبق إلى شيء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا الْيَسَارَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء] .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا...﴾ (٥٠) [النساء]

ولم يقل « وارزقوهم منها » أي : خذوا الرزق من المَطْمُور فيما يملكون بالحركة في هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق الإنسان المؤمن مما رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس في جُرن القمح ويريد أن يُزكى يوم الحصاد ؛ فيعطى كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿وَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١)

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المتففقين في سبيله :

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ (٢٢) [الرعد]

والسر هو الصدقة المندوبة ، أما الإنفاق في العلانية ؛ فهي الصدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتتالك السنتهم بالسوء ؛ وحين يرونك وأنت تنفق وتتصدق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدى حق الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السرّ وصدقة العلن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هي ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سرا ؛ وهذا إنفاق في العلن وفي السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أن يحجب الخير عن أيّ أحد بأي سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرج الصدقة رياءً .

وأقول لمن يتفوه بمثل هذا القول : ألم يستفيد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحد يدخل في النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. ﴾ (٢٢)

[الرعد]

والذّرء : هو الدّفع بشدة ؛ أي : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هي أن تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعت السيئة . أي : دفعت الذنب الذي ارتكبت وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى منكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النصّح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. ﴾ (٢٢)

[الرعد]

هو إن فعلت سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلحة في ناحية من النواحي ؛ فالحق سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ^(١) رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تُمَحُّها ، وخالق الناس بخلق حسن »^(٢) .

ولذلك ، فانت تجد أغلب أعمال الخير في المجتمع لا تصدر من أى رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئة تطارده كي يفعل الحسنة التي يرجو أن تمحو السيئة .

فالسيدة ساعة تلهب ضمير من ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فلأبن مدرسة » أو « أبني مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحد بقادر على أن يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمن يرتكب سيئة لا بد أن تلج عليه بأحاسيس الذنب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعل الحسنات تعوّض السيئات .

ومن نَرءُ الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فانت

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصاري الإمام المقدم في علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها . أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفَقِّهاً ، توفي في طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٢٤ عاماً . [الإصابة ١٠٦/٦] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٢٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٦/٤) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تَكْظُمُ غِيْظَكَ وَتَعْفُو ؛ وَبِذَلِكَ فَانْتَ تَحْسِنُ إِلَيْهِ .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤)

[المائدة]

وإذا أنت جرّبتّها في حياتك ؛ وأخلصتّ المودة لمن دخل في العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لقلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول ؛ جرّبتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك ؛ لقد ظننتُ أنك قد دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكنك في واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه في عداوة ، ولم تُخلص في الدفع بالتي هي أحسن ، وأخذت تُجرّب اختبار قول الله ؛ فذهبتُ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتي هي أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصدق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتي ظاهرة كونية تُكذّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر ؛

يَا مَنْ تُضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التّي وَمِنْ الَّذِي

دفع فديتك بالتي حتّى ترى فإذا الذي

أى ؛ يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن

تُحَسِّنُ الدَّقْعَ بَالْتَى هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى تَرَى أَنَّ الْعِدَاوَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَكَ
وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤)

[فصلت]

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ ﴾ (٢٧)

[الرعد]

أى : أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ أُولَى الْأَبَابِ الَّذِينَ اجْتَمَعَتْ لَهُمْ تِلْكَ الصِّفَاتُ
التَّاسِعَةُ : بِدَايَةِ مَنْ أَنَّهُمْ يُوفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ؛ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ؛
وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ؛ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ؛ وَصَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ؛ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ؛ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ؛ وَاتَّقَوْا مَا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ؛ وَيُتْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ
لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ .

وَعُقُوبَى مَاخُوذَةٍ مِنَ الْعُقُبِ ؛ فَالْقَدَمُ لَهُ مُقَدِّمٌ وَلَهُ عَقِبٌ ، وَعَقِبٌ هُوَ
مَا يَعْقِبُ الشَّيْءُ ، وَنَقُولُ هِيَ أَفْرَاحُنَا « وَالْعَاقِبَةُ عِنْدَكُمْ فِي الْمَسَرَّاتِ »
أى : أَنَا نَتَمَنَّى أَنْ تَتَحَقَّقَ لَكُمْ مَسْرَّةٌ مِثْلُ الَّتِي عِنْدَنَا ، وَتَكُونَ عَقِبُ
الْمَسْرَّةِ الَّتِي فَرَحْنَا نَحْنُ بِهَا .

وَهَكَذَا تَكُونُ الْعُقُوبَى هِيَ الشَّيْءُ الَّذِي يَعْقُبُ غَيْرَهُ ، وَالَّذِي يَعْقِبُ
الدَّارَ الدُّنْيَا هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مُوضِّحًا الْعَاقِبَةَ
لِهَؤُلَاءِ :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٣)

إذن : فالدار الآخرة التي تعقب الدنيا بالنسبة لأولى الألباب هي جنات عدن . و « العَدْنُ » هو الإقامة الدائمة ؛ و جنات عدن هي جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعيم في الدنيا إما أن تفوته بالموت أو يفوتك بأغيار الحياة . أما جنات عدن فهي دار إقامة دائمة ؛ بما أن « عدن » تعنى مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كما نفهم هي البساتين التي فيها أشجار وفيها ثمار ؛ وكل ما تشتهي الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنات ليست هي المساكن ؛ بل في تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۖ ﴾ (٧٢) [التوبة]

فالجنات هي الحدائق ؛ وفيها مساكن . ونحن في حياتنا الدنيا نجد الفيلات في وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لا بد أن ينطبق عليه وصف الرسول ﷺ للجنة في الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

وهكذا بين الله سبحانه عقيب الدار ؛ فهي :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وَذُرِّيَّتَهُمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴿

[الرعد]

وآباء جمع « أب » أى : يدخلها مع أولى الألباب مَنْ كان صالحاً
من الآباء مُتَّبِعاً لمنهج الله .

وإنَّ سأل سائل : وابن الامهات ؟

اقول : نحن ساعة نثنى المتماثلين نُغَلِّبُ الذَّكَرَ دائماً . ولذلك
فآبَاؤُهُمْ تعنى الأب والام ، أَلَمْ يَقُلِ الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿

[يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أولى الألباب الذين استوفوا
الشروط التسعة التى تحدَّثنا عنها : فهل استوفى الآباء والأزواج
والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يعامل خَلْقَهُ فى الدنيا بمقتضى
العواطف الموجودة فى الذُّرِّيَّة : فالواحد مَنْ يُحِبُّ أولاده وأزواجه
وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلُّ حَسَبٍ طاقته ؛ فالحق
سبحانه يُلْحَقُهُمْ بِهِ .

ولذلك تاتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ^(١)
مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ^(٢) ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿

[الطور]

(١) لانه يلبسه حقه ثانياً : نفعه ولم يؤدّه كاملاً . قال تعالى : ﴿ لَا يُلْحَقُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ..

﴿٥١﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢٠٩/٢] .

(٢) أى : مرهون عند الله حتى يُحَاسَبَ على ما كسبه . [القاموس القويم ٢٧٨/١] .

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية في الإلحاق بمعنى أن تلحق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له في العمل ما سُمي إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حَقَّهُ ؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً في إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميَّزوا بعمل إيماني بدليل قوله تعالى :

﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . . (٢١)﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل ؛ والابن الذي لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كي لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبر تواجدُ الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ . . (٢١)﴾ [الطور]

أي ؛ أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والابوين مؤمنان ، ولكن الذي يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق ؛ كي يُدخل الفرع على قَلْبِ المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة في العدالة ، لماذا ؟

والمَثَل الذي أضربه على ذلك ؛ هَبْ أن أبا قد حرص على أن يطعم أهله من حلال ؛ فقد يعيش أولاده في ضيق وشغل ؛ بينما

نجد أبناء المنحرف يعيشون في بُحْبُوحَةٍ^(١) من العيش ؛ وهكذا يتنعم
أبناء المنحرف الذي يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعاني أبناء
الأمين الذي قد يعتبره البعض مُتَزِمًا ؛ لأنه يَرعى حق الله ، ويرفض
أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم
التنعم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم في الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛
لا يفوتهم فيه شيء ؛ ولا يفوته شيء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى
حياته على جادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمته في الدنيا
بأنه مُتَزِمٌ^(٢) .

ولقائل أن يقول ؛ ألا يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول
الحق سبحانه ؛

﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٢) ﴾

[لقمان]

واقول ؛ لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلى على الميت صلاة شرعها
المُشرع ؛ وفائدتها أن تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من
عمله .

ولذلك يضيف له الحق سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو
سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التي أقامها المسلمون عليه ؛

(١) بحبوبة كل شيء ؛ وسطه وخياره . وقال الفراء ؛ البيهقي الواسع في النفقة ، الواسع

في المنزل ، ويتجيب في المجد أي أنه في مجد واسع . [لسان العرب - مادة : يج] .

(٢) الرُميت والرُميت ؛ الحليم الساكن القليل الكلام . [لسان العرب - مادة : رمت] .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل : وتعنى الرجل الذى تتزوجه المرأة ، ونحن نخطيء خطأ شائعا حين نقول « زوجة » ؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج^(١) .

وسبحانه يقول :

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾... ﴿٦﴾ ﴿الاحزاب﴾

وهكذا نعلم أن جنات عدن هي مكان ينتظم كل شيء : ولهذا المكان أبواب متعددة : هي أبواب الطاعات التي أدت إلى خسير الجزاءات : فباب الصلاة يدخله أناس : وباب الزكاة يدخله أناس : وباب الصبر يدخله أناس : وهكذا تتعدد الأبواب : وهي إما أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التي ندخل منها الطبقات :

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ (٢٥) ﴿

[البقرة]

قالبابُ يكون مفتوحاً ؛ تأتي منه الفاكهة والتَّمَرَات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرة تأتي ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتي ثمار التفاح .

(١) كلمة : زوج ، للذكر والأنثى في لغة الحجازيين - أما « زوجة » فهي لغة بني تميم ، فيقولون : هي زوجتي - وأبى الأصمعي فقال : زوج لا غير ، واحتج بقول الله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة] فغفل له : نعم - كذلك قال الله : فهل قال الله : لا فقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعي في هذا شدة وعسر - { لسان العرب - مادة : زوج } .

وتلك الأبواب كما قلت هي إما للجزاءات : أو هي أبواب الطاعات
التي أدت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب : فماذا
تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ^(١) ﴾

والسلام يعني الاطمئنان والرضا الذي لا تأتي بعده الأغيار : لأن
السلام في الدنيا قد تُعْكِرُ أَمْنُهُ أَغْيَارُ الْحَيَاةِ : فانتم أيها المؤمنون
الذين دخلتم الجنة بريثون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً » ^(٢) .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ^(٣) ﴾

[الوافعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أي شيء
ولا يدرون بئاً : ولا يعلمون قصة الخلق : وليس لهم شأنٌ بَكُلِّ
ما يجري : فليس في بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُونَ : الذين جاء
ذكرهم في قصة السجود لأدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

(١) العاقبة والعقبى : آخر كل شيء وخاتمته . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ثَوَابٍ وَخَيْرُ عُقْبَى ^(١) ﴾

[الكهف] . [القاموس القويم ٢/ ٢٨] .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والوسط والحاكم (٨٢/١) وصححه عن معاذ بن جبل أن

رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم

يخبركم أن المرد إلى الله وإلى الجنة أو نار . خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، في أجساد

لا تموت » .

﴿أَسْكَبْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾

[ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أمرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّراتُ أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجرى : الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة : والجبال الرُّؤاسى بما فيها من قُوتٍ : والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّراتُ هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم ^(١) الحق سبحانه :

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ.. (٢١)﴾

[البقرة]

وهم الذين يتولَّون أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.. (١١)﴾

[الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بعد أن يفرغوا من

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٧٥/١) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أنفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فالحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاعتز إبليس فى نفسه ، فاطاع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه . واستدل ابن كثير بحديث طويل لأبن عباس أخرجه ابن جرير الطبري فى تفسيره .

مهمتهم كحفظه من رقيب وعتيد على كل إنسان ، وإن يوجد ما يكتبونه من بعد الحساب وتقرير الجزاء ؛ هنا سيدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجنة ليحملوا الطاف الله والهدايا ؛ فهم منوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حين يُورد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي ؛ فهي تؤدّي المعنى الذى أراده سبحانه . والمثل هو كلمة «سلام» ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة ؛

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ.. (٦٩)﴾ [هود]

وكان القياس يقتضى أن يقول هو «سلاماً» . ولكنها قضية إيمانية ، لذلك قال ؛

﴿سَلَامٌ.. (٦٩)﴾ [هود]

فالسّلام هنا لم يأت منصوباً ؛ بل جاء مرفوعاً ؛ لأن السّلام للملائكة أمرٌ ثابت لهم ؛ وبذلك حيّاهم إبراهيم بتحية هي أحسن من التحية التى حيّوه بها .

فنحن نُسَلِّمُ سلاماً ؛ وهو يعنى أن نتمنى حدوث الفعل ، ولكن إبراهيم عليه السّلام قَطِنَ إلى أن السّلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون ؛

﴿سَلَامٌ.. (٢٤)﴾ [الرعد]

وهي مرفوعة إعرابياً ؛ لأن السّلام أمرٌ ثابت مُستقر في الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغير الأغيار ؛ كما في أمر الدنيا .

والسلام في الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على السنة الملائكة :

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ۖ..﴾ (٢٤) [الرعد]

وجاء الصبر في صيغة الماضي ، وهي صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا في الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا في دار جزاء ؛ ولذلك يأتي التعبير بالماضي في موقعه ؛ لأنهم قد صبروا في دار التكليف على مشقات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التي أجراها الحق سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ۖ..﴾ (٢٤) [الرعد]

في موقعه تماما .

وكذلك قوله الحق عَمَّنْ تَوَقَّعَتْ فِيهِمُ التَّسْعُ صِفَاتٌ ، وهم في الدنيا :

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ۖ..﴾ (٢٢) [الرعد]

وجاء بالصبر هنا في الزمن الماضي ؛ رغم أنهم ما زالوا في دار التكليف ؛ والذي جعل هذا المعنى متسعا هو مجيء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

[الرعد]

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ..﴾ (٢٠)

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم : وقوله :

[الرعد]

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢١)

وقوله :

[الرعد]

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ..﴾ (٢٢)

[الرعد]

و ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾ ، ﴿وَيَخَافُونَ﴾

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتي في صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضي في قوله :

[الرعد]

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ..﴾ (٢٣)

والماتل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكان الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك في كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبّر الحق سبحانه - لأجل هذه اللفظة - بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم في الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر في موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم في دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يوضح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون في الدار الآخرة .

ويُذِلُّ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

[الرعد]

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤)

وعلمنا أن « عُقْبَى » تعنى الأمر الذى يجىء فى العقب ، وحين
يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعاشين للقيم
الإيمانية ؛ فذلك بهدف أن تستشرف النفس أن تكون منهم ، ولا بد
أن تنفّر النفس من الجانب المقابل لهم .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكانوا فى جحيم ؛ هنا
نعرف قدر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضَرَّة ؛ وجلب منفعة ،
ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ^(١) كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم]

أى : كلنا سترى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧٢) ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعت به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

(١) ورد يرد : حضر أو اشرف ، على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢ / ٢٢٠] .
قال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم : « ورود المسلمين المروى على الجسر بين ظهرانيها ،
ورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ١٢٢] .

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَصْرَةً ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ..﴾ (١٨٩) [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أولى الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبين لنا أيضاً خسية المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا^(١) أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥)

ولقائل أن يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونقضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلي .

يقول سبحانه :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ..﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن من ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتاكيده بالآيات الكونية التي تدل على وجود الخالق الواحد :

(١) اللعنة : سخطه وغضبه وطرده من رحمته . [القاموس القويم ١٩٥/٢] .

﴿ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [الرعد]

والمقابل لهم هم أولو الألياب الذين كانوا يصلون ما أمر سبحانه أن يوصل - وهؤلاء الكفرة نقضة العهد :

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [الرعد]

ولم يأت الحق سبحانه بالمقابل لكل عمل أدناه أولو الألياب : فلم يقل : « ولا يحشون ربهم » : لأنهم لا يؤمنون بآله : ولم يقل : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بقدر ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراج الصالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلت على الكون ، وهو معد لاستقبالك بكل مقومات الحياة من مأكّل ومشرب وتنفس : وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلّ لنا سبحانه أن نتزوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده : ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً : فاتركه في حاله : واسمع قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ ۝ (٢٦) ﴾ [الإسراء]

فلا تنظر في أيّ أمر إلى الخير العاجل منه : بل أنظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك : أضر أم ينفع ؟

(١) قفاه قفوا : تبعه ، وهو أن يتبع الشيء . والمعنى : لا تتبع ما لا تعلم . [لسان العرب .. مادة : قفا] .

لأن الضرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأناة ؛ فلا تستطيع له دفعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه في آخر الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥ ﴾ [الرعد]

ونلاحظ أن التعبير هنا جاء باللام ممَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عشق المالك للملوك :

﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥ ﴾ [الرعد]

أي : عذابها ، وهي النار والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ۞ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمَتَّعٌ ۝٢٦ ۞ ﴾

والبسُّط هو مدُّ الشيء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحله الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

(١) قدر الله الرزق . جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله . ﴿ فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ رِزْقَهُ ۖ ۝٢٦ ﴾ [الفجر] أي : ضيقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

مساحة شيء ، كأن يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قدر احتياجه .
والحق سبحانه أمرنا أن نُعْطِيَ الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً
على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضَيِّقُ ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أن تظن أن
التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير
دافعاً للمعصية ؛ ومن العفة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضَيِّقُ على إطلاقها ، يقول سبحانه :
﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ^(١) وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا
يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيِّجَعَلِ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ^(٢) ﴾ [الطلاق]
ولأن الله قد آتاه فهذا يعنى أنه بسط له بقدره .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَفَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ^(٣) ﴾ [الرعد]

وطبعاً سيفرح بها من كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو من ينظر إلى
الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خير وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا :

﴿ لَوْلَا تَرَكْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ ^(١) عَظِيمٍ ^(٢) ﴾ [الزخرف]

(١) السعة في المال : الغنى والثراء والرخاء واتساع الأرزاق . [الفاموس القويم ٢٢٧/٢] .

(٢) المقصود بالقرينتين : مكة والطائف ، قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي
وقسادة والسدي وابن زيد ، واختلفوا في المقصود بهذين الرجلين ، قال ابن كثير في
تفسيره (١٢٧/٤) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أعيان يلدئين كان » .

ويردُ الحق سبحانه عليهم :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وساعةً تبحث في تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقَدَّر عليه في الرزق ؛ لن تجد ثباتاً في هذا الامر ؛ لأن الاغيار قد تأخذ من الغنى فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة من الغنى إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً علياً في الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصي ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإن قَصُرَ واحد ؛ فليس لهذا المرء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن ؛ فليس هناك تضيق إلا في الحدود التي يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرض ، ويتعب في الري والحَرْث ؛ ثم تأتي صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويميته .

وفي هذا لَفَتْ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كي لا يُقْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . (٢٦) ﴿

[الرعد]

والفرح فى حدّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحَرَّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ^(٢) بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ . . (٢٦)﴾

[القصاص]

والحق سبحانه قد قال :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) ﴿

[القصاص]

وهذا هو فرح البطر الذى لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال فى موقع آخر :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿

[يونس]

(١) البغى : الظلم والكبر ومجاوزة الحد . والبغى : المتجاوز الحد . [القاموس القويم ٧٧/١] .

(٢) ناء الرجل بالحمل ينوء : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة أى تثقل عليهم مفاتيح كنوز قارون وتجهدهم . [القاموس القويم ٢٩٠/٢] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يأتي بفرحهم ؛
وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أي : أنه سبب تافه للفرح ،
لأنها قد تؤخذ منهم وقد يؤخذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة
مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يونس]

ويقس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (٢٦) [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما يعبه إعداداً يُنفقه في سفر قصير ، كالحقيبة
الصغيرة التي تضع فيها بعضاً من الملابس والادوات التي تخصك
لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان في
الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أن يصل إلى أرقى درجات العلم ؛ ويسعى في
الأرض ما وسَّعه السَّعى ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَنْ يصل عمل دُنياه بالآخرة ؛ ليصل إلى النعيم
الحقيقي ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصل نفسه برحمة الله ؛ لأنها
باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بُعد ؛
لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا في حدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية
الحقّة هي : إما الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (٢٧)

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وضع يختلف عنه ووضعها إذا دخلت على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لزرتك » يعنى امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تذاكر دروسك . فهذا يعنى حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٢)

[النور]

والجملة التى دخلت عليها « لولا » فى هذه الآية هى جملة فعلية ، وكان الحق سبحانه يحضنا هنا على أن نلتفت إلى الآية الكبرى التى نزلت عليه ﷺ ، وهى القرآن .

وقد تساءل الكافرون - كذبا - عن مجيء آية : وكان تسأولهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع : يناقضون به أنفسهم ! فقد قالوا :

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . وتجمع آية على آيتين ، و « آيات » قال تعالى : ﴿فَذَرِنَا آلِئَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٢٥) [البقرة] أى : المعجزات والعلامات الدالة المرشدة إلى الحق . [القاموس القويم : ٤٧/٨] .
(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾ (٥٥) [هود] إليه اتوب وأرجع . [القاموس القويم ٢٩٠/٢] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١)

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حد الإعجاز وتمثّلوا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين - مكة أو الطائف .

وهم من قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ^(١) إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٣٢) [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبتغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ و يقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرب فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتي نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصُور على وقت حدوثها ؛ ومن رآها هو من يصدقها ، أو يصدقها من يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة في دنيا الناس إلى أن تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذت زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يأتى بآية معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاء له معجزات حسية ؛ كتسفير

(١) الذِّكْر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذكّر .

[لسان العرب - مادة : ذكر] .

الماء من بين أصابعه^(١) : وحفنة الطعام التي أشبعت جيشاً : وأظلتّه السحابة : وحنّ^(٢) جذع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً : وجاءه الضبُّ مسلماً^(٣) .

كل تلك آيات كونية هي حُجَّةٌ على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أن رواها لنا القرآن لَمَا آمَنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التي جاءت مع الرسل هي مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا في أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلَّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالتسوية لرسول الله ﷺ حين قال :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء]

(١) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (١١٦/٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، أن هذا كان يوم الحديبية ، أن الناس قالوا لرسول الله ﷺ : « ليس عندنا ماء شرب ، ولا ماء فتوضأ ، إلا ما بين يديك » فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه مثل العيون .

(٢) حنّ الجذع إليه : نزع واشتاق . وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها . [لسان العرب - مادة حانن] .

(٣) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣٦/٦) من حديث عمر بن الخطاب أن أمراًياً قال لرسول الله ﷺ : « والنلات والعزى لا تمت بك أو يؤمن بك هذا الضب » وأخرج ضباً من كفه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا ضب ، فاجابه الضب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً : لييك وسعديك يا ذين من وافي القيامة . قال : من تعبد يا ضب ؟ قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبينه ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عقابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أطلع من صدقك ، وقد خاب من كذبك » .

أى : أن الرسل السابقين الذين نزلوا فى أقوامهم وصحبتهم
الآيات الكونية قابلوا أيضاً المكذبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ
قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ
قَبْلًا^(٢) مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (٩٣) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون فى العناد ولن
يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حُجَج يتلکثون بها .

وهم هنا فى الآية التى نحن بصدده خواطرنا عنها يقولون :

﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ .. (٩٤) ﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له ربًّا ؛ على الرغم من أنهم قد
اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه - والعياذ بالله - كاذب ، وحين فُتِّرَ^(٣)

(١) الكسفة : القطعة . وجمعها : كسَفٌ وكِسْفٌ . وكسَفَ الثوب : قطعه قطعاً . [القاموس
القيوم ١٦١/٢] .

(٢) القبيل : المعايضة والمقابلة والمواجهة . وقيل : جمع قبيل ، أى : أصنافاً وأنواعاً .
[القاموس القويم ٩٨/٢] .

(٣) فُتِّرَ الشَّيْءُ : سَكَنَ بَعْدَ حِدَّةٍ ، ولأن بعد شدة . والفترة : الانكسار والضعف . والفترة :
ما بين كل تبين من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

عنه الوحي قالوا : « إن ربَّ محمد قد قَلَّاهُ » ^(١) .

وأنزل الحق سبحانه الوحي :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٤) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٥) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٦) ﴾ [الضحى]

أى : أن الوحي سوف يستمر . وهكذا فضح الله كذبيهم على مرَّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون فى طلب الآية الحسّية الكونية : وكلمة آية كما عرفنا من قبل هى : إما آية كونية تُلفت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام : وليست تلك هى الآية التى كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صدق الرسالة .

وكان طلب الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن : وهذا دليل غيائهم فى استقبال أدلة اليقين بصدق الرسول ﷺ : لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهاجاً .

والمعجزة - كما أوضحنا - إنما تأتى من جنس ما ينبغ فيه القوم ، ولا يأتى سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحسنوا شيئاً مثلاً ، ولم يتبعوا فيه .

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) أن جندباً بن عبد الله قال : « أبطل جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (٦) ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٧) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٨) ﴾ [الضحى] . .

قالذين كانوا يمارسون السحر^(١) جاءت المعجزة مع الرسول المرسل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطب ، جاء لهم رسول^(٢) ، ومعه معجزة مما نبغوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معجزة ومنهج في آن واحد ، بخلاف معجزة التوقيت والتقييد في زمن .

ومع ذلك ، فإن كفار مكة تعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآيات تدلهم إلى سواء السبيل ؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلك نجدهم قد ضلوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ (٢٩) [الرعد]

وهنا تقف وقفة ؛ لأن البعض يحاول أن يسقط عن الإنسان مسئولية التكليف ؛ ويدعي أن الله هو الذي يمنع هداية هؤلاء الكافرين . ونقول : إننا إن استقرأنا آيات القرآن ؛ سنجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٠) [البقرة]

(١) المقصود بهم سحرة فرعون . وقد قص علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٣٠) [الشعراء] .

(٢) هو موسى . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَائِهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ (٣٠) [البقرة] .

ونجد قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١)

[المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٨)

[المائدة]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكْمُ أَعْلَى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعْطَى للإنسان معونة ، لكن مَنْ يُكْذِبُ بمصدر الحُكْمِ الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .
أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المدد .
ويواصل الحق ما يسمّحه سبحانه من اطمئنان لمن يُثِيبُ إليه ،
فيقول :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

ومعنى الاطمئنان سكون القلب واستقراره وأنسه إلى عقيدة لا تطفر إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسان له حواسٌ إدراكية يستقبل بها المُحَسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صدقها أو كذبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية

واضحة يُبْقِيهَا فِي قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة
الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحل : فهي أولاً إدراك حِسِّي ؛ ثم
مرحلة التفكير العقلي ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار
في القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ .. (٢٨) ﴾

[الرعد]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب
بعض من الأغيار التي تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك
الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقَّها ؛ لأنك أنت المَلُوم
في أيِّ شيء ينالك .

قلو أحسنت استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعَلَّمتَ
تقصيرك فيما لك فيه دَخَلُ بَأْيِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما
مَا وقع عليك ولا دَخَلُ لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذي أَرَادَهُ الحقُّ
لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهي خَيْرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان
من داخل النفس فهو عليك .

ولو قُمتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوَجَدْتَهُ أَكْثَرَ
بكثير مما سَلَّبه منك . والمَثَلُ هو الشاب الذي استذكر دروسه
واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعل ما عليه ؛ وشاء الله أن ينزل عليه هذا القدر
لحكمة ما ؛ كأن يمنع عنه حسد جيرانه ؛ أو حسد من يكرهون أمه
أو أباه ، أو يحميه من الفرور والفتنة في أنه مُعتمد على الأسباب
لا على المُسبب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

وهكذا فعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبب الأعلى ،
وأن يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأن يعلم أن التوكل على الله يعنى
أن تعمل الجوارح ، وأن تتوكل القلوب ؛ لأن التوكل عمل قلبى ،
وليس عمل القوالب .

ولينتيه كل منّا إلى أن الله قد يُغيّب الأسباب كي لا نغتر بها ،
وبذلك يعتدل إيمانك به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا ينال
المجموع المناسب للكلية التى كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبلاً
قضاء الله وقدره ؛ فيؤفقه الله إلى كلية أخرى ويتبع فيها ؛ ليكون
أحد البارزين فى المجال الجديد .

لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن من يقبل قدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل
الأسباب ؛ فالأطمئنان يغمر قلبه أمام أى حدث مهما كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كل الأسباب ؛ لأن
الأسباب إن عجزت ؛ فلن يعجز المُسبب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية فى معرض حديثه عن التشكيك

الذى يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يأت لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حسية مثل الرُّسل السابقين لتنفُضَ هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزل الحق سبحانه قوله الذى يُطمئن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٢٨)

[الرعد]

والذكر فى اللغة جاء لمعانٍ شتى ؛ فمرة يُطلق الذكر ، ويراد به الكتاب أى : القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[الحجر]

ويأتى الذكر مرة ، ويراد به الصيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٤٤)

[الزخرف]

أى : انه شرفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك ان قاتى المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلمون بها .

وقد يُطلق الذكر على الاعتبار ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (٦٨)

[الفرقان]

(٦) البوار : الهلاك ، والبائر : الهالك . قال الجوهري ، البور الرجل الفاسد الهالك الذئب لا خير فيه . وبار البوار : دار الهلاك . [لسان العرب - مادة : بور] .

أى : نسوا العبرَ التى وقعتْ للأُممِ التى عاشتْ من قبلهم : فنصرَ الله الدينَ رغمَ عنادِ هؤلاء .

وقد يُطلقُ الذِّكْرُ على كُلِّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسانِ أىِّ رسولٍ :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٤)

[النحل]

وقد يُطلقُ الذِّكْرُ على العطاءِ الخيرِ من الله .

ويُطلقُ الذِّكْرُ على تذكُّرِ الله دائماً : وهو سبحانه القائل :

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ .. ﴾ (١٥٢)

[البقرة]

أى : اذكرونى بالطاعة اذكركم بالخير والتجليات ، فإذا كان الذِّكْرُ بهذه المعانى : فنحن نجد الاطمئنان فى أىِّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورث الاطمئنان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾
هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

[الاحزاب]

فكلُّ آيةٍ تأتى من القرآن كانت تُطمئنُ الرسول ﷺ أنه صادقُ البلاغِ عن الله : فقد كان المسلمون قلةً مُضطهدةً ، ولا يقدرّون على حماية أنفسهم ، ولا على حماية ذَويهم .

ويقول الحق سبحانه فى هذا الظرف :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥)

[القمر]

ويتساءل عمر^(١) رضى الله عنه : أى جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويُحدّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »^(٢) ؛ بل ويأتى بالكيفية التى يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه :

﴿ سَنَسِفُهُ^(٣) عَلَى الْخُرُطُومِ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذى قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه^(٤) .

فمن ذا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَنَسِفُهُ وَيُولَوْنُ الدِّبْرَ (١١) ﴾ [القلم] . قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع بقلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رابت رسول الله ﷺ يشب فى الدرع وهو يقول : « سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولَوْنَ الدِّبْرَ » فعرفت تأويلها يومئذ . »

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) . وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) وسمه يسمه وسمًا : جعل له علامة يُعرف بها بالكنى أو بقطع جزء من الجسم . قال تعالى ﴿ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١١) ﴾ [القلم] . أى : ستجعل له علامة تنوق أنفه بانكى أو بالجدع أو بالقطع . وهذه العبارة كناية عن الإذلال أى سننذه . [القاموس المبوب ٢٢٨/٢] .

(٤) قال ابن عباس فى تفسير الآية من تفسيره (٤٠٥/٤) : « يقال يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال » . وأخرج مسلم فى صحيحه (١٧٦٢) من حديث عمر بن الخطاب أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشهد فى أثر رجل من المشركين أمانه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه ، وشقَّ وجهه كضربة السوط . »

إن ذلك لا يتأتى إلا من إله هو الله : وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد طمأن هذا القول القوم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يموت عليها أى كافر وأى جبار : وهو ﷺ يخبرهم بها وهم فى منتهى الضعف .
وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوى عند علām الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مبلغ عن ربه : وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدقوا ما جاء به : فهاهى خديجة - رضى الله عنها وأرضاها - لم تكن قد سمعت القرآن : وما أن أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أن ما يأتيه قد يكون جنًا ، فقالت :

« إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، والله ما يخزيك الله أبداً »^(١) .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) وسنة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثلث ومنه الإتفاق على الضعيف واليدين والارامل .
و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبي ﷺ محظوظاً فى تجارته .
« تقري الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر شرح النووي على مسلم (٢ / ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (٢٤ / ١) .

وها هو أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوَرَّ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سمكاً : وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كُلَّ ما يقول فَوَرَّ أن ينطق .

ونلاحظ أن الذين آمنوا برسالاته ﷺ : لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة في حد ذاتها ، وهى التى أدت إلى تصديق الأولين لرسول الله ﷺ .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم^(١) ، وتمنَّوا لو نزل على واحد آخر غير محمد ﷺ .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التى يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التى سوف تقع ، ثم يجدون المستفيل وقد جاء بها وفقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآن ليس من عند محمد ، بل هو من عند ربِّ محمد ﷺ .

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٣١٥) : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ . وهو يملئ من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. وحدث هذا الليلة الثالثة .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعاتهم للتشكيك في محمد ﷺ يأتى القرآن مُطمئنًا للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنُ بذكر الله ؛ لانه قد آمنَ إيمانَ صدقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبي التى يقولها لهم قد تعدتْ محيطهم البيئى المحدود إلى العالم الواسع بجناحيه الشرقى فى فارس ، والغربى فى الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ - على سبيل المثال - خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله :

﴿الْقَمَرُ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَعْضِ سِنِينَ ... (٤)﴾ [الروم]

فأرونى أى عبقرية فى العالم تستطيع أن تتحكم فى نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتلان ؛ وبعد ذلك يحدد من الذى سينتصر ، ومن الذى سيهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خمس إلى تسع سنوات ؟

وايضاً تأتى الأحداث العالمية التى لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن فى حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدق هذا قول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨)

[الرعد]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - استقبالا ، وقد هُيِّئَ له فيه كُلُّ شَيْءٍ من مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ ؛ وصار الإنسانُ يعيشُ في أسبابِ الله ، تلك الأسبابُ الممدودة من يَدِ الله ؛ فنأخذُ بها وتترقى حياتنا بِقَدَرِ ما نَبْذُلُ من جَهْدٍ .

وما أنْ نَمُوتَ حتَّى نَصِلَ إلى أَرْقَى حَيَاةٍ ؛ إِنْ كَانَ عَمَلُنَا صَالِحًا وَحَسَنَ إِيْمَانُنَا بِاللَّهِ ؛ فبَعْدَ أَنْ كُنَّا نَعِيشُ فِي الدُّنْيَا بِأَسْبَابِ اللَّهِ الْمَمْدُودَةِ ؛ فنحن نعيشُ فِي الْآخِرَةِ بِالْمُسَبِّبِ فِي جَنَّتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمُتَّقِينَ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨)

[الرعد]

يعنى : أن الاطمئنان مُسْتَوْعِبٌ لِكُلِّ الْقُلُوبِ ؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه ؛ وما أنْ يَذْكُرَ الله حتَّى يَجِدَ الاطمئنان ويتثبت قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضجة حول قوله تعالى :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨)

[الرعد]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذُّكْرَ يُطْمَئِنُّ الْقَلْبُ ؛ ويقول في آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ ^(١) قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢) [الأنفال]

فأى المعنيين هو المراد ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالملكة العربية الصحيحة
لعلموا الفارق بين :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) [الرعد]

وبين قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢) [الأنفال]

فكانه إذا ذكر الله أمام الناس ؛ وكان الإنسان فى عَفْلة عن الله ؛
هنا ينتبه الإنسان بوجل .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخلق جميعاً بما فيهم من غرائز
وعواطف ومواجيد ؛ فلا يوجد إنسان كامل ؛ ولكل إنسان هفوة إلا
من عصم الله .

وحين يتذكر الإنسان إسرافه من جهة سيئة ؛ فهو يوجل ؛ وحين
يتذكر عفو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ ^(٢)

وَحُسْنُ مَقَابٍ ﴾ (٤١)

(١) وجل يوجل : فرع وخاف . قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَزِجِلْ .. ﴾ [الحجر] . أى : لا تفرع
ولا تخف . وهو وجل أى خائف . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر] .
[القاموس القويم ٢/ ٣٢١] .

(٢) طوبى : اسم تفضيل أى لهم أطيب عافية . وقيل : طوبى مصدر مثل يُشْرِى : أى : لهم
لذة وطيب وسعادة وخير . وقيل : علّم على الجنة أو على شجرة طيبة فيها . [القاموس
القويم ١/ ٤١٢] .

وَطُوبَىٰ مَنْ أَمْسَىٰ سَيِّئًا يَلْقَىٰهُ الشَّيْطَانُ طَيِّبًا ۚ أَيْ : سَيَلَقُونُ شَيْئًا طَيِّبًا فِي كُلِّ مَظَاهِرِهِ : شَكْلًا وَلَوْنًا وَطَعْمًا وَمَزَاجًا وَشَهْوَةً ، فَكُلُّ مَا يَشْتَهِيهِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ سَيَجِدُهُ طَيِّبًا ؛ وَكَأَنَّ الْأَمْرَ الطَّيِّبَ مُوجُودٌ لَهُمْ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَحَسَنُ مَّتَابٍ (٢٩) ﴾ [الرعد]

أَيْ : حَسَنٌ مَرَجَعُهُمْ إِلَىٰ مَنْ خَلَقَهُمْ أَوَّلًا ، وَأَعَاشَهُمْ بِالْأَسْبَابِ ؛ ثُمَّ أَخَذَهُمْ لِيَعِيشُوا بِالْمُسَبِّبِ الْأَعْلَى ؛ وَبِمَاكَانِيَةِ « كُنْ فَيَكُونُ » .

• • •

وَيُرِيدُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يُوضِّحَ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ ؛ وَكَانَ كُلُّ رَسُولٍ إِلَىٰ أُمَّةٍ يَصْحَبُ مَعَهُ مَعْجَزَةٌ مِنْ صِنْفٍ مَا نَبِغَ فِيهِ قَوْمُهُ .

وَقَدْ أَرْسَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَمَعَهُ الْمَعْجَزَةُ الَّتِي تَنَاسَبُ قَوْمُهُ ؛ فَهُمْ قَدْ نَبِغُوا فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَصِنَاعَةِ الْكَلَامِ ، وَقَوْلِ الْقَصَائِدِ الطَّوِيلَةِ وَأَشْهَرِهَا الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ ؛ وَلَهُمْ أَسْوَاقٌ أَدَبِيَّةٌ مِثْلُ : سَوْقِ عِكَازٍ ، وَسَوْقِ ذِي الْمَجَازِ .

وَلِذَلِكَ جَاءَتْ مَعْجَزَتُهُ ﷺ مِنْ جَنْسِ مَا نَبِغُوا فِيهِ ؛ كَيْ تَأْتِيَهُمُ الْحُجَّةُ وَالتَّعْجِيزُ .

وَلَوْ كَانَتْ الْمَعْجَزَةُ فِي مَجَالٍ لَمْ يَنْبَغُوا فِيهِ ؛ لَقَالُوا : « لَمْ نَعَالِجْ أَمْرًا مِثْلَ هَذَا مِنْ قَبْلِ ؛ وَلَوْ كُنَّا قَدْ عَالَجْنَاهُ لَنَبِغُنَا فِيهِ » .

وَهَكَذَا يَتَضَعُ لَنَا أَنْ إِرْسَالَ الرَّسُولِ بِمَعْجَزَةٍ فِي مَجَالٍ نَبِغَ فِيهِ

قومه هو نَوْعٌ من إثبات التحدى وإظهار تفوق المعجزة التى جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد ﷺ بالقرآن - وإن لم يقنع الكفار - إنما كان مطابقاً لمنطق الوحى من السماء للرسالات كلها .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِمَتَّلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾

فكما أرسلك الله إلى أمتك ؛ فقد سبق أن أرسل سبحانه رسلاً إلى الأمم التى سبقت ؛ ولم يرسل مع أى منهم معجزة تناقض ما تبغ فيه قومهم ؛ كى لا يقول واحد أن المعجزة التى جاءت مع الرسول تتناول ضرباً لم يألوه ؛ ولو كانوا قد ألوه لما تفوق عليهم الرسول .

وقول الحق : ﴿كَذَلِكَ﴾ [الرعد]

يعنى : كهذا الإرسال السابق للرسل جاء بعثتك إلى أمتك ، كذلك الأمم السابقة .

ويأتى الحق سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أن يقدروه حق قدره وهو « الرحمن » فلم يقل : وهم يكفرون بالله بل قال :

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ۝٣٠﴾ [الرعد]

فهم يعيشون - رغم كُفْرهم - فى رزق من الله الرحمان ، وكل ما حولهم وما يُقيتُهم وما يَستمتعون به من نِعَم هى عطاءات من الله . وهم لا يقومون بأداء أى من تكاليف الله ؛ فكان من اللياقة أن يذكرّوا فضل الله عليهم ؛ وأن يؤمنوا به ؛ لأن مطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتى باسمه « الرحمن » ؛ والذي يفيد التطوع بالخير ؛ وكان من الواجب أن يقدروا هذا الخير الذى قدّمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حرلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلموا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ؛ وأن ينفذوا التكليف العبادي .

وفى صلح الحديبية دارت المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ولكنهم قبلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد ﷺ وصاحبهِ الذين صاروا قوة تُعاهد ؛ تأخذ وتعطى .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول : « ما كان فى الإسلام نصرٌ أعظم من نصر الحديبية » .

فقد بدأت قريش فى الحديبية الاعتراف برسول الله وأمة الإسلام ؛ وأخذوا هدنة طويلة تمكّن خلالها محمد ﷺ وصحابته من أن يغزوا القبائل التى تعيش حول قريش ؛ حيث كانت تذهب سرية ومعها مبشّر بدين الله ؛ فتسلم القبائل قبيلة من بعد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هي أعظم نصر في الإسلام : فقد سكنت قريش : وتفرغ رسول الله ﷺ ومن معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنهم لمّا بين محمد وربّه . والعباد دائماً يَعْمَلُونَ ، والله لا يَعْمَلُ بِعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ ^(١) .

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش في الحُدَيْبِيَّةِ ، وبدأ على بن أبي طالب في كتابة صيغة المعاهدة ، كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو » .

وأصرّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبي ﷺ قال : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتهموني . اكتب محمد بن عبد الله » ^(٢) .

ولكن علياً - كرم الله وجهه - يصرّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله : فيُنطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعليّ : « سَتُسَامَ » ^(٣) مثلها فتقيل » .

(١) وفي هذا يورد السيوطي في الدر المنثور (٥٠٩/٧) أثراً ، منها الأثر الذي عزاه للبيهقي عن عمرو رضي الله عنه أن بعض الصحابة قالوا : والله ما هذا بفتح ، لقد صدقنا عن البيت وصنّد هدينا .. فقال ﷺ : « بنس الكلام ، هذا أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين ماجورين ، فهذا أعظم الفتح » .

(٢) لورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢١٧/٢) .

(٣) سامة الأمر يسومه : كلفه إياه . وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم . والسّوم : التكليف . [لسان العرب - مادة : سوم] .

ولما تولَّى عليٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين علي ومعاوية : ثم اتفق الطرفان على عَقْدِ معاهدة ؛ وكتب الكاتب « هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : « اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .

وهذا تذكُّر علي - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « سَتَسَامُ مِثْلُهَا فَتَقْبَلُ » وَقَبِلَهَا فَقَالَ : « أَمَحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب »^(١) وتحققت مقولة الرسول ﷺ .

ومن الوقائع التي تُثَبِّتُ الإيمانَ : نجد قصَّةَ عمار بن ياسر ، وكان ضمن صفوف علي - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ وأرضاه - فى المواجهة مع معاوية ؛ وقتله جنود معاوية ؛ فصرخ المسلمون وقالوا : « وَيْحَ^(٢) عمار ، تقتله الفئة الباغية »^(٣) . وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال .

وبذلك فهم المسلمون أن الفئة الباغية هى فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا فى صفِّ معاوية إلى صفِّ علي بن أبي طالب ؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفششت فى

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٨٧/٧) طبعة دار الريان للتراث . الطبعة الاولى ١٩٨٨ م . حوادث عام ٢٧ هجرية .

(٢) ويح : كلمة ترحم وتوجع . يقال لمن تنزل به بليَّة . [لسان العرب - مادة : ويح] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٩١/٢) ، والبخارى فى صحيحه (٥٤١/١) - والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٢) من حديث أبي سعيد الخدرى .

الجيش قَاشِيَةً ، إِنِ اسْتَمَرْتُ لَنْ يَبْقَى مَعَنَا أَحَدٌ : فَقَدْ قَتَلْنَا عِمَارَ بْنَ يَاسِرٍ : وَذَكَرَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَهُ : « وَيَحَ عِمَارُ ، تَقْتُلُهُ الْفِتَّةُ الْبَاغِيَةُ » ، وَقَدْ فَهِمَ الْمُقَاتِلُونَ مَعْنَا أَنَّ الْفِتَّةَ الْبَاغِيَةَ هِيَ فِتْنَتُنَا .

وَكَانَ مَعَاوِيَةُ مِنَ الدَّهَاءِ بِمَنْزِلَةِ : فَقَالَ : اسْعَ فِي الْجَيْشِ وَقُلْ : « إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ أَخْرَجَهُ » وَيَعْنِي عَلِيًّا . وَلَمَّا وَصَلَ هَذَا الْقَوْلَ لِعَلِيِّ قَالَ : وَمَنْ قَتَلَ حَمِزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ لِلْقِتَالِ مُحَمَّدٌ ﷺ !؟

وهنا في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ .. ﴾ (٢٠) [الرعد]

إنما يعنى أن الحق قد أرسلك يا محمد بمعجزة تُناسب ما نُبْعُ فيه قومك ، وَطَلَبُ غير ذلك هو جَهْلُ بَوَاقِعِ الرِّسَالَاتِ وَتَعَنُّتُ يَقْصِدُ مِنْهُ مَزِيدٌ مِنْ ابْتِعَادِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي .. ﴾ (٢١) [الرعد]

أى : أَنَّهُمْ حِينَ يُعْلَنُونَ الْكُفْرَ فَانْتَ تَصَادِمُهُمْ بِإِعْلَانِ الْإِيمَانِ ، وَتَقُولُ :

﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾ (٢٢) [الرعد]

وكلمة « رَبِّي » تَنْسَجِمُ مَعَ كَلِمَةِ « الرَّحْمَنِ » الَّذِي يُنْعَمُ بِالنِّعَمِ كُلِّهَا : وَهُوَ الْمُتَسَوِّلُ تَرْبِيَّتِي : وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ سِوَى خَلْقِي وَتَرْبِيَّتِي وَمَدَى الْحَيَاةِ وَمَقُومَاتِهَا : لَكَانَ يَكْفِي ذَلِكَ لِأَعْيَدِهِ وَحَدِّهِ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ أَحَدًا .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله ؛ لالتفت مرة لنفك الإله ؛ ومرة أخرى للإله الآخر ؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريخ الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد .

ويأتى القرآن ليطمئن القلوب أيضاً وليذكر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ^(١) وَرَجُلًا سَلَمًا ^(٢) لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولا بُدَّ للعقل أن يعلم أن السيد الواحد أفضل من الأسىاد المتعددين ؛ لأن تعدد الأسىاد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه :
﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الانبياء]

والعاقل هو مَنْ لا يُسَلِّم نفسه إلا لسيد واحد يثق أنه أمين عليه ، ونحن فى حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أَرْضَى به ؛ وقد

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] . ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) المعنى : أن مَنْ وَحَّدَ الله مثله مَكُلَّ السانم لرجل لا يشركه فيه غيره . [لسان العرب - حاشية : سلم] .

وَكَلَّمْتَهُ فِي كَذَا ، وَلَا أَحَدٌ مِنَّا يُسَلِّمُ نَفْسَهُ إِلَّا لِمَنْ يَرَى أَنَّهُ أَمِينٌ عَلَى
هَذَا الْإِسْلَامِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا وَقَوِيًّا ، وَيَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيزِ
مَطْلُوبِهِ .

والرسول ﷺ في المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : إني
متوكل على الله ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوى الأمين
الحكيم ؛ والرسول لم يَقُلْ توكلت عليه ؛ ولكنه قال :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . (٢٠) ﴾ [الرعد]

والفارق بين الْقَوْلَيْنِ كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » فانت
تَقْصُرُ التَّوَكُّلَ عليه وحده ؛ ولكن إِنْ قُلْتَ : « توكلت عليه » . فانت
تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر مِمَّنْ يمكنك التوكل عليهم .
ولذلك نقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . (٥) ﴾ [الفاتحة]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه ؛ فلا تتعداه إلى غيره ؛
ولو أنها أُخِرَتْ لَجَازًا أن يعطف عليه . ويُقال في ذلك « اسم قصر »
أي : أن العبادة مَقْصُورَةٌ عليه ؛ وكذلك التوكل .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . (٣٠) ﴾ [الرعد]

أي : أننى لا آخذ أوامري من أحد غيره ومَرَجِىَ إليه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
 أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِّغَ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ
 آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
 حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

و (لو) حُرُفُ شَرْطٍ يُلْزَمُ لَهَا جَوَابٌ شَرْطٌ ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشرط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتَمِعِ . وإن كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتي من قول الله سبحانه : فهو كامل فيمن تكلم ، وقد تركها ليقظة المُسْتَمِعِ للقرآن الذي يبتدر المعاني ، ويتذكر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ^(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

[الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

(١) القارعة : الداهية تنجؤهم يكفرهم ويؤمنهم . ويقال : قرعه امر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبي ٢/٣٦٥٧] .

(٢) القُرطاس : الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [القاموس القويم ٢/١١٣] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿لَقَدْ مِّنَ أَنْزَالِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهَا قُرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا رَتَقُونَ كَثِيرًا ..﴾ [الأنعام] .

شَيْءٌ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات : فيكون المعنى : لو أن قرأنا سُيِّرَتْ به الجبال ، أو قُطِعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المَوْتَى لَمَا آمَنُوا .

وَيُرَوَّى أَنَّ بَعْضًا مِنْ مُشْرِكِي قَرِيْشٍ مِثْلَ : أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ جَلَسَا خَلْفَ الْكَعْبَةِ وَأَرْسَلَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : وَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَسَيِّرْ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ بِالْقُرْآنِ ، فَنَأْذِهَا عَنَّا حَتَّى تَنْفَسِحَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ ضَيْقَةٍ ، وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا عِيُونَ وَأَنْهَارًا ، حَتَّى نَفْرَسَ وَنَزْرَعَ ، فَلَسْتُ - كَمَا زَعَمْتَ - بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ دَاوُدَ حِينَ سَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ تَسِيرَ مَعَهُ ، وَسَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ فَتَرَكِيهَا إِلَى الشَّامِ نَقْضَى عَلَيْهَا مَيِّرَتَنَا وَحَوَائِجَنَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ مِنْ يَوْمِنَا ، فَقَدْ سَخَّرْتَ الرِّيحَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، وَلَسْتَ بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَأَحْيَى لَنَا قَصَبًا^(١) جَدَّكَ ، أَوْ مَنْ شِئْتَ أَنْتَ مِنْ مَوْتَانَا نَسْأَلُهُ ، أَحَقُّ مَا تَقُولُ أَنْتَ أَمْ بَاطِلٌ ؟ فَإِنْ عَيْسَى كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَلَسْتَ بِأَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ ، فَاَنْزِلِ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا قَبْلَهَا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ^(٢) .

(١) الغصب من العظام : كل عظم أجوف مستدير له مَخٌّ . [لسان العرب - مادة : قصب] .

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٣٦٥٥/٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد

وقنادة والضحاك . وانظر : اسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلککُون بها لِيَتَّعِدُوا عَنِ الْإِيمَانِ ؛
فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنس ما نَبَّأُوا فيه ؛ وجاء القرآن
يَحْمِلُ منهج السماء إلى أن تقوم الساعة .

وقد طلبوا أن تباعد جبال مكة ليكون الوادى فسيحاً ؛ ليزرعوا
ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : قَصْلُ بقعة عن بقعة ؛ وكان
هذا يحدث بِحَفْرِ جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصُر المسافةُ
بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أن يستريح كل فترة ؛
فالمسافر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض
أخرى ، وكلُّ يقطع الأرض على حَسَبِ قدرته ووسيلة المواصلات
التي يستخدمها .

فالمُتَرَفِّع يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض
والأخرى ؛ لأنه يملك الجياد التي يمكن أن يقطع بها المسافة
بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات
قريبة لِيَسْتَطِيعَ أن يستريح .

ونلاحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زادت الترف صارتُ
السيارات تقطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛
عكس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة
ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى مُتَصَفِّ الطريق .

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ ﴾ (١٩) [سبأ]

أى : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمتع المسافر القادر بالمناظر الطبيعية^(١) .

ولاحظنا أيضاً تماثلي المشركين من قريش في طلب المعجزات الخارقة : بأن طلبوا إحياء الموتى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى ۖ ﴾ (٣١) [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصي بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش : ليسألوه : أحق ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأت لمثل تلك الأمور : وحتى لو كان قد جاء بها لما آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز في أنه منهج خاتم صالح لكل عصر : وتلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعاً ۖ ﴾ (٣١) [الرعد]

وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شيء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدلُّ على مُتَعَدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسائل والمعجزات إنما يدلُّ على

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى طائفة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْبَرَكِيَّاتِ الَّتِي يَرْكَبُ فِيهَا طَائِفَةٌ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْعَ يَوْمٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٢) [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المياعدة بين أسفارهم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مَسْرَىٰ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ مَبْصُرٍ شَكُورٍ ﴾ (١٣) [سبأ] .

أَنْ كُلُّ أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الرِّسَالَاتِ إِنَّمَا صَدَرَ عَنِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ؛ وَهُوَ
الَّذِي اخْتَارَ كُلَّ مُعْجَزَةٍ لِقَنَاسِبِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَنْزِلُ فِيهِمُ الرِّسُولُ .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَيَّاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٣١)

[الرعد]

وكلمة « ييأس » يُقَالُ إنها هنا بمعنى « يعلم » ؛ فهي لغة بلهجة
قريش^(١) . أي : أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ لَمْ يَهْتَدُوا ؛ لِأَنَّ
اللَّهَ لَمْ يَشَأْ هِدَايَتَهُمْ .

وكان المؤمنون يؤمنون أَنَّ يَوْمَنَ صَنَادِيدُ قَرِيشٍ كَيَّ يَخْفُ الْجَهْدُ
عَنِ الْفِتْنَةِ الْمُسْلِمَةِ ؛ فَلَا يَضْطَهُدُوهُمْ ، وَلَا يَضَاقِبُونَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ
وَلَا فِي عِيَالِهِمْ .

ويوضح الحق سبحانه هنا أَنَّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مُرْتَبِطَةً بِرَغْبَةِ
الْمُؤْمِنِ مِنْ هَؤُلَاءِ ؛ بَلِ الْإِيمَانُ مَسْأَلَةٌ تَتَطَلَّبُ أَنْ يُخْرِجَ الْإِنْسَانُ مَا فِي
قَلْبِهِ مِنْ عَقِيدَةٍ ، وَيَنْتَظِرَ إِلَى الْقَضَايَا بِتَجَرُّدٍ ، وَمَا يَقْتَنِعُ بِهِ يُدْخِلُهُ فِي
قَلْبِهِ .

وبذلك يمتلئ الوعاء العقدي بما يفيد ؛ كَيَّ لَا تَدْخُلَ فِي قَلْبِكَ
عَقِيدَةٌ ، وَتَأْتِيَ عَقِيدَةٌ أُخْرَى تَطْرُدُ الْعَقِيدَةَ ، أَوْ تُزَيِّغُ قَلْبَكَ عَمَّا تَعْتَقِدُ ،
يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ ﴾ (٤)

[الاحزاب]

فالوعاء القلبي كالوعاء المادي تماماً ؛ لَا يَقْبَلُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ

(١) قيل : هي لغة هرازين . أي : أفلم يعلموا . وحكاية القشيري عن ابن عباس . ذكره القرطبي
في تفسيره (٢٦٥٦/٥) .

جِرْمًا أَبَدًا ، فَإِنْ دَخَلَ جِرْمٌ عَلَى جِرْمٍ ؛ إِنْ كَانَ أَقْوَى فَهُوَ يَطْرُدُ مِنَ الْقَلْبِ الْأَدْنَى مِنْهُ .

والمثلُّ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً من آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أن يضع فيه كرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماء يفيضُ من حوافِّ الإناء بما يُوازِي حجمَ كرة الحديد ، وهذا ما يحدث في الإناء المادي ، وكذلك الحال في الإناء العقديّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

« لَا يَجْتَمِعُ حَيٌّ وَحُبُّ الدُّنْيَا فِي قَلْبٍ » ^(١) .

وهكذا نرى أن هناك حيِّزاً للمعاني أيضاً مثلما يوجد حيِّزٌ للمادة ، فإذا كنتَ تريد - حقيقةً - أن تُدخلَ المعاني العقديّة الصحيحة في قلبك ؛ فلا بدُّ لك من أن تطردَ أولاً المعاني المناقضة من حيِّز القلب ، ثم ابحثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أيٍّ من المعنيين ؛ وما تجده قويُّ الدليل ؛ صحيح المنطق ؛ موفور القوة والحُجّة ؛ فأدخله في قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تمادوا في الغيِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصِرْ على المُعتنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

(١) أورد أبو حامد الغزالي في الإحياء (٢٠٨/٢) أثراً توضّح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة في قلب عبد ، قال : « قال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كَانَ قَلْبُهُ مَشْغُولًا بِالْعَقِيدَةِ السَّابِقَةِ ؛ وَيُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَ
الْعَقِيدَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي قَلْبِهِ ؛ فَهُوَ لَمْ يَنْجَحْ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَن قَلْبَهُ مَشْغُولٌ
بِالْعَقِيدَةِ الْقَدِيمَةِ .

وَإِذَا كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا ؛ فَلَا يَدُ أَنْ
يَعْتَمِدَ ذَلِكَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ ، وَأَنْ يُخْرِجُوا مِنْ قُلُوبِهِمُ الْعَقِيدَةَ الْفَاسِدَةَ ؛
وَأَنْ يَبْحِثُوا عَنِ الْأَصَحِّ وَالْأَفْضَلِ بَيْنَ الْعَقِيدَتَيْنِ .

وَلِذَلِكَ يَعْلَمُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ كَيْفَ نَصِلُ إِلَى الْحَقَائِقِ بِسَهُولَةٍ ،
فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا مَا
بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ^(١) .. (١٦)﴾ [سبا]

أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَفَرَ بِكَ ؛ إِنِّي أَعْظَمُكُمْ عِظَةً ، وَأَنْتَ لَا تَعِظُ
إِلَّا مَنْ تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِّ ؛ وَهَذَا يُفَسِّرُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٢) حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٧)﴾ [التوبة]

وَلِهَذَا يُرِيدُ ﷺ أَنْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؛ لِذَلِكَ يَدْعُوَكُمْ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ؛
لَا لِجَاهٍ أَحَدٍ غَيْرِهِ ؛ لِأَن جَاهَ أَيِّ كَاتِنٍ سَيَزُولُ مَهْمًا كَانَ هَذَا الْوَاحِدُ ،
وَلَا تَقُولَنَّ لِنَفْسِكَ ؛ إِنَّ الْعَبِيدَ سَيَسْأَلُونَنِي .

بَلْ قُمْ لِلَّهِ إِمَّا مِثْلَى خِزْفٍ أَوْ تَكُونُ قَائِمًا وَمَعَكَ آخِرُ ؛ أَوْ يَقُومُ غَيْرُكَ

(١) الحجة : الجنون .

(٢) العنت : المشقة . واعتته : أوقعه في العنت وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه : ولا يتحيز أحد منكم لفكر مُسبق بل يُوجّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذي جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتمدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أى منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضم إليهما ثالث : فكل واحد يريد أن يعتز برأيه : ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة : ويرفض لنفسه احتمال أن يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ ۝ (٤٦) ﴾ [سبا]

و « الجِنَّة » هى اختلال العقل : أى : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخلق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقال : فلان على خلق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجادة من الفضائل : مثل الصدق والأمانة : وهذه صفات يُنظمها فى مواقفها الفكر العقلى : وهو الذى يُميّز لنا أى المواقف تحتاج إلى شِدَّة : أو لِين : أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتبها العقل .

والخُلُقُ الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار
بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن ييحثوا ؛ هل محمد يعانى من
جَنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقَدِّمًا أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتع
بكمال الخُلُق ؛ بدليل أن أهم ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه
رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين فى أمر بناء
الكعبة ؛ ارتضوه حَكَمًا ^(١) .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ هَـوَ الَّذِى يَرْفَعُ الدُّرُجَاتِ مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُسْطَرُّونَ (١) مَا أَنْتَ بِمُحْجُونٍ (٢) ﴾

[القم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكن الله
ليهديهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدنى استعداد للهداية ؛ وكانهم
أدمنوا الكفر والعيان بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفرًا ؛

(١) كان عمر رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة . أى : قبل البعثة بخمس سنين .
وذلك أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من بضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى
أنهم أعدوا للقتال . ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا . فأشار أبو أمية بن
المغيرة عليهم بأن يُحكّموا أول داخل عليهم من باب بئى شيبه . فكان أول من دخل عليهم
رسول الله ﷺ . فلما رآه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » فقال ﷺ : « هلم
إلى ثوبى » فأتى به . فأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من
الثوب . ثم أرفعوه جميعاً . ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه . وضعه هو بيده . ثم بنى
عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٦/١ ، ١٩٧) .

فَمَا فِي تِلْكَ الْقُلُوبِ مِنْ كُفْرٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا ؛ وَمَا بِخَارِجِهَا لَا يَدْخُلُ فِيهَا .

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ كُفْرَ هَؤُلَاءِ قَدْ يُشْقِي الْمُؤْمِنِينَ بِزِيَادَةِ الْعَثَّةِ مِنَ الْكَافِرِينَ ضِدَّهُمْ ؛ لِذَلِكَ يُوَضِّحُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّ نَصْرَهُ قَرِيبٌ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٢١)﴾ [الرعد]

أَي : اظْمَنُّوا يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ ؛ فَلَنْ يَظْلُ حَالُ أَهْلِ الْكُفْرِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ؛ بَلْ سَتُصِيبُهُمُ الْكَوَارِثُ وَهُمْ فِي أَمَلِكَنَّهُمْ ، وَسَيُشَاهِدُونَ بِأَعْيُنِهِمْ كَيْفَ يَنْتَشِرُ الْإِيمَانُ فِي الْمَوَاقِعِ الَّتِي يَسُودُونَهَا ؛ وَتَتَسَّعُ رَقْعَةُ أَرْضِ الْإِيمَانِ ، وَتَضِيقُ رَقْعَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ ؛ ثُمَّ يَأْتِي نَصْرُ اللَّهِ . وَقَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » .

وَهَكَذَا تَنْبِأُ الْآيَةُ بِمَجِيءِ الْأَمَلِ بَعْدَ الْيَأْسِ ، كَيْ لَا يَظْلُ الْيَأْسُ مُسَيِّطَرًا عَلَى حَرَكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى نَفُوسِهِمْ ، وَأَسْتَجَابَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِدَعْوَتِهِ ﷺ حِينَ دَعَاهُ قَائِلًا : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِينَ يُوسِفُ » ^(١) .

وَقُتِلَ صِنَادِيذُهُمْ وَاحِدًا وَرَاءَ الْآخَرِ ؛ وَلَكِنْ عِنَادُهُمْ اسْتَمَرَ ؛ وَبَلَغَ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ اشْدُدْ رِطَاتِكَ عَلَى مُضِرِّ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سَنِينَ كَسَنِينَ يُوسِفُ » . الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١٠٠٦) ، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٤٧٠/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدَّ أَنْ ابْتَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَتَا مُتَزَوِّجَتَيْنِ مِنْ ابْنِي أَبِي لَهَبٍ : فَلَمَّا أَعْلَنَ النَّبِيُّ ﷺ رِسَالَتَهُ : قَالَ أَبُو لَهَبٍ وَزَوْجَتُهُ : لَا بَدَّ أَنْ يُطْلَقَ ابْنَاؤُنَا بَنَاتِ مُحَمَّدٍ : فَلَمَّا طَلَّقَ أَوْلَهُمَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاتِلًا : « أَمَا إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَسْلُطَ عَلَيْهِ كُلُّيهِ »^(١).

وَمَا هُوَ أَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ يَقُولُ : « لَا تَزَالُ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ عَلَى ابْنِي تَشْغُلُ بَالِي وَتُثْقِلُنِي ، وَاضْأَفَ أَنْ أَبْعَثَ بَوْلَدِي إِلَى رَحْلَةِ الشَّامِ كَيْ لَا تَسْتَجِيبَ السَّمَاءُ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ » .

وَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَلَّا يَخَافَ ، وَجَاءَ مِيعَادُ السَّفَرِ لِقَافِلَةِ الشَّامِ . وَسَافَرَ أَبُو لَهَبٍ مَعَ وَلَدَيْهِ ، وَحِينَ جَاءَ مِيعَادُ النُّومِ أَمَرَ أَبُو لَهَبٍ الرِّجَالَ أَنْ يَقِيمُوا سِيَاحًا حَوْلَ وَلَدَيْهِ . وَكَانَ الرِّجَالُ حَوْلَهُ كَخَطِّ بَارْلِيْفِ الَّذِي بَنَتْهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى قَنَاةِ السُّوَيْسِ لِيَمْنَعَ عَنْهَا صَيْحَةُ النَّصْرِ الَّتِي حَمَلَتْ صَرْخَةُ اللَّهِ أَكْبَرَ . ثُمَّ أَصْبَحَ الصَّبِيحُ فَوَجَدُوا أَنْ وَحْشًا قَدْ نَهَشَ ابْنَ أَبِي لَهَبٍ .

وَقَالَ النَّاسُ : كَانَ أَبُو لَهَبٍ يَخْشَى دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ : وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ . فَقَالَ وَاحِدٌ : وَلَكِنْ مُحَمَّدًا دَعَا أَنْ يَنْهَشَهُ كُلُّبٌ وَقَالَ لَهُ « أَكَلَكْ كُلْبٌ مِنْ كِلَابِ اللَّهِ » وَلَمْ يَقُلْ فَلْيَنْهَشْكَ سَبْعٌ^(٢) ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مَنْ

(١) أَخْرَجَهُ السَّيْهَقِيُّ فِي دَلَالَةِ النُّبُوَّةِ (٢٢٨/٢) ، وَأَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٩/٦) وَعِزَّاهَ لِلطَّبْرَانِيِّ مَرْسَلًا وَقَالَ : فِيهِ زُهَيْرُ بْنُ الْعَلَاءِ ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٥٢٩/٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَقْرِبٍ وَصَحَّحَهُ . وَحَسَنَهُ ابْنُ حَبَرٍ فِي الْفَتْحِ (٢٩/٤) .

(٢) الْكَلْبُ : كُلُّ سَبْعٍ عَفُورٍ ، وَمِنْهُ الْأَسَدُ . قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : غَلَبَ الْكَلْبُ عَلَى هَذَا النَّوْعِ النَّاسِجِ . وَقَدْ يَكُونُ التَّكْلِيْبُ وَاقِعًا عَلَى الْفَهْدِ وَسَبَّاحِ الطَّيْرِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : كَلْبٌ] . وَانْتَظِرْ فَتْحَ الْبَارِي (٢٩/٤) .

سمعه : وهل إذا نُسبَ كلب الله ا يكون كلباً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دُقَّتْ القارعة بيت الرجل الذي أصرَّ على الكفر ، وتحقق قول الله :

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّنْ دَارِهِمْ ۖ (٣١)﴾ [الرعد]

نعم ، فهم قد أسرفوا في الكُفْر والعِناد ؛ فجاءتهم القارعة ؛ والقارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف على هادئ ساكن ، ومنها نأخذ قرع الباب ، وهناك فرق بين « نقر الباب » و « قرع الباب » .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّنْ دَارِهِمْ ۖ (٣١)﴾ [الرعد]

يُوضِّحه أمر صلح الحديبية الذي جاء بشاره للمسلمين ؛ فقد صار كفار قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتأتى القبائل أفواجا وهي تعلن إسلامها ؛ ويبلغ ذلك قريشا بأن الإسلام يواصل رَحْفَه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضا إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . . ﴾ (٢١) ﴿ [الرعد]

هو مجيء يوم القيامة الذي يحمل وَعْدُ الله بأن يحلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لمن قال لهم الحق سبحانه في أول هذه الآية :

﴿ أَقَلَّمْ يَأْسٍ . . ﴾ (٢١) ﴿ [الرعد]

ذلك أن الله لا يُخلف وعده ، وهو القائل في تدبيل هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ (٢١) ﴿ [الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعَدَ » عادة تأتي في الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتي غالباً في الشر .

والشاعر يقول :

وَأَتَى إِذَا أَوْعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ لَمُنْجِزٌ مِيعَادِي وَمُخْلِفٌ مَوْعِدِي

فالإيعاد دائماً يكون بشراً ؛ والوعد يعنى الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين - أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التي تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتي حول ديارهم ، وفى ذلك وَعْد يُصْبِرُ به سبحانه المؤمنين ؛ وهو فى نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٢١)﴾ [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حتماً : في كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان : وهي كقضية تختلف عن وَعْدٍ أو وَعِيدٍ البشر : لأن الإنسان قد يَعِدُ أو يتوَعَّد : لكن أغيار الحياة تُصيّبه : فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْدِ أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف : لأن وَعْدَهُ هو وَعْدٌ مُطلق : وهذا هو معنى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٢١)﴾ [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٢٢)﴾

ويقال « هَزَأَ بفلان » أى : سخر منه ، أما « أَسْتَهْزِئُ بفلان » أى : طَلَبُ من الغير أنْ يهزأَ بشخص معين ، وهذا عليه إثمُه وإثم مَنْ أوعزَ له بالسخرية من هذا الشخص .

(١) أملى له : اطلال له ووسّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٢/٢٢٦]
وأملى الله له : أمهله وطوّل له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بُرْسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۖ﴾ [الرعد]

أى : لست بدعماً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثل هو الحكم بن أبى العاص أبو مروان^(١) الذى كان يُقَدِّ مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يمشى كأنما يتحدر من صيب^(٢) ؛ وكان بصره دائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعتادين على تلك المشية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قَدَّ الحكم رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ عَلَىٰ هَذَا »^(٣) ، فصارت مشيته عاهة ، بينما كانت مشية رسول الله تطامنا إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفى رسول الله ﷺ الحكم إلى الطائف ؛ وراح يرعى الغنم

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة ، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٢٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٢٨ ، ٢٩] .

(٢) عن على بن رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط عن صيب لم أر قبلك ولا بعده مثله ﷺ » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٦ ، ٩٧) والترمذى فى سننه (٢٦٢٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢/ ٢٨ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فيما زال يخطب حتى مات . قال العسقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النَّبِيُّ ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر في خلافته^(١) ؛
ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذي عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان
قريباً له^(٢) .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه
فقال لي : إن استطعت أن تعفو عنه قَاعْفُ ، وحين وُلِّيتُ امرأ
المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولَّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛
وكان لابنه الوليد خَيْلٌ تتنافس مع خَيْلِ أولاد يزيد بن معاوية ؛
واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعْرِقِلُ خَيْلَ الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتَمَ الوليدُ أبناءَ يزيد ؛ فذهب أولاد
يزيد إلى عبد الملك يشكُّون له ولده ؛ وكان الذي يشكو لا يتقن نطق
العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لَا تَقِيمُ لِسَانَكَ مِنَ
الْحَنِّ^(٣) ؟ فردَّ الذي يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتُني فصاحةُ
الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

(١) روى الطبراني من حديث حذيفة قال : لما ولي أبو بكر كَلَّمَ في الحكم أن يرده إلى المدينة
فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلاني في الإصابة
(٢٨/٣) .

(٢) ذكر ابن حجر في الإصابة (٢٨/٢) أنه عَفَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح
المنطق . وقال ابن بري وغيره : اللحن ستة معانٍ : الخطأ في الإعراب واللغة والفناء
والفطنة والتعريض والمعنى . [لسان العرب - مادة : لحن] .

لسان مَنْ يشكو : فكلاهما لا ينطق بِسَلَاسَةٍ ، ويكثر اللَحْنُ في النُّطْقِ بالعربية .

فقال عبد الملك : أَتُغَيِّرُنِي بِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِي الَّذِي لَا يُتَقَنَّ الْعَرَبِيَّةَ دُونَ لَحْنٍ ؟ إِنَّ أَخَاهُ خَالِدًا لَا يَلْحَنُ . وَتَبِعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : اسْكُتْ يَا هَذَا ، فَلَسْتُ فِي الْعَبْرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ .

وهذا مَثَلٌ نَقُولُهُ حَالِيًا ، وَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا عَبْرٌ قَرِيشِي : حَيْثُ كَانَتِ السُّلْطَةُ فِيهَا ذَاتَ مَصْدَرَيْنِ : مَصْدَرُ الْعَبْرِ : أَيْ : التَّجَارَةُ الَّتِي تَأْتِي مِنَ الْقَوَافِلِ عَبْرَ الشَّامِ وَقَائِدُهَا أَبُو سَفْيَانَ : وَالنَّفِيرُ : وَهُمْ الْقَوْمُ الَّذِينَ نَفَرُوا لِجُدَّةِ أَبِي سَفْيَانَ فِي مَوْقِعَةٍ بِدَرْ ، وَكَانَ يَقُودُهُمْ عَثْبَةٌ . فَقَالَ ابْنُ يَزِيدَ : وَمَنْ أَوْلَى بِالْعَبْرِ وَالنَّفِيرِ مِنِّي ؟ وَيَعْنِي أَنَّهُ حَفِيدُ أَبِي سَفْيَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَبِ : وَحَفِيدُ عَثْبَةٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْأُمِّ .

وَأَضَافَ : لَكِنْ لَوْ قُلْتُ شُؤْيَهَاتٍ وَعُثْيَمَاتٍ وَذَكَرْتُ الطَّائِفَ لَكُنْتُ عَلَى حَقٍّ : وَرَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ الَّذِي عَفَا عَنْ جَدِّكَ ، وَأَرْجِعْهُ مِنَ الْمَنَفَى .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر]

وَكَانَ أَيْ إِنْسَانٌ يَسْخَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِلَقَى عِقَابًا إلهيًا .

وَهُنَا يَقُولُ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٦) ﴾ [الرعد]

فأنت يا رسول الله لست بدعاً في الرسالة ، ولك أسوة في الرسالة ، والحق سبحانه يعذك هنا في مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه ترك العقوبة على الذنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والسئل هو أن تترك مخطئاً ارتكب هفوة : إلى أن يرتكب هفوة ثانية : ثم الثالثة ، ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر : فما بالنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الاعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مثلاً نجد مَنْ يصنع فحاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كان عقاباً صارماً : ولذلك يقول الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُرِيبَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

[المطففين]

إذن : فسوف يلقى الذين استهزءوا بالرسول العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا
عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٢)﴾

ولقائل أن يتساءل : ألم يكن من الواجب ما دام قد قال :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٢)﴾

[الرعد]

أن يأتي بالمقابل . ويقول : كمن ليس قائماً على كل نفس بما

كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذي يترك للعقل

(١) الفكه : كثير المزاج والاستهزاء بالآخرين . وقرنه تعالى : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

(٣١)﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتنذرون بهم . [القاموس القويم ٨٨/٢] .

ما يمكن أن يستنبطه : فيأتى بأشياء تتطلب التفكير والاستنباط ، كى
يتنبه الإنسان أنه يستقبل كلام رب حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .
ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « ثُورُوا^(١) القرآن » أى :
أثيروه ، كى تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعنى أنه هو الذى يديره
ويُدبره ، ولا تخفى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة
القيام : كى نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل
يدبره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خفى .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتُ إن خيراً فخير ؛ وإن
شراً فشر ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً
ولا نفعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أن يساوى بين الذى يقوم على أمر كل
نفس ، بغيره ممن ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ ۞ (٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم
على أمر نفسه ؛ وبالتالي لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصابُ
الصنم من هؤلاء بشرخ ؛ فيأتى مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره
صارخين بأن إلههم قد اشترخ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيتته ،

(١) تلوين القرآن : قراءته ومناقشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينقُر عنه ويُفكر
فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب - مادة : ثور] .

فَكَيْفَ يُسَوُّونَ ذَلِكَ الصَّدَمَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا يَحْدُهُ شَيْءٌ وَلَا يَحُدُّ قُدْرَتَهُ شَيْءٌ ؟

وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ... ﴾ (٢٣) [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ، فسبحانه ليس كهذه الاصنام العاجزة : لأنه سبحانه قائم على كل نفس : نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ .. ﴾ (٢٢) [الرعد]

وهذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قولوا أسماء من تعبدونهم من غير الله : وهى أحجار ، والأحجار لا أسماء لها : وهم قد سمَّوا الاصنام بأسماء كاللآت والعزَّى وهيك : وهى أسماء لم تُضَفْ لتلك الاصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شيء : ولو سمَّوها لُنُسِبَتْ لعَمْرُو بْنِ لُحَيٍّ ، الذى أوجدتهم^(١) : وهم سمَّوها ساعة أن نحثوها .

(١) قال ابن هشام فى السيرة النبوية (٧٧/١) : ، حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيٍّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى العمالق يعبدون الاصنام ، فقال لهم : ما هذه الاصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه اصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فننصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فاعطوه صنماً يقال له هَيْلٌ ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمَّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِبٌ في كَذِبٍ ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم في كونه الذي أوجده من عدم ؟

سبحاته يعلم كل ما خلق : وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول : أى : قول لا معنى له : لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطن لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفوا بالظاهر والمسمى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَضُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ.. (٢٢)﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهى ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذى يُلْقُوهُ فى الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أن يقع لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يُوَجِّلُ عذابه للأخرة ؛ لا بد أن يرى فى نفسه آية العذاب قبل أن يُلْقَى عذابه فى الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهى تُسنُّ لتُطبق على المنحرف ؛ وَمَنْ يَرْتَكِبِ الْجُرْمَ يخاف أن تقع

عليه العين : وإن رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه : وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (٨٤) سَبِيلًا (٨٥) فَاتَّبَعَ سَبِيلًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ (٨٦) وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَسْأَلُ الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

أى : أنه قد اخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر فى هؤلاء الناس ، فسأقامه على أساس من الثواب والعقاب : فمَنْ أَحْسَنَ فَلَهُ الْجِزَاءُ الْحَسَنُ : وَمَنْ أَسَاءَ يَلْقَى الْعِقَابَ ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بطش مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ هَلْ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ (٢٤) وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢٤) ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ فى الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والكوارث التى لا يقدرُونَ عليها ، وفَوْقَ

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يُتَرَصَّلُ بِهِ (إلى شىء) - [القاموس القويم ٢٩٩/١] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٢/٢) : ، أى : رأى الشمس على منظره تغرب فى البحر

المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه . .

ذلك لهم عذاب فى الآخرة أكثر شدة من عذاب الدنيا : فليس لهم من يحصيهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عصمة .

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا ظِلٌّ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

والمصدر الأساسى الذى وعد المتقين بالسجدة هنا هو الله ، وقد بلغ عنه الرسل - عليهم السلام - هذا الوعد ، وثلاثهم العلماء المُبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى^(١) الْإِنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا..﴾ (١٧) [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ..﴾ (١٦) [السجدة]

وهكذا تكون التوفية قد آلت إلى الله ؛ وآلت إلى ملك الموت ، وقد أخذ ملك الموت مسئولية التوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لملك الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يوكل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

(١) توفى الله فلاناً ، أو توفى الملك فلاناً ؛ أماته وقبض روحه . [الفاموس القويم ٢/ ٢٤٧] .

ومرة يأتي الحق سبحانه بالمصدر الأصلي الذي يُصدر الأمر
لملك الموت بمباشرة مهمته .

وهنا في الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿وَعَدَ الْمُتَّقُونَ . . (٣٥)﴾ [الرعد]

وهي مبنية لما لم يسم فاعله ؛ فالوعد منه سبحانه . ونعلم أن
الرسول ﷺ يعد أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ؛
حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خذ لنفسك ، فأخذ لنفسه
ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إن أدبنا هذا ؟ فقال لهم :
« لكم الجنة »^(١) .

وقد قال ﷺ ذلك ؛ لأن العمل الذي فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا
الجنة ، ومن المعقول أن أي واحد من الذين حضروا العقبة قد
يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بما
في الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذي يموت قبل هذا
لا بد أن يدرك شيئاً مما وعد الرسول من عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم
ما لا ينفد ، وهو الرعد بالجنة .

والحق سبحانه هنا - في الآية التي نحن بصدد خواصها عنها -
يقول :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ . . (٣٥)﴾ [الرعد]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤ ، ١٢٠) من حديث أبي مسعود البصري الانتصاري .
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨/٦) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٤٣٣/٢) .

أى : أنه يضرب لنا المثل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطبُ بها نحن قد وُضِعَتْ لِمَعَانٍ نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم نَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تَسْمَعْهَا أُذُنٌ ، ولم تَخْطُرْ عَلَى بَالِ بَشَرٍ ؛ فَمَنْ الْمُحْكِنُ أَنْ نَقُولَ : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدي معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من المَلذَّاتِ ؛ ولكن يأخذ منها المُكْدَرَاتِ والمُعْكَرَاتِ^(١) .

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمثل يعطينى صورة اسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلْحَقَ مجهولاً بمعلومٍ لتأخذَ منه الحكم .

مثلاً نقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذهن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجمله القرآن :

﴿ وَفِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ الْأَعْيُنُ .. ﴾ (٧١)

ويضيف ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(٢) .

(١) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. ﴾ (١٦) [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَيْفٍ مِنْ مَعِينٍ (١٧) يُشَاءُ لَهُ الشَّارِبِينَ (١٨) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَلُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٤/٥) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه .

وحين تُدَقُّ في هذا القول النبوي الكريم تجد الترقى كاملاً ؛
فقله : « ما لا أذن سمعت » جاء لأنه يعلم أن مُدْرَكَاتِ العَيْنِ
محدودة بالنسبة لما تعلم الأذن ؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه
العين ؛ فهي تسمع ما يراه غيرك بالإضافة إلى ما تراه أنت.

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم
تميزه ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ،
ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا فوق .

ثم يأتي الترقى الأكبر في قوله : « ولا خطر على قلب بشر » .
والخاطر أوسع من قدرة الأذن وقُدرة العين ؛ فالخاطر تتخيل أشياء
قد تكون غير موجودة .

وهكذا ترى عَجْزَ اللغة عن أن توجد بها ألفاظ تعبر عن معنى
ما هو موجود بالجنة ، ولا أحد فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة
بالجنة ، وما دام أحد منا لم ير الجنة ؛ وما دام الرسول ﷺ قال :
« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فلا بد أن نعلم قدر عَجْزِ اللغة عن التعبير عما في الجنة ، فإذا
أراد الله أن يعبر عما فيها ؛ فهو يوضح لنا بالمثل ؛ لا بالوصف ،
لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجود في حياتنا ؛ ولا توجد
ألفاظ في لغتنا تؤدي معاني ما في الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
مُصْفًى .. ﴾ (١٥)

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلّص المَثَل من شوائبه التي نعرفها في الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حَلْوَة ورائقة وصافية ؛ وإن ركدتْ فهي تأسن^(١) وتكون عَطْنَة .

ولذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن المياه في الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزرعاً من مياهها ما يُكدرها .

وكذلك المَثَل بأنهار من لبن لم يتغير طعمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهْمٌ يحلبون الماشية ، ويحتفظون باليانها في قَرَبٍ لِمُدَدٍ طويلة ؛ فيتغير طعم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المَثَل بوجود أنهار من لبن لم يتغير طعمه .

وأيضاً يضرب المَثَل بوجود أنهار من عسل مُصَفًى ، والعسل - كما نعرف - كان في الأصل يأتي من النحل الذي كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ورَضْعُه في مَنَاحِل في الحداثق .

والحق - سبحانه وتعالى - هو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾

[النحل]

وحيث بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسلٍ في العالم هو الذي كان موجوداً في الكهوف الجبلية ؛ ثم يليه في العمر العسل الذي جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التي أقامها

(١) أسن الماء : تغيّرت رائحته . والماء الأسن : هو الذي لا يشربه أحد من شقته . [لسان العرب - مادة : أسن] .

النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتي العسل الذي أقمنا نحن له
المناحل .

وقد ميّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا
بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر
الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن الجنة أنهاراً من عسل مُصْفًى ، وبذلك
يُقدِّم لنا خَيْرَ ما كنا نُحِبُّه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكثِّره .

ويوضح سبحانه أيضاً أن في الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها
خَمْرٌ تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهي لا تؤثر على التكوين العُضْوِي
للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول
يَكْوِي الفم ويلسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسْكُبها في فمه
لِتَمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها في فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة
فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو
البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فتجد
مَنْ يشربها يتمهل ليستبقى أثرها في فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ^(١) .. ﴾ (١٧)

[الصفات]

(١) الغَوْلُ : الصداق . وقيل : السكر . والقَوْلُ : أن تقول عقولهم . [لسان العرب - مادة -
غول] .

أي : أنه سبحانه ينفي عن خمر أنهار الجنة كل المكدرات التي توجد في خمر الدنيا .

إذن : فساعة تسمع مثلاً عن الجنة : فاعلم أنه مثل تقريبي : لأنه لا يمكن أن تأتي الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبر عنها : وهي لم توجد عندنا : وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة : لذلك يأتي لنا بالمثل المضروب لناخذ منه صورة تقريبية .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ﴾ [الرعد] (٣٥)
ونعلم أن عَصَبَ حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء : ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجر لهم الأنهار تفجيراً^(١) ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآني عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ﴾ [الرعد] (٣٥)

مثلاً قال في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها .

ومرة يقول سبحانه :

﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ﴾ [التوبة] (١٨)

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية في النص ، بمعنى أن :

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بَيْرَعًا ۝ ﴾ أو تكون لك جنة من ثغول وعجب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ۝ ﴾ [الاسراء] .

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٢٥) ﴿

[الرعد]

تُوضَّحُ أَنَّ مَنَابِعَ تِلْكَ الْأَنْهَارِ تَأْتِي مِنْ تَحْتِ تِلْكَ الْجَنَّةِ مُبَاشَرَةً :
فَلَا يَقِلُّ الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ أَبَدًا .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق في الأرض لها شواطئ تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهي تسير على الأرض دون شواطئ تحجزها^(١) .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً في الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكلُّ ذلك من صنعة ربِّ حكيم قادر .

أما قوله :

﴿ تَجْرَىٰ تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ۖ ۝١٠٠ ﴾ [النّرية]

أى : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتى دون
نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شيء .
ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة :

﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الرعد]

والأكل هو ما يُؤْكَل ، وسبحانه القائل :

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْتِيَنَّ رَيْبًا﴾ (٢٥)

(۱) اورد السجوطی فی هذا آثاراً فی کتابه ، الذی المنشور فی التفسیر بالمائور ، ۹۵/۱) منها :

- أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لعلمكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض ، حافتها خيام اللؤلؤ ، وطينتها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر ؟ قال : الذي لا خلط معه . »

وقوله : ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل : فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبع جُوعه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أن يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومن يحبون الطعام في حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأننى شبعْتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أن يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عظمى زلزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحد العلماء : وسألوه : يقول قرآنكم إن أكل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شيء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص : فكيف يكون أكل الجنة دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح ، وأشعله امامهم . وقال لكل منهم : قليات كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : قليات كل منكم مصباحه .

وهذا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟
قالوا : لا شيء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثل بأكل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى
اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المدد ، أما الجنة
فمددُها من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوّط فى الجنة ؟ فردّ عليه واحد من
العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى
بطن أمه : حيث يحترق هذا الفائض فى مَشِيمة^(١) الطفل ؛ والطفل فى
بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمدًا على غذاء يأتيه من أمه
عبر الحبل السرى .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبّر الفجوة بين ما نشهده فى
حياتنا اليومية ، وبين ما أعدّه الله للمتقين ، وهو القيوم على كُلِّ أمرٍ .
وقد قال الحق سبحانه :

﴿ أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . (٤٥) ﴾

[الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حجب
المضىء عن مكان : أو حجب مكان عن الماضىء ، ولا أحد يعلم أنه
ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيل ذلك ؛

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأعرابى . يُقال لما يكون فيه الولد
المشيمة والكيس والحَوْران والقميص . [لسان العرب - مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

[الفساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿وَعَلَى مَمْدُودٍ ﴿٢١﴾﴾

[الوافعة]

ويتابع سبحانه :

﴿تِلْكَ عَذَابُ الَّذِينَ اتَّخَفُوا وَعَذَابُ الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

[الرعد]

أى : يا متقى الله ؛ ووضعت بينك وبين صفات جلاله وقاية ،
ولم تقرب محارمه واتبعت منهجه ؛ ستجد انه سبحانه يُجازيك
بصفات كماله وجماله ؛ فيُنزلك الجنة التى وعدك بها .

لذلك إن وجدت مشقة فى التكليف فعليك أن تعلم أن جزء تلك
المشقة هو الجزء الجميل ؛ لأنك صدقت رسولك ﷺ حين قال :
« حُقَّتْ الجنة بالمكارة ؛ وحُقَّتْ النار بالشهوات » ^(١) .

والعاقل ساعة يرى تكليفاً يحدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزء
على تلك المشقة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٢/٢ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى
سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن
غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة : فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعضها .

وأي من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتي فجأة : لأن الموت لا ميعاد له : ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته »^(١) .

وهكذا يُضخِّمُ الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتَّقِي فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقَّ التكليف ليكون مَوْصُولًا بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبَى العمل الحسن في الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هي ألا يوجد بَعْدُ للغاية : لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهي تستحق أن تكون غاية المؤمن وعاقبة عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هي عاقبة الكافرين المُكذِّبين : حيث يروُنَ الخير مصير المؤمنين ؛ ويروُنَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التَّنْغِيصُ : مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعِدَّ لهم من شرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

[الرعد]

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتماحه : « أكثرُوا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنى كذَّره عليكم ، وإن ذكرتموه في ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمِنَ الْأَحْزَابِ^(١) مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُيْ أَدْعُوا وَإِلَٰهِي مَعَابٍ^(٢)﴾

ونعلم أن الإسلام قد سبق بدينين : دين النصارى قوم عيسى عليه السلام ، ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام ، وكلا الدينين له كتاب : الإنجيل كتاب المسيحية ، والتوراة كتاب اليهودية ؛ والقرآن هو كتاب الله المهيمن^(٣) الخاتم : كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم ؛ وزبور^(٤) داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمدد السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، قال تعالى :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٦٦٢/٥) : « يعنى مشركى مكة . ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحذرون على النبى ﷺ » . واطلقت « الأحزاب » فى القرآن على كل قوم تحذّبوا ضد رسولهم . وقد وردت فى القرآن ١١ مرة .

(٢) هيمن عليه هيمنة : كان رقيباً عليه ، حافظاً له ، مسيطراً عليه . [القاموس القويم ٢٠٨/٢] قال ابن كثير فى تفسيره (٦٥/٢) جمعاً بين عبارات المفسرين : « هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله . فهو أمين وشاهد يحاكم على كل كتاب قبله » .

(٣) الزبور : الكتاب المكتوب قال تعالى : ﴿وَأَنَّا دَاوُدَ زُيْرًا^(١)﴾ [النساء] . أى : كتاباً . وجميعه زُيْر . قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَبَّى زَبْرًا^(٢) الْأَوَّلِينَ^(٣)﴾ [الشعراء] . أى : كتبهم . [القاموس القويم ٢٨٢/١] .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي^(١) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [آل عمران]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كل دين سابق الدين الذي يليه بالإيمان به ؛ وفي كل دين سابق لأخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادم ، كي لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمن صميم مواد أي دين سابق أن ينتظر الدين الذي يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله قرعاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضَادُّ الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذي تُختم به مواكب الرُّسُل ؛ فلا بد أن الأديان السابقة عليه قد بَشُرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

يقول الحق سبحانه :

﴿مَنْعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وصىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنَّاهُمْ أَكُنَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلُ إِلَيْكَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد]

(١) الإصر : العهد الثقيل ، وما كان عن يمين وعهد فهو إصر . [لسان العرب - مادة : أصر] .

أى : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاءك يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشيء إلا إذا حقق له غاية تُسَعِّده ، ولا بُدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه حقق لهم ما جاء فى كتبهم من نبوءة به .

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقت ، ومن جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادِرِينَ إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هى العملية التعبيرية أو النُزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يَهْرُولُوا للإيمان بالدين الجديد ، وأن يعطنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار^(١) ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي الذى جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد امثلة لمن أرادوا أن يُعَبِّروا بالفرحة واستقبال مدد السماء عبر مجيء النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشرت به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بمقدم الرسول ، ثم غَيَّرُوا ما جاء فى كتبهم السماوية طمعاً فى السلطة الزمنية .

(١) هو : كعب بن مائض الحميرى أبو إسحاق . تابعى ، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم المدينة فى دولة عمر . أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الماضية ، سكن حمص وتوفى بها عام ٣٢ هـ عن ١٠٤ عاماً . (الاعلام للزركلى ٢٢٨/٥) .

وعرف مَنْ آمَنُوا برسالة رسول الله ﷺ أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دُلُّسُوا^(١) على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوا بأشياء لم تكن موجودة في كتبهم المُنزَّلة على رسلهم كادعائهم أن لله أبناء ، وسبحانه مُنَزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلُ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد]

تلك عدالة من القرآن : لأن القرآن لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، ولكنه أنكر التحريف في العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حَرَّفُوا وادَّعَوْا كذباً أن هناك نبوة لله .

هذا التحريف لم يَكُنْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ؛ ولكنه أنكر التحريف فقط .

وقد أثبت القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذي أرادوا به السلطة الزمنية ؛ وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الغفران ، وبيع الجنة . وتلقَّى الاعترافات ، وغير ذلك مما لم يَنْزَلْ به كتاب سماوى .

وحين جاء الإسلام لِيُحَرِّمَ ذلك دافعوا عن سلطتهم التي يتاجرون بها في أمور الدين ، وهي ليست من الدين .

(١) المدالسة : المخادعة . وقد دالَسَ ودلَّسَ فى البيع وفى كل شيء إذا لم يبين عيبه . والتدلَّيس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشتري . [لسان العرب - مادة : دلس] .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ .. ﴾ (٣٦) [الرعد]

وهذا القول دليل على أن هؤلاء الْمُتَعَيِّرِينَ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ أَوْ الَّذِينَ أَنْكَرُوا وَحْدَانِيَةَ اللَّهِ : هؤلاء جاء لهم بالقول الْفَصْلُ :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. ﴾ (٣٦) [الرعد]

أى : أنه يُقَرَّرُ بآن هناك ديناً قد أُخْتِيرَ لَهُ مِنْ قَبْلِ مُرَبِّ : ولم يُخْتَرُ مُحَمَّدٌ شَيْئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُفُ بِالْإِنْتِمَاءِ لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحداً .

ونجد الرسول ﷺ يتعصب لما يتعلق بربه : وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعض الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحي وبكل شيء ، لكننا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدْخِلُ ذَاتَهُ أَوْ أَنَانِيَتَهُ فِي الْأَمْرِ لَغَضِبَ ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن سواجيده ﷺ كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوى ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوى وهم الْفُرْسُ : وحزن ﷺ حين غلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبا النصر القادم فى بضْع سنين : تسلياً له ﷺ :

﴿ أَلَمْ (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَاقِلُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

وهؤلاء في قلب رسول الله كانوا أقرب من غيرهم ؛ لأنهم يتبعون ديننا سماوياً ؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّرهم الله بخير نصرهم في بضعة سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ .

ومعنى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ .. ﴾ (٣٦) [الرعد]

أى : أننى سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ؛ ويدعو لعبادته وحده ؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كلُّ إنسان ؛ فلا أحد يتفلسف من ربه وخالفه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يُعِدَّ عُدَّتَه لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٣٧)

والمقصود بـ « كذلك » إشارة إلى إرسال الرسل المتقدمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ .. ﴾ (٣٧) [الرعد]

ساعة نسمعه ترى أن هناك مكانة عليّة يُنزل منها شيئاً لمكانة

(١) الولي : النصير والناصر ، والمؤالة : ضد المعادة - والولي : ضد العدو . [لسان العرب - مادة : ولي] .

أَدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف في الحِسِّيَّات ، وهو معروف أيضاً في المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشيء لم يصل إلى السماء ؛ ولكنه في الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ^(١) شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وهو إنزال ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان في الأرض :

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧)﴾ [الرعد]

والحكم هو المَعْنَى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن . وهو كتاب ؛ والكتاب مَبْنَى وَمَعْنَى ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتي بوصف المبالغة ليأتي الوصف وكأنه الذات ، أى : أنه أنزل القرآن حُكْمًا ؛ وهذا يعنى أن القرآن فى حَدِّ ذاته حُكْمٌ .

وانت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل : لا تقول « قاض عايلٌ » بل تقول « قَاضٍ عَدْلٌ » أى : كان العدل قد تجسَّم فى القاضى ؛ وكان كُلُّ تكوينه عَدْلٌ .

والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحُكْمُ العدل ، ويصفه بأنه :

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧)﴾ [الرعد]

لأن اللسان الذى يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بأذانهم ما يقوله لهم لا بُدَّ أن يكون عربياً .

(١) البأس : الشدة والقوة والصلابة . [القاموس القويم ٤٢/١] .

ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ ^(١) لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافية : بينما نجد كل لغات العالم قد تشعبت إلى لهجات أولاً ، ثم استقلت كل لهجة فصارت لغة ، مثل اللغة اللاتينية التى خرجت منها أغلب لغات أوروبا المعاصرة من : إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « إنجليزية - إنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا ؛ و « إنجليزية - أمريكية » يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا - نحن - لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة فى مختلف بلادنا ؛ فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض - حين نتكلم - هو اللغة الفصحى .

ودليلنا ما رأينا فى مغربنا العربى ، فنجد إنساناً تربى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جمعا بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب : لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٤) : « معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه . وقيل معناه : أى التذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سوامهم » .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربي .

ومن ضمن معاني قول الحق سبحانه :

﴿ حَكْمًا عَرَبِيًّا .. ﴾ (٢٧)

[الرعد]

اى : أن الذى يصنُون ويعصِم هذا اللسان العربى هو القرآن الكريم .
ويتابع سبحانه بقوله :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ^(١) بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٢٧)

[الرعد]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله ﷺ يكشف فيه الحق سبحانه أمام رسوله ﷺ مضاراً وخطورة اتباع الهوى ؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذى نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله ؛ لم يَعدْ كما كان على عهد الرسولين السابقين ؛ بل تدخل فيه الهوى ؛ ولم يَعدْ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١)

[المؤمنون]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَضَاع نظام الكون ؛ ألم يقولوا لرسول الله ﷺ :

(١) الهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه . جمعه أهواء . [لسان العرب - مادة : هوا] .

سُورَةُ الْبُرُجَةِ

﴿٧٣٨﴾

﴿أَوْ نُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١)...﴾ (٩٦) [الإسراء]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إنّ : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعِلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلّغتهم ، وهو يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة في الدنيا والآخرة .

لذلك فليس لأحد أن يتبع هواه ؛ فالهوى - كما نعلم - يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب الموجه لرسول الله ﷺ يتضمن في طياته الخطاب لأمته ﷺ .

ومن يفعل ذلك فليس له من دون الله وليّ يؤزره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق ؛ شقاء في الدنيا ، وإلقاء في الجحيم في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِلرَّسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ
أَجَلٍ كِتَابٌ﴾

وانت يا محمد لست بدّعاء من الرسل في مسألة الزواج والإنجاب^(٢) . وهي تحمل الرد على من قالوا :

(١) كِسْفًا : فطماً . وهو جمع كسفة . وقال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء . [تفسير القرطبي ٤٠٥٩/٥] .

(٢) ذكر النيسابوري في « أسباب النزول » (ص ١٥٨) أن الكلبي قال : « غيرت اليهود رسول الله ﷺ وفالت : ما نرى لهذا الرجل - يقصدون محمداً ﷺ - همه إلا النساء والذكاح . ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء » فانزل الله تعالى هذه الآية . .

﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾^(١) . . . (٧) [الفرقان]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالي ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبة - كمثال واضح - من حياة الناس الذين أرسل إليهم : ليكون أسوة لهم ؛ فالأسوة تتأتى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر في إطارها العام : كإب وزوج ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرغ التام للعبادة من : صوم وصلاة وزهد عن النساء ، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال في حديث شريف :

« إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سننّي فليس منّي »^(٢) .

(١) وقد ردّ عليهم رب العزة فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ [الفرقان] ويقول في آية أخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ (٥) [الأنبياء] .

(٢) عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً . وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعزل النساء فلا أتزوج . فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله... » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥١ - فتح الباري) .

ويذابح الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٢٨)

[الرعد]

أى : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التى تأتى مع أى رسول من الرسل ، ولم يكن لأى رسول حق فى اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات من الرسول ﷺ : لأن كل رسول جاء لزمته ولقومه : وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدى ما يكلفه به الله : وليس للرسول أن يقترح على الله آية ما : لأن الخالق الأعلى هو الأعلم بما يصلح فى هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق :

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٢٨)

[الرعد]

أن لكل رسالة رسولاها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمداً ﷺ وما اختاره الله له : فى المكان الذى شاء سبحانه ، وفى الزمان : وفى المعجزة المصاحبة له ﷺ .

ولكن ، هناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه :

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٢٨)

[الرعد]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢٩)

والمَحْوُ كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أى : أن يُبقى الحق ما يراه ثابتاً .

وقد فهم بعض الناس - خطأ - أن كل حُكْم فى القرآن قد جاء ليُثَبَّتَ وسيظل هكذا أبداً الدهر ؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضى تغييرها بغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .

ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرَحْلِيَّة ؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢٩)

[الرعد]

أى : عنده اللوح المحفوظ الذى تحدَّدت فيه الأحكام التى لها مُدَّة مُحدَّدة ؛ وما أن تنتهى إلا وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَسْخ أن يُزَحْزَحَ حُكْمٌ عن زمانه ، وهنا لم نجد حُكْمًا يستزحزح عن زمانه ؛ لأن كل حُكْم موقوتٌ بوقت محدود ؛ وما أن ينستهِى الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كى أنبئ العلماء إلى ضرورة أن يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء : أهناك نَسْخٌ أم لا ، وأقول : فلنُحدد النَسْخَ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد الله منها .

ولا يوجد حُكْم أنهى حُكْمًا وطراً عليه ساعة الإنهاء ؛ بل كل

الأحكام كانت مُقَدَّرَةٌ أَرْلَا ؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخٌ لَأَيِّ حُكْمٍ ،
ولكن هناك أحكام ينتهى وقتها الذى قدره الله لها ؛ ويأتى حُكْمٌ سبق
تقديره أَرْلَا ليواصل الناسُ الأخذ به ؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد
نسخ .

ولنتنظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا^(١) نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا .. ﴾ [البقرة]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتى الله
بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدي
مهمتها فى زمن ثم يأتى زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله فى
الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسله مع مراد الله .

ولقائل أن يقول : ما دام سيأتى بخير من الآية المنسوخة أو
المُنْسَاة فذلك أفضل ، ولكن لماذا يأتى بِالمِثْلِ ؟

وأقول : لأنك إن جِئَ ما هو خَيْرٌ منها قد تَسْتَسِيغُهُ ، ولكن
حين ننتقل إلى مِثْلٍ ما جاءتْ به الآية ؛ فهذا مَحَكُّ الإِيمانِ .

والمِثْلُ هو التوجُّه فى الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الدعوة ؛
ثم مَجِئُ الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ؛ فلا مشقَّة فى ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيمانى بالتكليف ، وهنا الانصياعُ
للحكم الذى يُنْزِلُهُ الله ، وهو حُكْمٌ مُقَدَّرٌ أَرْلَا ؛ وفى هذا اختبار لليقين

(١) نسا الشيء ينسؤه : أخره عن موعده . قال الجصاص فى « أحكام القرآن » (٧١/١) :
« أما : (أو ننسها) قيل : إنه من النسيان . ونسأها من التأخير . يقال : نسا الشيء
أخرته بأن يؤخرها فلا ينزلها وينزل بدلاً منها ما يقوم مقامها فى المصلحة أو يكون أصلها
للعباد منها » .

الإيمانى فى إدارة توجيه المُدبّر لهذا السير .

وكذلك فى الحج يأتى الرسول ﷺ لِيُقْبِلَ الحجر الأسود : ثم يرمج الحجر الذى يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أسوة برسول الله ﷺ ، وكلاهما حجر ، وَلَكِنَّا نَمُتِّلُ لأمره ﷺ . فتقبيل الحجر الأسود ورمج الحجر الذى يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر لأمر .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٢٩)﴾ [الرعد]

فهو يعنى أنه سبحانه يُنهِى زمن الحكم السابق الذى ينتهى زمنه فى أم الكتاب أى اللوح المحفوظ : ثم يأتى الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر : وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع : وكان المطلب الأول هو تثبيت العقيدة : ثم تجيء الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة - وهى الأصل - وبين الأحكام ، وهى تحمل أسلوب الالتزام العقديّ ، وكان الحكم فى أمر العقيدة مُكرّماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج فى تحريمها بما يتناسب مع إلف الناس : واعتيادهم : فقلّل الحق سبحانه زمن صُحبة الخمر : ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القُرْب منها .

والمثل فى حياتنا : حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿٧٢٨٧﴾

وهو يُوسِّعُ من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماما .

ونجد القرآن يقول في الخمر :

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا^(١) وَرِزْقًا حَسَنًا . . (٦٧)﴾ [النحل]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به : ولكن أهل الذُّوق يلتفتون إلى أنه لم يَصِفِ الخمر بأنها من الرزق الحسن : ووصف البلع والعنب بأنه رزق حسن ! لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده .

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتي لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزل الحق سبحانه عظة تقول :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . . (٢١٩)﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من مِيلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئي :

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . (٤٣)﴾ [النساء]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسى أحدٌ الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفي ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

(١) السُّكْرُ : بالفتح ، كل ما يسكر أي الخمر ، أو نقيع الثمر وعصير العنب الذي لم تسمسه النار . وهو غير مسكر . والسُّكْرُ هنا يحتمل أنه الخمر المسكر . ويحتمل أنه عصير حلو غير مسكر ، أو الخل ، وإذا فسِّرَ بأنه ما يسكر يكون نزول الآية للاعتناء بهذه النعمة قبل تحريم الخمر [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] .

ثم يأتى التحريم الكامل للخمير فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٠) ﴿

[المائدة]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمير تدرّجه المناسب لعادات الناس ، وتمّ تحريم الخمير بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا تفهم النسخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعنى أن الحكم الاول لم يكن مُنْسَحِباً على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقيت الحكم الأول - أزالاً - قد انتهى ؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المحو والإثبات إلى أم الكتاب ؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيته ؛ وميعاد مجيء الحكم التالى له .

وما دام كل امر مرسوم أزالاً ؛ فعلى مَنْ يقولون أن البداء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بداء ؛ لأن البداء يعنى أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فسادُه فتُغيّره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ؛ بل هو قدّر كل شيء أزالاً فى أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتاً وميلاداً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه :

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٢٩) ﴿

[الرعد]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ؛ فيكون قد محا شيئاً وأثبت

شيئاً آخر ، وكل شيء فيه تغيير إلى الخير يصح فيه المحو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨)

[ق]

أى : انه القادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأن يتركا الامور المباحة ، وهو القادر على أن يمحو ما يشاء من الذنوب ، ويثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٤٠)

هذه الآية تُحدّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يُبلّغ منهمج الله ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

جعل له هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر :

(١) أى : نزيهم بعض الذى تعدهم من العذاب . مثل قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ [الرعد] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَعْلِيهِمْ بِمَا صَنَعُوا فَارْعَا .. ﴾ [الرعد] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ^(١) نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ
أَمَّا^(٢) ﴾ (٦) ﴿ [الكهف]

أى : أنك لست مسئولا عن إيمانهم ، وعليك ألا تحزن إن لم
ينضموا إلى الموكب الإيماني ، وكل ما عليك أن تدعوهم وتبلغهم
ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذي سوف يحاسبهم إما في
الدنيا بالمحو والإذهاب ، أو في الآخرة بأن يلقوا عذاب النار .
وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّيْتُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

فتحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبر يوما بعد يوم ؛
ودعوات الشر تيهت يوما بعد يوم . ومن يدعو إلى الخير يحب
ويتشوق أن يرى ثمار دعوته وقد أينعت^(٣) ، ولكن الامر في بعض
دعوات الخير قد يحتاج وقتا يفوق عمر الداعي .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّيْتُكَ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

أى : اغرس الدعوة ، ودع من يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ،
وأنت حين تتفرغ للغرس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتي حين يشاء
الله ؛ سواء شاء ذلك إبان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرت إلى الدعوات التي تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

(١) باخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ٥٦/١] .

(٢) الأسف : هو الحزن مع القضب . والأسيف والأسوف : السريع الحزن الرفيق . والأسف :
الغضبان المثلث على الشيء . [لسان العرب - مادة : أسف] .

(٣) أينع الثمر : أدرك وتضج وحن قطافه . [القاموس القويم ٢٧٢/٢] .

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهلوا ليقطفوها مَنْ يأتى بعدهم لنجحت تلك الدعوات .

ونحن في الریف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غرسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟

فَمَنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات فى بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدى لِمَنْ يجىء ما أداه له مَنْ ذهب .

ونحن نأكل من ثَمَر زَرَعه لنا غيرنا مِمَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكروا فيمَنْ سيأتى من بعدهم ، وَمَنْ يفعل ذلك لَابَدٍّ وَأَنْ يكون عنده سعة فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفى نفسه فقط ؛ لذلك يزرع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سعة من الأرض وسعة فى النفس ؛ فهو مَنْ وضع فى قلبه مسئولية الاهتمام بِمَنْ سيأتون بعده . وَأَنْ يردَّ الجميل الذى أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره مِمَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد - عليه الصلاة والسلام - شهدت له بأنه لم ييحث لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهى تُقابل الصعاب تلُو الصعاب ، ويتلقى ﷺ ما تلقى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أن جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظَلَّتْ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت^(١)

(١) الإدالة : الخيبة . وأدالنا الله من عدونا : من الدولة . ويغال : أدبنا لنا على أعدائنا أى نصبرنا عليهم . [لسان العرب - مادة : دول] .

عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمت الجزيرة كلها لمنهج الله . وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقيصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم » .

ودللت هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هي دعوة مُمتدة لكل الناس ؛ تطبيقاً لما قاله الحق لرسوله ﷺ أنه : « رسول للناس كافة » . قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ ۞ (٢٨) ﴾ [سبا]

وفهم الناس الفارق بين رسالته ﷺ وبين كافة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ۞ (٢٩) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مدين :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ۞ (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن بعثة موسى :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۚ ۞ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا حدّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم في أيّ رسالة سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله للناس كافة ، فقد علم سبحانه أولاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكّام العالم - المعاصرين له - دعوة لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لِمَنْ يَخْلُقُونَهُ ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة .

كل قبيلة كانت لا تُلْزَم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تُلْزَم نفسها بتقنين القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْلٌ ، ولا استيطانٌ لهم إلا في بعض القرى ، ذلك أن أغلبهم من البدو الرحّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته - الخيمة - على ظهر بعيره ، ويمشي بحثاً عن الكلا والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطني ؛ فضلاً عن القبائل التي كانت تتقاتل فيما بينها في تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً في بعض الأحيان .

استطاع ﷺ أن يُوظّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَادٍ وعُدَّةٍ لِنُصْرَةِ دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياريه للسرايا^(١) كان يجد المقاتلين في كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجْر لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدْرَباً على القتال .

وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله ﷺ في وحدة التكامل العقدي تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ^(٢) رَسُولًا مِنْهُمْ .. ﴾ [الجمعة]

(١) السرايا : جمع سرية ، وهي القطعة من الجيش . ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة . سُميت سرية لأنها تُسْرَى ليلاً في خفية . [لسان العرب - مادة : سرا] .

(٢) الأميون : هم العرب . قال ابن منظور في اللسان (مادة : أمم) : « قيل للعرب الأميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب . فهم على جبلتهم الأولى » .

وكانت هذه الامية شرفاً لهم كَيْلاً يُقَال : إنهم أصحاب قَفْزَةٍ حضارية من أمة مُتَمَدِّينَةٍ . وكانت هذه الامية مُلْفَتَةً ، لأن ما جاء في تلك الامية من تشريعات وقفت أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الامية أن تحمل رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣)﴾
[المائدة]

فَهِم بعض الناس أن الرسول ﷺ يدعى نفسه لامته^(١) .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرقيق الأعلى أنساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان : جناح في الشرق ، وجناح في الغرب ، وهزم أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له : هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتخطف للإسلام كمنهيج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلام الامبراطوريتين في آن واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحققوا من معجزته التي لمسوها في خُلق مَنْ سمعوا القرآن وحملوا رسالته : ثم في اكتشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة .

(١) أخرج ابن جرير عن السدي في قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. (٣)﴾ [المائدة] . قال : « هذا نزل يوم عرفة » فلم ينزل بعدها حرام ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فبمات . . . أورده السيوطي في الدر المنثور (١٩/٢) .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية : وأن رسول الله ﷺ هو الرسول الخاتم الذي لم يأت لهم بمعجزة حسية ، وإذا كان القرآن معجزة في اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله ﷺ ؛ فالقرآن لمن لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة في العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يتدفعون إلى الإسلام بقوة دفع من المؤمنين به ، وبقوة جذب من غير المؤمنين ؛ حين يروون الأفرق بين الأمير وأصغر فرد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه :

﴿ سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ ^(١) وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . ﴾ (٥٣)

[فصلت]

ونجد مفكراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط في المبادئ التي قننتها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لما عجزت عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين في كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءت لرسول ينتمي لأمة لم تبرع إلا في البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعاني منها الدنيا كلها .

ورأينا كيف بحث رجل عن أعظم مائة في تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أولهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درس

(١) الأفاق : جميع أفق ، وهو الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض في رأي الحين .

[القاموس القويم ٢٢/١] .

آثار تطبيق القرآن ، ويعد أن يُعجب بالمنهج القرآني نجده يُعجب بالنص القرآني .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحس ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسان ببشرته بلمس ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لستويات ؛ كي يعرفوا مناطق الإحساس وموقعه في الإنسان ، هل هو في المخ أم أين ؛ إلى أن انتبهوا إلى أن مناطق الإحساس في كُلى إنسان هو في الجلد ، وأنها خلايا مُبسطة تحت الجلد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين تغرزها في جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط في منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفت ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال :

﴿ كَلَّمَا نَضَجَتْ ^(١) جُلُودُهُمْ بِدَلَنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقت ؛ فالعذاب سينتهي ؛ لذلك يُبدّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن .

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه في القانون ، ووجدهم

(١) قال ابن عمر في تفسير الآية : « إذا احترقت جلودهم بدلتهم جلوداً بيضاء أمثال القراطين » أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٦٨/٢) .

يففون عند قضية التعسف^(١) في استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية في القرن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم في تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان . وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندي في ساحة بيتي نخلة ، وهو يدخل بيتي كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة يدعوى تأبيرها^(٢) ؛ وأخرى يدعوى جنى ثمارها ، وثالثة يدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : « أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف : إما أن تهيب النخلة - وتلك منتهى الأريحية - ، وإما أن تبيعها له ، وإما قطعناها »^(٣) .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسف في استعمال الحق » .

وفي إنجلترا وجدوا أن القانون التجارى ملئ بالتفغات ، ومثال هذا أن التعامل في السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار ؛ فهذا يرسل لذاك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ؛ وفلان يرد ما أخذه أو يقايضه .

(١) التعسف : إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم روية أو إدراية .

(٢) أمر النخلة والزرع : أصلحه ، وتأبير النخل : تليفحه . [لسان العرب - مادة : أبر] .

(٣) عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لفلان نخلة في حائطي فمره فليبيعنها أو ليهبها لى قال : فأبى الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل ولك بها نخلة في الجنة فأبى فقال النبي ﷺ : « هذا أبخل الناس » .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التي عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقرض من زميل له : فهو يكتب الدَّيْن في كسبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّيْن .

ولكن الأمر اليومي في السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق في قدرته على الرد والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك انشأوا ما يُسمى بالدَّيْن التجاري ، فيفتحون « دفترًا » يُسجلون فيه الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعته دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدَّيْن أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية في القرآن هي الآية التي تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ ^(١) مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ^(٢) أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ

(١) البخس : التقص . يقول تعالى : ﴿ وَنَزَرَهُ بِمَنْ يَخْرُ . . . ﴾ [يوسف] أي : ناقص دون ثمنه . [لسان العرب - مادة : بخس] .

(٢) السفية : الناقص العقل المسيء التصرف . [القاموس القويم : ٢١٧/١] . وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٥/١) : ، أي محجوراً عليه بتبذير ونحوه . .

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ^(١) إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا^(٢) أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ^(٣) أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ رِيعِلَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة]

وظاهر الامر انه يحصى الدائن ، ولكن الحقيقة انه يحصى المدين
ايضا : لان المدين إن علم أنَّ الدَّيْنَ مُوثَّقٌ ؛ فهو سيسعى جاهداً أن
يؤديه في موعده ، وايضاً كي لا يأخذ النصابون فرصة للهرب من
السداد ، وبذلك حمى القرآن الدائن والمدين معاً كي لا تقف حركة
التعامل بين الناس .

ومع هذا فإنه لم يمنع الأرباحية الإيمانية والمروعة أن تسلك
طريقها في عالم الود والإخاء المؤمن : فإن كان لك قريب أو إنسان
لك به صلة ، وأنت تامله على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق
سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. ﴾ ﴿٢٨٣﴾ [البقرة]

- (١) الضلال : التسيان . [لسان العرب - مادة : ضلل] .
(٢) سئم الشيء : مله وضجر منه وأحس بغثور نحوه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ .. ﴾ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة] .
(٣) الجناح : الإثم والذنب . قال تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا .. ﴾ ﴿١٥٥﴾ [البقرة] اي :
لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والاجر العظيم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل ؛ فيعمل على رَدِّها . ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا .. (٢٤٢)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أُمِّيَّة ؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهى قوانين تنبع من دين سماوى خاتم . ولذلك عندما سألونى عن موقف الإسلام من التقديمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطيء ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فكر بشر بما أنزله رَبُّ كل البشر . وإذا كان العالم بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ يَهْتَدِى إلى أى خير تَتَنظَّم به حياته ؛ ويجد جذوراً لذلك الخير فى الإسلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل فى الشيوعية التى قامت ثورتها الدموية فى عام ١٩١٧ ؛ وقالوا : إنها مُقَدِّمَةٌ للشيوعية ؛ وسقطت الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسى بالتَّيُّس والجُمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعى .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهى تُهْدَب من شراستها ؛ وتعطى العامل حَقَّه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التى دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَلِ عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿٧٤﴾

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله ﷺ إن آذاه أحدٌ في المنهج الذي جاء به ؛ لأنه ﷺ لم يكن ليأيه بمن يحاول أن يؤذيه في شخصه ، وكان ﷺ لا يفضي لنفسه ؛ ولكن إن تعرض أحد للمنهج فغضبه ﷺ يظهر جليا .

ومن وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول ﷺ بالدعوة ؛ فمن آمن منهم نال حلاوة الإيمان ؛ ومن لم يؤمن فقد توالى عليه المصائب من كل جانب ، منهم من رأى النبي ﷺ مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿فَأَمَّا نَذَبْنِ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢)﴾
[الزخرف]

أى ؛ أنه جلّ وعلا إما أن يلحق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رأى العين^(١) .

وكان هذا القول هو الذى يشرح قوله سبحانه هذا :

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (١٠)﴾
[الرعد]

وعذاب الدنيا - كما تؤمن - مهما بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٤) : « لم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيمهم (حصونهم) . هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير » .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَلَّهِ يَحْكُمُ
لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

و « يَرَوْا » هنا بمعنى « يعلموا » ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن « يروا » تعنى أنهم قد علموا ما جاء بالآية علم مشهود ورؤية واضحة ، وليس مع العين آين .

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث فى الماضى أو سيحدث فى المستقبل ؛ ووجدنا فيه فعل الرؤية ؛ فهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مشهود ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عيتك .

وسبق^(١) أن قال الحق سبحانه لرسوله :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد وُلِدَ فى عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صدق ما جاء به القول الحق وكأنه رؤيا مشهدية .

وقال الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا . . . ﴿٤٥﴾﴾

[الفرقان]

(١) قول فضيلة الشيخ هنا « سبق » هو باعتبار زمان ومكان نزول سورتي الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبهما فى المصحف ، فسورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهى مدنية ، (ع) .

وحين يُعَبِّرُ القرآن عن أمر غيبي يأتي بفعل « يرى » مثل قوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا^(١) رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. ﴾ [السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ .. ﴾ [٤٤] [الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾ [٤١] [الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب في أن نَعْرِفَ الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التي نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حدثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴾ [٨١] [القصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ [٥٥] [النور]

(١) نَكَسَ رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم : ٢٨٦/٢] .

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. ﴾ (٧٣) [الأعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بقعة لها حدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ : فهي تعنى كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ^(١) ﴾ (١٠) [الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ^(٢) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. ﴾ (١٤) [الإسراء]

مع أنه قد قال لهم فى آية أخرى :

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. ﴾ (٢٦) [المائدة]

فبعد أن حَدَّدَ لهم الأرض بموقع معين عاد فإطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألا يكون لهم وَطَنٌ ، وَأَنْ يَظْلُوا مُبْعَثَرِينَ ، ذلك أنهم رفضوا دخول الموقع الذى سبق وَأَنْ حَدَّده لهم وقالوا :

﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا .. ﴾ (٢٤) [المائدة]

(١) الأنام : ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق - وقال المفسرون : هم الجن والإنس - [لسان العرب - مادة - أنم] .

(٢) أى : من بعد إغراق فرعون . المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر - ذكره القرطبي في تفسيره (٤٠٦٧/٥) .

ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ^(١) فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨)﴾ [الاعراف]

أى : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود في العالم : حيث يُوجَدُونَ في أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم : فلم يذوبوا في مجتمع ما .

وقوله الحق هنا :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا^(٢) مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر في كُلِّ يوم عن اليوم الآخر : ففي كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ في المدينة لِتَعْلِنَ إسلامها وتبایعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم في الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصت أرضُ الكفر ، وازدادت أرضُ الإيمان ، ورأوا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرَةً بما رَأَوْه أمام أعينهم

(١) قَطَعْنَاهُمْ : فرقناهم في الأرض أمما أى طوائف وفرقا . [لسان العرب - مادة : قطع] .

(٢) اخْتَلَفَ في النقصان هنا على أقران :

- قال ابن عباس : أو لم يروا أننا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض .

- وقال مجاهد وعكرمة : خرابها ونقصان الأنفس والثمرات .

- وقال ابن عباس ومجاهد في رواية : موت علمائها ونفهاؤها وأهل الخير منها .

قاله ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٢٠) ثم قال : ، والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام

على الشرك قربة بعد قربة . وهذا اختيار ابن جرير .

من أن الدعوة مُتَدَّة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا
بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزِيد رُقْعَة
الإيمان ! إلى أن جاء ما قال فيه الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْرَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلِصُونَ لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله
فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم تُكْتَشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل
المثال فور صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين
قال :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .. (٢٢) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ^(١) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن]

فهل يعنى ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة ربِّكم للنظواهر العلمية
بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

(١) الشواظ - بضم الشين وكسرها - : القطعة من الذهب ليس فيها دخان ، [القاموس القويم :
٢٦١/١] .

والارض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المتسع ،
فاين هو من النجم المسمى بالشَّعْرَى^(١) . أو بسلسلة الاجرام المُسَمَّاة
بالمرآة المُسَلَّسَة ؟ بل اين هو من المَجَرَّات التي تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التي تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة
سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين
القرآن ، فعليك أن تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذ بسلطان العلم
لما قال الحق سبحانه بعدما :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ..﴾ (٢٥) [الرحمن]

وإن سألت : وما فائدة الآية التي تحكى عن هذا السلطان : فهي
قد جاءت لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعد إلى السماء وعُرج به ،
أى : أنه صعد وعُرج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..﴾ (٤١) [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شيء طُولاً وَعَرْضاً تتحدد
به مساحته : وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أى
طول له طرفان ، وإن كان الشيء على شكل مساحى تكون أطرافه
بعدد الأضلاع .

وما دام الحق سبحانه يقول هنا :

(١) الشعري : نجم ثابت في السماء عُبد قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ
رَبُّ الشَّعَرَى﴾ [النجم] . [القاموس القويم : ٢٥٠/١] . وقال ابن عباس ومجاهد
وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوراق الذي يقال له « مرزم الجوزاء » [تفسير
ابن كثير ٢٥٩/٤] .

﴿ مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾

[الرعد]

أى : من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أن تضيق أرض الكفار ، وأن يوسع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحَدَّثَةٌ ، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ بِحُكْمِ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤٢) ﴾

[الرعد]

أى : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره .. ونحن فى حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى : لأن الرئيس الكبير قد عَقَّبَ على الحكم فيه » .

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عَقَّبَ على الحكم الابتدائى ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رَفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعَقَّبَ أحد عليه ؟

والمثلُ فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ^(١) إِذْ نَفَسَتْ ^(٢) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

(١) الحدث الذى نفست فيه الغنم إنما كان كرمًا (غنبا) فلم تدع فيه ورقة ولا عتفوداً من غنم (لا أكلته) . [تفسير ابن كثير : ١٨٦/٢] .

(٢) نفست الغنم : إذا نفست فرعت بالليل من غير علم راعيها . ولا يكون النفش إلا بالليل . [لسان العرب - مادة : نفش] .

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ..
﴿ ٧٩ ﴾ [الأنبياء]

وأصل الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغانم يملكها إنسان ؛
واقترحت الأغانم زراعة إنسان آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه
السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغانم أن يتنازل عنها لصاحب
الأرض .

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - جالسا يسمع أطراف
الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغانم أن يتنازل عن أغانمه
لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع
بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثل ما أكلت الأغانم من أرضه^(١) .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾ [الأنبياء]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طعن قاض فى
القاضى الأول ؛ لكنه بحثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إن أُعيدتُ
لنفس القاضى الأول لَحَكَمَ نفس الحكم الذى حكم به الاستئناف بعد
أن يستكشف كل الظروف التى أحاطت بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ .. ﴾ ﴿ ٨١ ﴾ [الرعد]

(١) انظر فى هذا تفسير ابن كثير (١٨٦/٢) . والدر المنثور للسيوطى (٦٤٥/٥) .

ولحظة أن يُصدر الله حُكْمًا ؛ فلن يأتى له استثناء ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾

[الرعد]

وكان هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستثناء ؛ ولا أحد يُعَقَّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعَقَّب يقتضى فيه أن يكون أيقظ من المُعَقَّب عليه ؛ وعنده قدرة التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضى الاول ، ولا يوجد قُيُوم إلا الله ، ولا أحد بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه .

وأفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففى واقعنا اليومى نجد مَنْ استصدر حُكْمًا يُعانى من المتاعب كى يُنفذه ؛ لأن الذى يُصدر الحكم يختلف عَنْ يُنفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذلك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوى على الإطلاق سواه ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾

[الرعد]

فكان الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى فى حياتنا اليومية ؛ كيف يُرْهَق مَنْ له حكم بحق عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الاحكام لَسَادَتُ الطمانينة قلوبَ افراد المجتمع .

ونحن نجد استشارة العصبيات فى الأخذ بالنار إنما يحدث بسبب

الإبطاء في نظر القضايا : حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات : مما يجعل الحقد يزداد . لكن لو تم تنفيذ الحكم فور معرفة القاتل ، وفي ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لما ازدادت عمليات النار ولهدأت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ (١٤) ﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأى سامع لهذا البلاغ يستقرئ موكب الرسالات السابقة : وسيجد أن كل أمة أرسل لها رسول مكرب به وكادت له كي تبطل دعواه ، ولم ينفع أى أمة أى مكر مكربته أو أى كيد كادته ، فكل الرسالات قد انتصرت .

فسبحانه القاتل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وهو القاتل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ
(١٧٢) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

(١) عقي الدار : أى عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعد . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٦٧٢/٥] .

والحق سبحانه حين يُورد حُكْمًا فبالقرآن ؛ وهو الذي حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتي أي قضية كونية لتنسخ الحكم القرآني .

وانت إذا استقرات مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كما أثبتتها الحق سبحانه في القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزته .

وبالفعل فقد مكرت كل أمة برسولها ؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ؛ ومكر الله خَيْرٌ للبشرية من مكر كل تلك الأمم ؛ ومكره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله ؛ فالأمر معك لا بُدَّ أن يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيب يأتي من بعدك .

وكل تلك الأمور كانت تطمئنه ﷺ ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسبحانه محيط بأي مكر يمكره أي كائن ؛ وهو جلٌ وعلا قادر على أن يُحيط كل ذلك .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَبِيَ الدَّارِ ﴾ (٤٢)

[الرعد]

والحق سبحانه يعلم ما يخفى عن الأعين في أعماق الكائنات ؛ خَيْرٌ هو أو شَرٌّ ، ويحمي مَنْ شاءَ من عباده من مكر الماكرين . ويُنزِلُ العقاب على أصحاب المكر السيئ بالرسول والمؤمنين .

ولسوف يعلم الكافرون أن مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التي يدخلونها في اليوم الآخر ؛ فضلاً عن نُصْرَةِ رسوله ﷺ في الدنيا وخزيهم فيها .

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿٧٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزي كجزاء لهم في الدنيا ؛ ويزدانون علماً بواقع العذاب الذي سَيَلْقَوْنَهُ في الدار الآخرة .
ويُنْهِى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ﴿٤٢﴾

ونفهم من كلمة :

﴿لَسْتَ مُرْسَلًا.. (٤٢)﴾ [الرعد]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْضِ الرسول ﷺ ؛ وكأن كل أمانتهم أن يَنْفُوا عنه أنه رسولُ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة ؛ بدليل أنهم قالوا :

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ [الزخرف]

ومن بعد ذلك قالوا :

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأنفال]

أى : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٤٣)

[الرعد]

والشَّهيد كما نعلم هو الذي يرجح حُكْمُ الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور في حياتنا الدنيا التي نحتاج إلى حُكْمٍ فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذي فيه خلاف إلى القاضي ، فيقول : « هاتوا الشهود » .

ويستجوب القاضي الشهود ليحكم على ضوء الشهادة ؛ فما بالنا والشاهد هنا هو الحق سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولمن سيقول شهادته ؛ وهم غير مُصدقين لكلام الله الذي نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدالة على صدق رسالته في البلاغ عن الله ، والمعجزة خرقت لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالة بين يدي رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أمر خارق للعادة يُظهرها الله على من بلغ أنه مُرسل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدي فيما بلغ عني » .

وإرادة المعجزة ليست في المعنى الجزئي ؛ بل في المعنى الكلي لها . والمثل في المعجزات البارزة واضح ؛ فهي هي النار التي ألقوا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القصد هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألف طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأن تُمطر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألغوه في النار ؛ ويأتى أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]

وهكذا غير الحق سبحانه الناموس وخرقه ؛ وذلك كي يتضح لهم صدق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرق له الحق سبحانه النواميس دليل صحة بلاغه.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمتها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ^(١) بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴾ (٤٣)

[الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل في أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخر عبقریات النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجرى القرآن على لسان رسوله في هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناس جميعاً به ، وهذا في حد ذاته شهادة من الله .

(١) أي : حسيب الله ، هو الشاهد علىّ وعليكم ، شاهد علىّ فيها بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكتبون فيها فترونه من البهتان . قتاله ابن كثير في تفسيره . (٥٢١/٢) .

ويضيف سبحانه هنا :

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٢)﴾ [الرعد]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ وَمَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه ؛ وَمَنْ يتدبر ما فيه من معانٍ ويتفحص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله ﷺ .

أو يكون المقصود بقوله الحق :

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٢)﴾ [الرعد]

أى : هؤلاء الذين يعلمون خبر مقدم رسول الله ﷺ من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعت رسول الله ﷺ وصفته مذكورة فى تلك الكتب السابقة على القرآن ؛ لدرجة أن عبد الله بن سلام^(١) ، وقد كان من أخصار اليهود قال : « لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد »^(٢) .

ولذلك ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن نفسى مالت إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بهت^(٣) ، فإذا أعلنتُ إسلامى ؛ سيسبوننى ؛ ويلعنونى ، ويلصقون بى أوصافاً ليست فى . وأريد أن

(١) هو : عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي . أبو يوسف : صحابى أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة . وكان اسمه «الحصين» . فسماه رسول الله ﷺ عبدالله . وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٢ هـ . (الأعلام للزركلى ٩٠ / ٤) .

(٢) يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ . (البقرة) .

(٣) البهت : الكذب . وباعته . استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء لا يلمه . [لسان العرب - مادة : بهت] .

تَسْأَلُهُمْ عَنِّي أَوَّلًا . فَأَرْسَلْ لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ يَدْعُو صَنَادِيدَهُمْ وَكِبَارَ الْقَوْمِ فِيهِمْ : وَتَوَهَّمُوا أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ يَلِينُ وَيَعْدِلُ عَنْ دَعْوَتِهِ : فَجَاءُوا ، وَقَالَ لَهُمْ ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ سَلَامٍ ؟ » ^(١) فَأَخَذُوا يَكِيلُونَ لَهُ الْمَدِيحَ : وَقَالُوا فِيهِ أَحْسَنَ الْكَلَامِ .

وَهَذَا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : « الْآنَ أَقُولُ أَمَامَكُمْ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ، فَأَخَذُوا يَسُبُّونَ ابْنَ سَلَامٍ : فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّ يَهُودَ قَوْمَ بَهْتٍ ؟

وَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَفْرَحُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا يَنْزِلُهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَحْيٍ هُمْ أَرْبَعُونَ شَخْصًا مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ : وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْحَبْشَةِ : وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْيَمَنِ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ أَنْكَرُوا دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَنْهَوْنَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ : وَيَنْقُلُ الْقُرْآنَ عَنْهُمْ ذَلِكَ حِينَ قَالُوا :

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا ^(٢) فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) [فمضت]

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَأَكِّدِينَ مِنْ أَنَّ سَمَاعَ الْقُرْآنِ يُؤْثِّرُ فِي النَّفْسِ بَيْقَظَةَ الْفِطْرَةِ الَّتِي تَهْفُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ .

أَمَّا مَنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِنَاكِتِ السَّابِقَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُمْ يَعْلَمُونَ خَبَرَ بَعْثَتِهِ وَأَوْصَافَهُ مِنْ كَتَبِهِمْ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٩٢٨) . وَاحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٠٨/٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) الْغَوْا ذَرَبُوا : أَيْ شَوَّشُوا عَلَى قَارِئِهِ بِاللُّغُو مِنَ الْقَوْلِ ، أَوْ أَضْعَفُوا فِيهِ وَأَخْثَلَقُوا لَهُ الْعُيُوبَ لَتَصْرِفُوا النَّاسَ عَنْهُ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ : ١٩٦/٢] .

يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾

[البقرة]

سُورَةُ اِبْرَاهِيْمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

﴿الرَّحْمٰنُ أَنْزَلَْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن الملاحظ أن هذه الحروف التوقيفية المقطعة لم تأت وحدها في هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ق (١)﴾ [ق]

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتى الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

(١) سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف . عدد آياتها ٥٢ آية . وهي سورة حكيمية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنتين . وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله ، وهي قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْدُلُوا بَيْتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُحِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنْ مُعْسِرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم] . [تفسير القرطبي ٢٦٧٥/٥]

[إبراهيم]

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. (١)﴾

كلمة « كتاب » إذا أطلقت أنصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسَمَّى - كتاباً ؛ وَيُسَمَّى قرآنًا ، وَيُسَمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كتاب» تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن» تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العمدة في أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي^(١) الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْرُوءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْرُوء كما تدل كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

[إبراهيم]

﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. (١)﴾

يدل على أنه جاء من علو .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

[النحل]

ويقول في موقع آخر :

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصاري ، صحابي ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر . ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . (الأعلام للزركلي ٥٧/٣) .

[الإسراء]

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به : ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذي أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿أَنْزَلْنَاهُ .. (١)﴾ [إبراهيم] للتحدى من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ، وعِلَّةُ إنزال القرآن إليك يا محمد هي :

[إبراهيم]

﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾

وتلاحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافة ، ولم يقل الحق سبحانه ما قاله للرسل السابقين على رسول الله : حيث كانت رسالة أيٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى :

[الاعراف]

﴿وَالْإِنِّي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾

وقوله الحق :

[الاعراف]

﴿وَالْإِنِّي مَدِينُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥)﴾

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

[آل عمران]

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩)﴾

وهكذا كان كلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أناس بعينهم ، وفي زمن خاص ، إلا محمداً ﷺ : فقد بعثه الله إلى الناس كافة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودي : وأنصف اليهودي : لأن الحق كان معه ^(١) : والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿لُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨)﴾ [الاعراف]

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً : فمجرد الاختيار لتلك المهمة : فهذه منزلة عالية .

والاصطفاء الثاني : أنه رسولٌ للناس كافة : وهذه منزلة عالية

(١) أخرج ابن عساکر (٢٥٤/٧) تهذيب تاريخ دمشق) عن عبادة بن أبي حنزة الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم قاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبتني عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذي نفسى بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خير فارجو أن نغفمنا شيئاً فارجع فأقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبي حنزة إلى السوق وعلى رأسه عصاية وهو متزجر ببردة ، فنزع العصامة عن رأسه فالتزم بها ونزع البردة فقال : أشتر مني هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فعزَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادوتك هذا البرد - لبرد عليها طريحته عليه . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٢) وأورده الكاشغرى في حياة الصحابة (٨١/٢) .

أخرى : لأنها تستوعب المكان والزمان ، والالسنة والاقوام .

ثم يأتي الإعجاز في قوله :

﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]

ولم يقل من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أن يأتي بالظلمات كجمع ؛ وأن يأتي بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدد الأهراء ؛ ظلمة هنا وظلمة هناك .

وحين نُخرجنا الحق سبحانه من الظلمات المتعددة حسب أهراء البشر ؛ فهذا فضلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلى المعاني بالمُحسّنات التي يدركها الجميع ، فلا شك أن الظلمة تستر الأشياء التي قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إن اصطدم بشيء فقد يُحطم الشيء أو يُحطّمه هذا الشيء ؛ وهكذا تمنع الظلمة الإنسان من أن يهتدى إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحسي ؛ وكل من النور والظلمة أمر حسي .

وهكذا يُجلى الله لنا المعاني ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلى المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلى المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بد أن تُجلى المعانى أيضاً . والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يُجلى الحسن والمعنى فى آن واحد ؛ لنتجنب الاشياء التى تطمسها الظلمة ؛ ونسير على بيئة من المعانى ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسر لنا الحق سبحانه الامر المعنوى ، فيقول :

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذى يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أن يُجلى لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يصل فيه الإنسان إلى السفاية بِسُر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والتور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المرجوة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذى يُخرجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم]

والعزیز هو الذى يَغْلِب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإن لم يصدر حمدٌ من الغير ؛ فهو حميد فى ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدته أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّهٌ عن كل مثيل أو شبهة ؛ نجد في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإن لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه في كُلِّ ما يصدر عنه يراعى أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حديثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإتعام الذي يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعدَّ من قَبْلُ أن يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حمد الإنسان أو عدم حمده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أَعَدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود في ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفي هذا هداية إلى صراط العزيز الذي لا يُغلب ، والحميد الذي يستحق الحمد ؛ وإن لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخلق المرزوق ، وهو مُعَزِّز قبل أن يوجد مَنْ يُعزِّه ؛ محمود قبل أن يوجد مَنْ يحمده ؛ تَوَّابٌ قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطي عن جود وسخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

وَأنتَ إِن قُرأتَ هذه الآيةَ موصولةً بما قبلها : فستقرؤها :
﴿صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم]

وإن كنتَ ستقرؤها مَفْصولةً عما قبلها : فستقول :
﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة « الله » غير مُرَقَّعة عكسَ إن قُرأتها موصولة ،
حيث يجب أن تنطقها مُرَقَّعة .

وتقتضى الأصول في الكتاب أن يوجد الاسم العلم على الذات
أولاً ، ثم تأتي الصفة من بعده ، فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو
الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النسق :

﴿صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

أي : قَدِّم « العزيز الحميد » ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلم
على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلم يدل على
مُسَمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشتق بمعنى أن « الله » تعنى

(١) الويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر وإنذار به . [القاموس القويم : ٢٦٢/٢] والويل :
الهلاك يُدعى به لمن وقع في عذاب أو هلكة يستحقها . [لسان العرب - مادة : ويل] .

المعبود بحق ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأن يُعبدَ سبحانه بحق.

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هي علم ، وليست اسماً مُشتقاً ؛ فله الملكية المطلقة :

﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ ۝٢٠ ﴾ [إبراهيم]

لا يقع في هذا الملك إلا ما شاء هو ، فمن آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرفته ، أما من لم يؤمن به فله المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢١ ﴾ [إبراهيم]

وهذا الويل ليس في الآخرة فقط ، بل في الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان حين تعترضه الصُّعَاب والعَقَبَات والمصائب التي ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً في الدنيا يعتمد عليه في مواجهة الأحداث الجسام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان برب يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين من يشرح كلمة « الويل » بأنها عذاب الآخرة ؛ فأجد نفسي قائلاً : بل والويل يكون في الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لفرغ من قرط اليأس .

ولذلك تجد بعضهم حين لا يجدون مفرّاً إلا أن يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التي قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد في الآخرة.

وَيَصِفُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ، فيقول :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ
فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ٢

وهنا نجد مادة الحاء والباء : حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحب فلان » ونقول لمن يحب « محبوب » وهذا يعنى أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما فى حالة عدم التلاقى فيقال « حَبٌّ يُحِبُّ فَهُوَ حَابٌّ وَمُحِبٌّ » .

والفرق بين أحب واستحب ؛ ملحوظ فى مجيء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب ، وعلى هذا فاستحب تعنى أن من يحب لم يكتفِ بالأمر الطبيعى ، بل تكلف الحب وأوغل فيه .

والمثل على ذلك نجده فى الحياة اليومية ؛ فنرى من ينحرف إلى شىء من الانحراف ؛ ولكنه لا يحب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف فى نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كاره له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنحرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويحب فى نفسه أنه

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٦٧٧/٥) : د اى : يطلبون لها زينة ومبلا لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم .

أحب تلك المعصية : لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة : هذا هو مَنْ « استحبَّ » لأنه أزال الحب عن حدِّه الطبيعي .

وحين تُدقِّق في الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا : لكنها تتحدث أن تستحبَّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم : أما إذا أحببت الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة : فهذا أمر مطلوب : لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد في آخرتك : فهذا طلبٌ للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق في سورة « المؤمنون » :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) [المؤمنون]

فهو لا يؤدي الزكاة فقط : بل يعمل ليأتي لنفسه ولعِياله بالقُوت : ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدي منه الزكاة : ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أن يُعطيه لمن لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يقل الحق سبحانه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ مُؤَدُونَ » بل قال :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) [المؤمنون]

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبُّون الحياة من أجل أن يجعلوها مزرعة للآخرة : بل هم يستحبُّون الحياة :

﴿وَيَهْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ..﴾ (٣) [إبراهيم]

أى : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفوا بالسُّيرِ فى طريق الشهوات والملذَّات وتخریب ذواتهم ، بل تَمَادَوْا فى الغى^(١) وَصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتَهَا عِوَجًا .. ﴾ (٩٩) [آل عمران]

كانهم ضلُّوا فى ذواتهم : ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية .

ثم تاتى مرحلة جديدة :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴾ (١٠٠) [إبراهيم]

أى : يبيغون شريعة الله مُعْوِجَةً لتحقيق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ والصدُّ عن سبيل الله ؛ وتشويه المنهج كى يُكْرَهُوا الناس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٠١) [إبراهيم]

أى : أن أصحاب المرتبة الأولى فى الضلال هم مَنْ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين تَوَعَّلَّوْا فى الضلال أكثرَ فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين تَوَعَّلَّوْا أكثرَ فأكثَرُ فَهْمُ الذين يُشَوِّهون فى منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة فى الضلال.

(١) الغى : الضلال والخيبة والفساد . [لسان العرب - مادة : غوى] - وغوى : بمعنى خاب

وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٦٤/٢] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله منهجه : ومؤيِّدٌ بمعجزة تثبت صدقه فيما بلغ لمن أُرسل إليهم. وقد حدث الحق سبحانه من قبل عما حدث للأمم السابقة على أمة محمد ﷺ : فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ : وقوم الاستقبال : وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالِبَةٌ بأن تُبَلِّغَ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطَالِبَةٌ بذلك ، لأن الحق سبحانه أُرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على السنة مختلفة^(١) .

ولم يُكُنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ في أمة العرب : وحين استقبلوه وأُشْرِبَتْ^(٢) قلوبهم حبَّ الإيمان : صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة : لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَبَاكُمُ ۖ﴾ [الروم] .

(٢) أَشْرَبَ عَلَيْهِ مَحَبَّةٌ هَذَا ، أَيْ : حَلَّ مَحَلَّ الشَّرَابِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَجِلَ ۖ﴾ [البقرة] . أَيْ : حَبَّ الْمَجَلِ . وَقَدْ أَشْرَبَ فِي قَلْبِهِ حَبَّ أَيْ : خَالَطَهُ .

[لسان العرب - مادة : شرب] .

والقرآن حُجَّةٌ لأنه يسوسُ حركةَ الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذي تنطق به .

وترجمة المعاني من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة في جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعاني لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل بالعربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تعقد مقارنة بين البلاد التي فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التي فُتحت بالسُّلْم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشرُوا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلوا الدين بالخصال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعاني ، بجانب كونه معجزة في اللغة التي نزل بها ، وهي لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا يستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة في المصحف ، واعتمدوا على

فَهُمُ الْمَعْنَى الْمَوْجُودَةُ فِيهِ عَبْرَ التَّرْجُمَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا مُسْلِمُونَ أَحْبَبُوا الْقُرْآنَ ، وَنَقَلُوهُ إِلَى اللُّغَاتِ الْآخَرَى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) ﴾ [النمل]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسّر أم القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسّره بأن جعل من تلك الأمة التي نزل عليها القرآن أمة نُشِرَ الْبِلَاغُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ ، ذلك أن الرسائل تُريدُ تَبْلِيغًا ؛ وَالتَّبْلِيغُ وَسِيلَتُهُ الْأُولَى هِيَ الْكَلَامُ ؛ وَوَسِيلَتُهُ الثَّانِيَةُ الْأَسْتِقْبَالِيَّةُ هِيَ الْأُذُنُ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ أَوَّلًا ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أُذُنٍ تَعْرِفُ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ لِتَسْمَعَ هَذَا الْكَلَامَ ، وَلِتَطْبِقَهُ سَلَوَكًا .

كما أننا نعلم أن مَنْ يَسْمَعُ الْمُسْتَكْمَلَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ وَاعِيًا وَعَارِفًا بِمَعْنَى الْأَلْفَاظِ ؛ فَمَا تَسْمَعُهُ الْأُذُنُ يَحْكِيهِ اللِّسَانُ .

وعرفنا أن اللغة بِنَتْ السَّمَاعِ ، وَكُلُّ فَرْدٍ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِاللُّغَةِ الَّتِي سَمِعَهَا فِي بَيْتِهِ ؛ وَإِذَا تَتَبَعَتْ سُلْسُلَةُ تَعَلُّمِ كُلِّ الْكَلَامِ سَتَجِدُ نَفْسَكَ أَمَامَ الْجَنْدَرِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي تَعَلَّمَ مِنْهُ الْبَشَرُ الْكَلَامَ ؛ وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقد قال سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (١) ۖ .. ﴾ [البقرة]

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۖ .. ﴾ [البقرة] . هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، وداية ، وأرض ، وبحر ، وسهل وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأسماء وغيرها . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٢١] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علّمها الله لآدم ، ثم تكلمها آدم فسمعها بيثته : فصارت وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جُلَّ وعلا السبب في إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيُّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِى نفسه من الكدر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غشاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

(١) الوقْر : ثقل في السمع أو صمم . [القاموس القويم : ٢٥ / ٢] .

والسبب - كما نعلم - أن حدوث الحادث من أمر به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمن يشرب الشاي : فينفخ فيه ليُبرده قليلاً : ونفس هذا الإنسان حين يخرج في صباح شتوى فهو ينفخ في يديه ليُدْفئَهُمَا ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً : وينفخ أخرى مُستدعيًا الدفء .

والمسألة ليست في أمر النفخ : ولكن في استقبال الشاي للهواء الخارج من فمك ، الشاي أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد في الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم : فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحد : لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. ﴾ (١٦) ﴿

[محمد]

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه : ونجد مَنْ يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لما يوصى به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغة بدأت توقيفية وانتهت اصطلاحية : فقد أخذنا من الله ما علمه لآدم من أسماء : وتغيّرت الالسن من جماعة

إلى أخرى ، وهكذا اختلفت السنة الرُّسُلُ حَسَبَ القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبَيِّنُ للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بَيَّنَّ هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعض الآخر بالكُفْر والضلال .

فالنَّذى هداه الله استشرف قلبه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أى عقيدة أخرى ، وبحث فيما جاء به الرسول ، وملا قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهما وطمانينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصِرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمهيط والدراسة والاستشراف . وكان عليه أَنْ يُخْرِجَ القضية المُضِلَّة من قلبه ، وأن يبحث ويقارن ويستشف ويحسن التدبر ؛ ثم يُدْخِلَ إلى قلبه القضية الأكثر قبولا ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا ؟ » ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتَدْعِها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .. ﴾ (٢٧)

[محمد]

ويقول :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦)

[البقرة]

أى : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمها يقول سبحانه :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤ ﴾

[إبراهيم]

فَمَنْ يُقْبِلْ عَلَى الضَّلَالِ يَزِيدْهُ اللَّهُ ضَلَالًا ؛ فَمَنْ يَزِدْ إِيْمَانَهُ مُلْكًا اللَّهُ شَيْئًا ، وَمَنْ يُؤْمِنْ فَهُوَ يَضْمِنُ لِنَفْسِهِ سَلَامَةَ الْحَيَاةِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَهُوَ فِي الْحَيَاةِ عِنَصْرٌ خَيْرٌ ؛ وَهُوَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ يَجِدُ الْحَيَاةَ مَعَ نِعَمِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ ؛ وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدَّرَ لِكُلِّ أَمْرٍ مَا يَشَاءُ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ٥ ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع - موسى عليه السلام - والمعجزات التى حدثت معه وبيئتها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل معه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثت مع رسول الله ؛ فهى قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ،

ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التى يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - تبين أن القوم الذين أرسل لهم قوم كَجَج^(١) وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التى جاءت مع موسى وجدها بعض من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعض ثالث أربع عشرة .

وفى التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفَرِّق بين الآيات التى صدرت بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التى جاءت لبني إسرائيل . فالعصا التى انقلبت حية تسعى ، واليد التى تَضِيءُ هى لفرعون ، وعَدَّد القرآن الآيات التى جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَبِى تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ^(٢) .. ﴾ (١٦)

[النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ؛ فهو لم يُرْسَلْ لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفْحِمَه وليأخذ بني إسرائيل المُرْسَلُ إليهم ، والآيات هى : العصا وَوَضَعَ اليد فى الجيب لتخرج بيضاء ، ونَقُصَّ الأنفس والثمرات ؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هى الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التى جاء بها موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل فهى كثيرة مثل :

(١) اللجة واللججة : اختلاط الأصوات . واللجة : الجلبة . والَجَّ القوم إذا صاحوا . [لسان العرب - مادة : لجج] .

(٢) المقصود بالقوم هنا هم قوم فرعون .

﴿رَاٰذُنَاقًا^(١) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١)﴾ [الأعراف]

وأيضاً :

﴿وَرَفَعْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧)﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق :

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ^(٢) وَالسَّلْوَى^(٣) .. (٥٧)﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التي جاءت مع موسى لقومه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ^(٤) اللَّهِ .. (٥)﴾ [إبراهيم]

أي : أعد إلى بُؤرة شعورهم ما كان في الحاشية : وأن يستدعوا
من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث في تلك الأيام ، مثلما نقول
نحن « يوم بدر » أو « يوم ذي قار » أو « السادس من أكتوبر » أو
« العاشر من رمضان » .

(١) ناقة : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم : ٢٥٢/٢] .

(٢) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبني إسرائيل فحصدوا
فضل الله عليهم في ذلك . [القاموس القويم ٢٤٠/٢] .

(٣) السلوى : السماوى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه مستطيل وهو من الطيور
المهاجرة من أوروبا في الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر والسودان ويعود ما سلم منه في
أوائل الصيف إلى موطنه في أوروبا . [القاموس القويم ٢٢٦/١] .

(٤) أيام الله : نعم الله ، وأيام الله : وقائع الله في الأمم السابقة . وقال الطبري : وعظهم بما
سلف في الأيام الماضية لهم ، أي : بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ، وقد كانوا
عبيداً مستذلين ، واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . [تفسير القرطبي
٣٦٧٨/٥] .

وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المرسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥٠ ﴾

[إبراهيم]

والصَّبَّار هو مَنْ يُكثِر الصَّبْر على الأحداث ؛ وهي كلمة تُوجي بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعت ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوجي كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين ؛ صَبْر على ما يؤلم ، وشُكْر على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن ؛ يكون مُكْتَمِلَ الإيمان^(١) .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هي أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطي له العبرة ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة ؛ ويجد أن مَنْ آمَنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ وَمَنْ كَفَرَ منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلقى نقمة الله وغضبه .

(١) عن صهيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) .

هنا يُقْبَلُ الْمُؤْمِنُ عَلَى تَحْمُلِ مَشَاقِّ الْإِيمَانِ : لَأنَّهُ يَتَّقُ فِي أَنْ
الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مُؤْمِنٍ : وَلَا بُدَّ لِمُوكِبِ الْإِيمَانِ أَنْ
يَنْتَصِرَ : وَلِذَلِكَ فَالْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ عَلَى الْمُحَنِ ، وَيَشْكُرُ عَلَى النِّعَمِ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذَا أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بتموذج من أيام معاناتهم من
جبروت فرعون ، وكيف خَلَّصَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ هَذَا الْجَبَرُوتِ ، وَكَانَ
فِرْعَوْنُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ أَقْسَى الْوَأَنِ الْعَذَابِ ، فَ « سَام » الشَّيْءُ أَيْ :
طَلَبَهُ : وَ « سَام سُوءَ الْعَذَابِ » أَيْ : طَلَبَ الْعَذَابَ السَّيِّئَ .

وَقَدْ ذُبِّحَ فِرْعَوْنُ أَبْنَاءَهُمُ الذَّكَورَ ، وَلَمْ يُذْبَحِ الْإِنَاثُ لِتَصْبِيحِ النِّسَاءِ
بِلَا عَائِلٍ وَيَسْتَحْيَهُنَّ ، وَفِي هَذَا نَكَايَةٌ شَدِيدَةٌ .

(١) سَامَهُ الْأَمْرَ بِسُومِهِ سُومًا : كَلَّفَهُ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ إِرَادَتِهِ . قَالَ الزَّجَاجُ : أَكْثَرُ مَا يَسْتَحْمَلُ فِي
الْعَذَابِ وَالشَّرِّ وَالظُّلْمِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : سُوم] .
(٢) اسْتَحْيَاهُ : اسْتَبْقَاهُ حَيًّا وَلَمْ يَفْتِكْهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ..
(٣) [الْبَقَرَةُ] . أَيْ : أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الذَّكَورَ فَقَطْ ، وَيَتْرَكُونَ الْبَنَاتِ وَالنِّسَاءَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .
[الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/ ١٨٣] .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية فى سورة البقرة : حين قال :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة]

فهل هذه الآية فى سورة إبراهيم هى البليغة ، أم الآية التى فى سورة البقرة : خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجيء « الواو » كحرف عطف على ذبح الابناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء فى سورة الأعراف حين قال القرآن :

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾ [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فهم القرآن عن ملكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفهم : لعرف أن الكلام لم يصدر فى الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففى آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال :

﴿نَجَّيْنَاكَ .. (٤٩)﴾ [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم فى سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام : لم يقل أنه هو الذى أنجاهم بل يُعَدُّ النعم التى من الله بها

عليهم : ويمتنُّ بها عليهم . وعَلَّةُ ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دونَ العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك^(١) .

واسوق هذا المثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه : فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمَدُّ الغنىُ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتنى بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتى ابن الفقير ليقول لابن الغنى : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغنى : ألم يأت أبى لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التى تسكنون فيها ؟

ولكن العمُّ الغنى يكتفى بأن يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنى أحضرت لكم الشقة التى تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذى يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعَدُّ الأشياء .

وهنا يَصِفُ الحق سبحانه سُوءَ العذاب وذبح الأبناء بالبلاء العظيم فى قوله تعالى :

﴿وَذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦)

[إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التى من الله بها عليهم ، وهى الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

(١) قال أبو يحيى ذكرى الأنصارى فى كتابه ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ، من ٢٧ : « فإن قلت : ما الحكمة فى ترك العاطف هنا ، وذكره فى سورة إبراهيم ؟ قلت : لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله . وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعداد المحن فى قوله : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِلَهُ ..﴾ (٢٥) [إبراهيم] . فعُدَّ المحن عليهم ، فناسب ذكر العاطف . »

وسبق أن أوضحنا أن البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه :

﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٥) [الأنبياء]

فلا الخير دليل تكريم ، ولا الشر دليل إهانة ؛ فهو القائل :

﴿فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥)
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (١٦) [الفجر]

فالابتلاء في الأصل هو الامتحان ؛ إما أن تنجح فيه أو ترسي ؛ ولذلك فهو غير مذموم إلا بالنتيجة التي يؤول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧)

ونلاحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذن إعلام ، وأذنهم أي أعلمهم .

وتأذن أي : أعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أني أعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إن شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن

(١) الكفر هنا بمعنى جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كافر : جاحد لأنعم الله . ونقول : كفر نعمة الله وبنعمة الله كفرًا وكفرانًا وكفورًا . [لسان العرب - مادة : كفر] .

الشكر دليل ارتباط بالوهاب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتكم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحق عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذي وهب النعم .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليست ذاتية فيك .

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال : هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلف من معنى عدم الشكر ، ولم يات بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وَمَنْ لَمْ يَحْجْ فَهُوَ عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعّب عدم القيام

بالحج ، أو : أن الآية تريد حُكْمَيْنِ : الحكم الاول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثاني : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا ۚ ۙ ﴾ [٩٧] [ال عمران]

فَمَنْ يُوْمِنُ بِاَنْ هَذَا حُكْمٌ صَحِيْحٌ وَّاجِبٌ وَيُوْمِنُ بِهِ وَلَكِنَّهُ لَا يُنْفِذُهُ ؛ قد يدخل في المعصية ؛ لانه يستطيع أن يحجَّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاِذْ تَاَذَنَ رَبُّكُمْ لِمَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِمَنْ كَفَرْتُمْ اِنَّ عَذَابِيْ لَشَدِيْدٌ ۙ ﴾ [٧] [ابراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولا بُدَّ من عذاب للكفر ؛ وعذابُ الله لا بُدَّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذُ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطاق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسٰى اِنْ تَكْفُرُوْا اَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْاَرْضِ جَمِيعًا فَاِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ حَمِيْدٌ ۝٨ ﴾

وقد قال موسى ذلك كى لا يظنَّ ظُلْمًا من قومه أن الله فى حاجة إلى شكرهم ؛ وانه سيعاقبهم بالعذاب إن كفروا بشكره ؛ فأراد أن ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونَه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً : ولن يضيف هذا الإيمان منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لملكه شيئاً : لأن ملك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشيء عن كمال موجود.

ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿الْمَرِيَّاتُ كُفُّوا أَلْدِيك مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا إِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١﴾

وهذه الآية الكريمة أعطتنا تفسيراً لقوله سبحانه :

﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ۝٧٨﴾ [غافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى - عليه السلام - أن

(١) خلا : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المعاضى . [لسان العرب - مادة : خلا] .

يُبلِّغ قَوْمَهُ بِقِصَصِ بَعْضِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ . وَهَذَا وَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ الْحَقُّ :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ .. (٩) ﴾

[إبراهيم]

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ :

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ..

(٩) ﴾

[إبراهيم]

أَيُّ : أَنْ الرُّسُلَ قَدْ حَمَلُوا مِنْهُجَ اللَّهِ ، وَكَذَلِكَ الْمَعْجَزَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهِمْ لَمَنْ جَاءُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . وَالْبَيِّنَاتُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ الْمَعْجَزَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهِمْ ؛ أَوْ : هِيَ الْآيَاتُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْأَحْكَامِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي تُنَظِّمُ حَرَكَةَ حَيَاتِهِمْ لِتُسَعِّدَهُمْ .

وَلَكِنْ هَلْ قَبِلْتُ تِلْكَ الْأَقْوَامُ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ ؟

لَا ، لِأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْهُمْ :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .. (٩) ﴾

[إبراهيم]

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الْكَافِرِينَ هُمْ مَنْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَنَّهُمْ عَصَوْا عَلَى الْأَيْدِيِ بِالْزَّوْاجِذِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُطِيقُوا تَطْبِيقَ مِنْهُجِ اللَّهِ ؛ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا التَّحَكُّمَ فِي أَنْفُسِهِمْ .

أَوْ : أَنَّهُمْ رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ بِمَعْنَى أَنْ قَالُوا لِلرُّسُلِ : « هَس » ، أَصَمِّتُوا وَلَا تَتَكَلَّمُوا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ بِلَاغٍ . أَوْ : أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِلرُّسُلِ « لَا فَايِدَةُ مِنْ كَلَامِكُمْ فِي هَؤُلَاءِ » .

والثراء فى القرآن يتحمل كل هذه المعانى ؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعانى ؛ فالعبارة الواحدة فى القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتى قولهم :

﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

ليكشف لنا غيابهم ، فهم يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفى نفس الوقت ينكرون المنهج ، ويعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم اعلنوا رأيهم فى المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيرُونَ ويشكُّون فى هذا المنهج .

ويأتى القرآن برّد الرسل فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنْزِلْنَا سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾

(١) اصل الفطر : الشق . وفطر الله الخلق يفرطهم : خلقهم وبداهم . قال ابن عباس : ما كنت أبصر ما فطر السعوات والارض حتى أتاني اعرابيان يختصمان فر . ينز فقال أحدهما : أنا فطرتهما أى أنا ابتدأت فطرهما . [لسان العرب - مادة : فطر] .

وقوله : ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ ۖ ۝ (١٠) ﴾ [إبراهيم] هو لَوْنٌ من الخطاب الذى لا يترك لَمَنْ توجّه إليه الكلام أن يُجيب إلا كما تريد أنت . وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كُنْتَ واثقاً من أن مَنْ تُوَجَّه إليه الكلام سيجيب - إن استحضَرَ الحق فى ذهنه - كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك فى الله » وبذلك يكون الكلام خبرياً ، وقد يقول واحد : إن هذا كلام كاذب ، ولكن على الرغم من أن المستمعين من الكفار ، إلا أنه يأتى بالقضية فى شكل تساؤل يستأمنهم على أنهم سوف يُدبرون الكلام فى رؤوسهم ، وسيعشرون على الإجابة التى لا يمكن أن ينكرونها ؛ وهى « ليس فى الله شك » .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاءَ لهم بالتساؤل الذى سيجيبون عليه « ليس فى الله شك » . ويأتى لهم بالدليل الذى لا يحتمل أىَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ۝ (١١) ﴾ [إبراهيم]

والفاطر هو الذى خلق خَلْقًا على غير مثال سابق ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [البقرة]

فلا أحدَ قادرٌ على أن يخلقَ مثل السماوات والأرض ؛ وهى مخلوقة على غير مثال سابق . وسيحانه هو مَنْ شاء أن يكون

(١) بدعه ببذعه : أنشأه على غير مثال سابق . وبديع السماوات والأرض . أى : مبدعهما ومنشئهما على غير مثال سابق . [القاموس القويم ٥٧/١] .

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسَخَّرَةً لخدمته .

وقد يتخيل الإنسان أن خلقه أكبر من خلق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبِئُه الحق سبحانه :

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

ولو نظرتُ إلى الشمس وسألتُ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئتها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْلِ خَلْقِ البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عددَ سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازي^(١) يضرب المثل الذي لا يمكن أن يُنكره أحد ، ويدلُّ على الفطرة في الإيمان ، ويوضح أن الحق سبحانه لم يُمهِّل الإنسان إلى أن ينضج عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسأل ، وضرب شقيقه ؛ هذا لأبَدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَنْ الذي ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أن لا شيء يحدث إلا وله فاعل .

وهَبَ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسي ، وهو يريد

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن أبو عبدالله ، الإمام المفسر ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشي النسب ، أصله من طبرستان ، يقال له : ابن خطيب الزري ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، وتوفي في هرة عام ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلي ٣١٢/٦) .

أن يجلس على نفس الكرسي ؛ هنا سيقدم الطفل بشدّ وجذب أخيه
من على الكرسي ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين
لا يمكن أن يستوعبهما حيّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً اوحيد .
وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ .. ﴾ (١٠) [إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتى من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوْكُمْ لِیَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوْبِكُمْ .. ﴾ (١١) [إبراهيم]

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا
يقول :

﴿ لِیَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوْبِكُمْ ﴾ (١٠) [إبراهيم]

ولم یقلْ : یغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما
يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

﴿ یٰۤاَیُّهَا الَّذِیْنَ اٰمَنُوْا هَلْ اَدْلٰکُمْ عَلٰی تِجَارَةٍ تُضٰحِکُمْ مِّنْ عَذَابِ اٰلِیْمٍ (١٠)
تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِیْ سَبِیْلِ اللّٰهِ بِاَمْوَالِکُمْ وَاَنْفُسِکُمْ ذٰلِکُمْ خَیْرٌ
لَّکُمْ اِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ (١١) یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوْبِکُمْ .. ﴾ (١٢) [الصف]

وهكذا لا یساوی الحق سبحانه فی خطابه بین المؤمنین
والکافرین .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿لَيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

هو غفران الكبائر : ذلك أن صفائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات : فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغشَ الكبائر »^(١) .

ويتابع سبحانه :

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١١)﴾ [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجل هو الزمن المضروب والمقرر للحدث . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق :

﴿فَخَسَفْنَا^(٢) بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضُ.. (٨١)﴾ [القصاص]

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١١)﴾ [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لدَد^(٣) وعناد ، لذلك نجد قولهم :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣) ، وأحمد في مستدركه (٤٨٤ / ٢) وابن ماجه في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) خَسَفَ الله الأرض : جعلها تهبط وتُغَوَّر . [القاموس القويم : ١ / ١٩٤] .

(٣) الدد : الخصومة الشديدة . اللد : الشديد الخصومة الجد . [لسان العرب - مادة : لد] .

﴿ قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٠) ﴿

[إبراهيم]

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلم أنهم يُفضّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكّروا لعلّموا أن التقليد لو شاع فى المجتمعات لما ارتقى أحدٌ عن آباءه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون فى كل شيء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء فى العقائد ؟

ولا يكتفى أهل الكُفْرِ بذلك ، بل يطلبون أن يأتى لهم الرسل بسُلطانٍ مُبين ، والسُلطان يُطلق مرّةً على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّةً يُطلق على الحجة التى تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحباً لما يُقدّم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابد أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتى قهراً .

لذلك نجد القول الحق :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ ۖ ﴾ (٢٥٦) ﴿

[البقرة]

وما دام الرُّشْدُ قد ظهر فالإكراه لا مجال له ؛ لأن الذى يُكره على شيء لا يمكن له أن يعتقد ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزم بما يُكلّف به الدين ؛

ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مكرهاً ، بل ، لا بد أن يدخله على بصيرة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قول أهل الكفر :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١)

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى نملكه هو المعجزة التى اختص بها الحق سبحانه كل رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسيُنصره ؛ فسبحانه هو القائل :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴾ (١٧٣)

[الصفات]

ويخبرنا سبحانه بطمأنينة الرسول ومن معه لحظة أن يرزله

(١) يمن : ينعم ويحسن . وفى أسماء الله تعالى : العنان المنان ، أى : الذى ينعم غير فاجر بالإنعام . وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطى من الأمن نسي كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثنيه ولا يطلب الجزاء عليه . [لسان العرب - مادة : منن] .

جِسامِ الاحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون :

﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾

[البقرة]

فتأتى أخبار نصر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمانة المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٢١)﴾

[ابراهيم]

هكذا أعلن كل رسول لمن آمن به من قومه ، فعلى الله وحده يتوكل المؤمنون ، ويفوضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صبراً على معاندة الكافرين ، وثقة في أنه سبحانه ينصر من ابغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم من آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم :

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَاءٍ أَذِيٍّ ثُمَّ نَأْوِي إِلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد وصف المتوكلين في نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يصفهم في نهاية هذه الآية بأنهم المتوكلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل في صفة التوكل ضمناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتوكل ؛ فالتوكل يعنى أن تستغند أسباب الله المعدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تؤدى الجوارح ما عليها من عمل وأخذ بالاسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هي التي تتوكل .

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل
الاقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُ هُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣)

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فشَّت في الناس : بغضب منها
المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه : ويتجه تفكير المفسدين
إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التي يعيش المفسدون
على الاستفادة من أهلها .

وإن عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم
إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْتُ إلى الشيء إلا إذا كنت في
الشيء ثم خرجت عنه وعُدْتُ إليه .

وهل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد :
يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا : ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ..﴾ (١٣)

[إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرون في ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المُساومة : ذلك أن الحق سبحانه وتعالى
يُنْزِلُ جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُلِهِ والمؤمنين :

(١) الملة : الشريعة والدين . والملة : الدين حقاً كان أو باطلاً ، [القاموس القويم : ٢٢٦/٢] .

فلا يتأثر الرسل وَمَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبّر عنه قَوْل الحق سبحانه فى آخر الآية :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٤)

[إبراهيم]

وهكذا يأتى القانون السماوى بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله وَمَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُثَبِّتَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (٦٥)

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مقام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكس^(١) عن منهج دعوة الحق ؛ سيورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَأَوْرَثْنَاهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوَّرْهَا .. ﴾ (٦٦)

[الاحزاب]

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزى مَنْ يعيش حياته فى ضوء الإيمان بأن يورثه أرض مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله :

(١) النكوص : الإحجام . ونكص على عقبيه : رجع مما كان عليه من الخير . والنكوص : الرجوع إلى وراء . [لسان العرب - مادة : نكص] .

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٢٧)﴾ [الاعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^(١) (١٢٨)﴾

« استفتح » تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مغلَقاً ينفتح ، ومرة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ أحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفصل والحكم .

والمثل على الأمر الحسى قول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَآئِعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف]

ومرة يكون الفتح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة]

(١) استفتحوا : استنصروا . أى : اذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم . والدعاء بهلاكهم . [تفسير القرطبي ٢٦٨٦/٥] .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٢٦٨٧/٥) : « الجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر » .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٢) ﴾

[فاضر]

أما المَثَل على الفَتْح بمعنى الفَصْل في الأمر ، فالمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾

[الأعراف]

وهكذا نجد للفتح معاني متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهي تَقْضُ ، وَيُطْلَقُ الفتح آخر الأمر على النصر ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾

[النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾

[إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبة من الكفار : فَهُمْ طلبوا الفتح أى النصر ! وهم قد فعلوا ذلك مظنة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخَيِّبُ الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جبّاراً في الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يَقهر الناس على ما يريدُه ؛ والمقصود هنا هم المُتَكَبِّرُونَ عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون في مسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن وَرَّاهُ جَهَنَّمَ وَنُسِقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : من خلف الجبار السُّتَعَتْ بالكفر جهنم ، وما فيها من عذاب . وفى العامية نسمع مَنْ يَتَوَعَّد آخر ويقول له « وراك .. وراك » ويعنى بذلك أنه سيوقع به أذى لم يأتِ أوانه بَعْدَ .

وكلمة « وراء » فى اللغة لها استخدامات متعددة ؛ فمرّة تأتى بمعنى « بَعْدَ » والمثل فى قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحِكَتْ ^(١) فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود]

(١) أى : تعجبت من الضيوف الذين جاءوا باليسرى . وقيل : كانت لا تحبض فحاضت . وفى اللغة : ضحكت المرأة أى حاضت . والرائج فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى : « ضَحِكْتُ » معناه سُرْتُ كثيراً . [القاموس القويم : ١ / ٣٩٠] .

أى : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ .. (١٦) ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى : أنها أمامه ، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾ [إبراهيم]

والصدید هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجُرح ، وهو القَيْح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تُشوى جلودهم .

ولنا ان نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيقدم له الصدید الناتج من حرق جلده وجُلود أمثاله . والصدید أمر يُتَأَفَّف من رؤيته ؛ فما بالكنا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لما ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصدید :

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ^(١) وَيَأْتِيهِ^(٢)
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ^ط وَمِنْ
وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

ويتجرعه أى : يأخذه جُرْعَةً جُرْعَةً . ومن فرط مرارته لا تكون
له سيولة تُسْتَغَاغُ : فيكاد يقف فى الحلق ؛ والإنسان لا يأخذ الشيء
جُرْعَةً جُرْعَةً إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا
المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال :
استساغ الشيء . أى : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ^ط .. ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم]

أى : لا يكاد يبلعه بسهولة قطعته وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ^ط .. ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم]

أى : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا
يموت . ويُفَاجَأُ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصَدِّقًا لقول الحق
سبحانه :

(١) تجرعه : يبلعه فى تكلف وتكره [القاموس القويم : ١٢٠/١] . وقال القرطبي فى تفسيره

(٣٦٨٩/٥) : . أى : يتعساها جُرْعًا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . .

(٢) ساغ الشراب فى الحلق إذا كان سلسا سهلا . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

﴿وَمِنْ رَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾ [إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار المتعنت في أمر الإيمان . وإذا قسنا العذاب الغليظ بأهون عذاب يلقاه إنسان من النار لوجدنا أنه عذاب فوق الاحتمال : فما هو ؟ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٍ يوضع في أخمص^(١) قدميه جمرتان يلقى منهما دماغه^(٢) » .

فما بالنا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شره ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ
أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [١٨]

وقد يأتي في أذهان البعض ما يُشوّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلان النار وهو من أهدى البشرية تلك المخترعات الهائلة التي غيرت مسارات الحضارة ، وأسعدت الناس ؟ كيف يُعذب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

(١) الأخمص : باطن القدم وما رقب من أسفلها ونجافى عن الأرض . [لسان العرب - مادة : خمص] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥١١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢١٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

وأقول : نعم . يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أجرٌ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ؛ وهو قادر على أَنْ يَجْزِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَنَالُونَهُ مِنْ مَجْدٍ وَشَهْرَةٍ وَثَرْوَةٍ ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك . وانطبق عليه قوله : « عَمِلْتَ لِيُقَالُ وَقَدْ قِيلَ » ^(١) وأخذوا أجورهم مما عَمِلُوا لَهُمْ ؛ ذلك أنهم عملوا ولم يَكُنْ فِي بَالِهِمْ اللَّهُ .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، قالواحد من هؤلاء الكفار إذا كَانَ يَلْقَى الْعَذَابَ الْغَلِيظَ عَلَى الْكُفْرِ ؛ فالحق لا يغمطه ^(٢) أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك في الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٌ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ^(٣) أما في الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التي صنعوها في الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمالٌ برٌّ تأتي يوم القيامة وهي رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة في يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) . وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والنسائي في سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوي في كتاب « الأحاديث القدسية » (١٣٥/١ - ١٥١) بتحقيقه .

(٢) غمط الحق : جحده . والغمط : كفران النعمة وستورها . [لسان العرب - مادة : غمط] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١) . وكذا مسلم في صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأوله : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لَعَادَ إلى ما تُهِى عنه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣١) ﴾ [الكهف]

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذي جعل كل أعمالهم التي ظنوا أنها صالحة ؛ مجرد أعمال مُحْبِطَةٌ ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق الموصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاشَأُ يَذْهَبَ بَكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحق ؛ فلا تأتي السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل :

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

وأنت كلما سرتَ وجدتَ الشمس من فوقك ، وهي مرفوعة بنظام هندسي دقيق .

وهكذا اراد الحق سبحانه ان يؤكد قضية كرنية مُحسنة مشهودة :
وبدا بقوله :

﴿ اَلَمْ تَرَ .. (١٩) ﴾ [ابراهيم]

رغم انه لا يوجد مع العين أين : ذلك ان الشمس واضحة أمام
كُلِّ البشر ، وهكذا نجد ان معنى « اَلَمْ تَرَ » هنا تكون بمعنى « اَلَمْ
تعلم » .

وجاء سبحانه بـ ﴿ اَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلنا على ان ما تعلمنا الله به
من حَقٍّ اصدق مما تعلمنا به العين : فلذا قال سبحانه : ﴿ اَلَمْ تَرَ ﴾
فهى تعنى : اَلَمْ تعلم علماً مُؤكدًا : لان عينك ربما تخونك فى
الرؤيا ، او تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ اَلَمْ تَرَ ﴾
فاعلم انه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والارض :
فكان لابد لنا ان نعلم انها لم تكن لتُوجد إلا بخلق الله لها : وهو
الذى اخبرنا انها من خلقه : ولم يدعها أحد لنفسه : وبذلك تثبت له
قضية خلقها إلى ان يقول آخر انه خلقها : ولم يقل لنا أحد ذلك
ابدأ .

وسبق ان قال سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثلاً تعيش السماء : فالفرد
يموت ويولد غيره : وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ،
وكذلك الارض .

ومن عجيب الخلق الرحمانى أن الله خلق كل ذلك تسخييراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشد كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طلب منك أيها الإنسان تكليفاً أنت مُخير فيه إن شئت أمنت ، وإن شئت كفرت ؛ وإن شئت أطعت ، وإن شئت عصيت .

ولكن المخلوق المُسخر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ^(١) مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القول الكريم بأن الرحمانية سبقت لنا نحن البشر من قبل خلقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مهيا لنا .

ومن العجيب أن الكون المخلوق لنا استبقا لحياتنا واستبقا لنوعنا يتركز فى أشياء لا تدخل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهى الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتى بدلاً منه شىء جديد ، كالنبات الذى يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التى ناكلها أو التى تموت .

وهناك خلق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإن تغيرت مادته ، كالجوامد التى نراها - الجبال والأرض وعناصرها - ونكتشف منها كل يوم جديداً .

(١) أشفقن منها : ضعن من حمل الأمانة . ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ٢٥١/١] .

إنن : فالمخلوقات التي استقبلت الوجود الإنساني نوعان : نوع لا ندخل للأغيار فيها : ونوع آخر فيه ندخل للأغيار مع بقاء مادتها وهي الجمادات : ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كل هذه الأشياء تدلنا على أن الحق سبحانه وتعالى له صفتان : صفة القدرة والقهر : وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء : ولا يتغير .

وصفة الاختيار التي أوجدها في الإنسان .

وأنشئت صفة القدرة التي سخر بها سبحانه الأشياء لخدمة الإنسان مطلق سلطانه سبحانه على كل ما خلق : فلا شيء يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التي وهبها للإنسان أن يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذي يطيع الله وهو قادر على أن يعصيه إنما يدل بذلك على أنه محب لله : ويثبت له صفة المحبوبة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴾ (٦٩) [إبراهيم]

ولنا أن نلاحظ أن كلمة « بالحق » وردت في مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴾ (٨٥) [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ^(١)﴾ [الدخان]

وهذا يدل على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارس الفلسفة تستقبل تلك القضية استقباليين ؛ استقبال مَنْ يريد أن يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أن يكفر . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغير من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحَكِّمة .

والفريق الثاني ممن أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ في الكون ووجود خلل وعيوب خلقية في بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليل على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إله مخلوقاً اعْمى ؛ وآخر أعرج ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ في الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذي أراد التغيير في هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذي رأى أن هناك شذوذاً في بعض المخلوقات أخذ ثبات الخلق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

(١) لعب : عمل عملاً لا يُجْدَى عليه نفعا . لاعبون : عابثون غير جادين . [القاموس القويم :

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذًا من فضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لعلم كلُّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهم هذا الكون على ثبات ما فيه ؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً في الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة في السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغير في الخلق دليلاً على وجود خالق ؛ فهذا أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عديم التماثل في المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه ثم يخلق السماوات والأرض لعبة ؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبت بشيء ؛ فتخرج له صدقة يستخدمها هو أو غيره كلعبة .

يقول الحق :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) [النحل]

أما الخلق بالحق ؛ فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحكمة ؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السموات والأرض ، وما دُمَّتْ تريد ثباتاً في حركتك الاختيارية ؛
فخذ المنهج الذي أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قضايك كما ثبتت القضايا
العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألا يوجد فساد في المجتمع من أي لَوْنٍ فابحث عن
حكم الله الذي ضيعه الإنسان في مخالفة منهجه تجد أن ضياعه هو
السبب في وجود الفساد ؛ واقرا قوله الحق في سورة الرحمن :

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ (٩) وَلَا
تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (١٠)﴾ [الرحمن]

وهكذا أنت ترى الشمس - على سبيل المثال - منضبطة في
شروقها وغروبها وكسوفها ؛ وكذلك القمر في سطوعه أو محاقه^(١) أو
خسوفه .

وكما رفع الحق سبحانه السماء ووضع الميزان ؛ فعليكم أن
تزنوا كلَّ أمر بالميزان الصحيح لتنصلح أموركم ، فإن اعتدال
الموازين المادية والمعنوية والقيمية هي استقرار لحركة الحياة .

أما إن ظللتم على العوج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أن يذهبكم
وأن يأتي بخلق جديد :

(١) البيان : التطق المعبر عما في النفس من معان وأفكار . [القاموس القويم : ٩٢/١] .
(٢) القسطنط : العدل . والقسط : عدل وأزال الظلم والجور . والقسطاس : الميزان والعدل .
[القاموس القويم ١١٦/٢] .

(٣) المحاق : آخر الشهر إذا انحى الهلال فلم يبق . وقال ابن الأعرابي : سُمِّيَ المحاق محاقاً
لأنه طلع مع الشمس فمحقت قلم برة أحد . [لسان العرب - مادة : محق] .

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) [إبراهيم]

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلق الخلق ،
ووهبهم الاختيار ليقبل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملكهم ألا
يقبلوا عليه .

وفى موقع آخر يقول سبحانه :

﴿مَنْ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْثُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخِلُّ وَهُمْ
يَخِلُّ فَإِنَّمَا يَخِلُّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٢٨) [محمد]

ويقول فى قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن
مريم :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا آلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦٠) [الزخرف]

إذن : فطلاقة قدرة الله التى خلقتها بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرة
المطلقة ما تشاء ، فلا شىء يتأبى على مرادات الحق ولا على قدراته .

ويقول فى موقع آخر :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ
خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾ (٤١) [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجيء بخلق جديد

ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

والشيء العزيز هو الشيء المُمْتَنِع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بين لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتى بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتى بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتى بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدانا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ (١)

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً . ويُقال « رجل بارز » أى :
مرموق وقبيل الأبصار ، ولا تُفْتَح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة
بارزة » أى : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

(١) الجَزَع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال المكروه . [القاموس القويم
١٢٢/١] .

(٢) المحيص : المهرب والمفر . والمحايصة : مفاعلة . من الحيص العدول والهرب من الشيء
[لسان العرب - مادة : حيص] .

ويقول سبحانه :

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ (٤٧)﴾ [الكهف]

أى : سيرى كُلُّ منا كُلَّ الارض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ؛
لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا :

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ [ق]

ويُقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى
يقوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أن يسبقه ؛
لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيل فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً -
أى : تراباً يُضَبُّبُ المرثيات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى
تجرى فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميع فلا خيون أخرى
قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ (٢١)﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم
برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنْزَهُ أن تَخْفَى عنه خافية فى الأرض
أو السماء أو الكون كله . ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند
أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وَهُمْ مِنْ قَبْلُ كَانُوا :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (١٠٨) ﴿

[النساء]

وكانوا قد ظنوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويبيئون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حكمهم في ذلك حكم كل الخلق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخلق على لونين ؛ لونٍ مقهورٍ فيه الإنسان ، ولا إرادة له ؛ ولونٍ مُخَيَّرٍ فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أولاً أن الإنسان الذي تعود على أن يتمرد على الله ؛ فهو يوضح له ؛ أنت قد ألفت التمرد وقول « لا » ، وقد تجاهر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فإن كنت صادقاً في أن هذا الخروج ذاتي فيك ؛ فتمرد على القهريات التي تنابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غير قادر على ذلك ؛ فلا الفقير يستطيع أن يثري دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتي يوم يسلب منك الاختيار .

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وأنت تبرز بكلُّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخلق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مطبقاً :

﴿قَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا. (٢١)﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر : نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلْقون أوامرهم ؛ لِيُنْفِذَهَا الضُّعَافُ ، ثم يُفَاجَأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوت في اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويرون ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهل الجبروت :

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوِنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضُّعَاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وفى هذا القول استكباراً على الإيمان ، وكانهم يُعَدِّلُون على الله - والعياذ بالله - مشيئته وواسع علمه الذي يختار به الرسل .

او : انهم قد استكبروا على انفسهم فلم يؤمنوا : او : انهم قد استكبروا على الاتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الاتباع على مخالفتهم : لذلك يقول لهم الاتباع لحظة تساوى الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٢١)

[إبراهيم]

وهذا تقرير وخزي وفضيحة للتابع .

ونعلم ان الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (٦٨)

[الاحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك ان تتبع فى امر إلا إذا اقتنعت أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بيعة .

وليتذكر كل منا قوله الحق :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦)

[الحشر]

فحين يأتىك أمر مخالف لمنهج الله : عليك أن تعلّى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كي ننتبه جيداً فلا نلقى زمام أمورنا لمن نتبع إلا بروية وبحكمة : أيدلنا على خير أم يدلنا على شر ؟ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فَلْيَكُنْ كُلُّ مَنَّا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهٖ ، وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي
سُورَةِ الرَّحْمَنِ :

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾ [الرحمن]

والآلاء هي النعم ؛ ومن أرقى النعم هي تلك القيم التي أوضحها
لنا الحق سبحانه لنسير على هُداها في الحياة الدنيا كي لا نُقْبِلَ على
الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شيء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كي لا يقف في موقف
الحزى المشترك بين الاثنين في يوم الحساب ؛ حيث يقول التابعون
للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ قَبْعًا فَهَلْ مُثِّبُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.. (٢١) ﴾

[إبراهيم]

وهذا القول القرآني يتكلم به ربُّ العالمين ؛ وكلُّ حرف فيه لهدف
ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أنهم لن يقدرُوا أَنْ يُخَفِّقُوا ولو جزءً بسيطاً من عذاب الله ،
وكانهم يُسهِّلُونَهَا عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمَّلُوا ؛ أو أن يُخَفِّقُوا
عنهم ولو جزءً بسيطاً من العذاب .

والمثُلُ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنيتها ؛ فيقول له :

ليس معنى غيره ، فيردُّ الطالب : إذن اعطني بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو ربُّعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم : فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأبَّوا على الله إيماناً به ؟ ها هم يردُّون على مَنْ سألوهم أَنْ يُخَفِّفُوا ولو جزء قليلاً من العذاب :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِبِّصٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يتكشف كذبهم : فهم يدَّعون أن معنى الهداية هو أن يهَيِّمَ الله الإيمان : مُتَنَاسِلِينَ أن معنى الهداية هو الدلالة المُوصَّلة إلى الغاية .

ولنا في قول الحق سبحانه ما يوضِّح المعنى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

فمَنْ يُقْبَل على الإيمان بصدر مُنْشَرَح يجد كُلَّ سُبُل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كَفَرَ فكيف يهديه الله ، وهو قد استحبَّ العمى على الهدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أية هداية .

ويقول الكافرون ذلك لِمَنْ اتبعوهم في يوم الحشر : ذلك أنهم يرونَ رَأْيَ العَيْن أن الجنةَ حَقٌّ ؛ والقار حَقٌّ ، والحساب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَنْ اتبعوهم في الدنيا بأن الحقَّ سبحانه لو أخذ بيدهم في الحياة الدنيا إلى الإيمان لَقَدْنَاكُمْ إلى هذا الإيمان ؛ وهم في ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم :

[إبراهيم]

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ.. (٢١)﴾

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع في مأزق أقوى من قدراته ؛
ولا فُجوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقباليين ؛
الاستقبال الأول ؛ أن يجزع ويتضرع ؛ والاستقبال الثاني ؛ أن يصمد
ويصبر .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

[إبراهيم]

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (٢٢)﴾

أى ؛ أنهم سواء جزعوا وتضرعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن
ينجيهم الله مما هم فيه ؛ فلا مهرب ولا منجى .

و « حاص » فى المكان أى ؛ ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد
راحة ؛ ونجد فى تعبيرنا العامى ما يُصور ذلك وهو قولنا « فلان
حايص » أى ؛ لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال « نَبَتْ بِهِم الأرض » ؛ أى ؛ أن كُلَّ مكان فى الأرض
يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنْفُسُهُمْ.. (٢٥)﴾

[الثوبة]

وهكذا نرى مَنْ نَبَتْ بِهِم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً
بل تضيق عليهم ؛ ونسمع مِمَّنْ يُنْكَلُ بِهِم الحق فى الحياة الدنيا مَنْ
يقول ؛ « أنا لا أطيق نفسى » .

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات الضيق ؛
فتضيق ذات أي منهم عن حمل ذاته ، وكان الواحد منهم له ذاتان ؛
وكان الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التي تزئى الشهوة ؛ وحين
تزيد عن الحد يعود إلى صورة كاره الشهوة ؛ وهو لا يسعد في
الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ
وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا
أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٢)

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أن كان من المتبوعين
والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء في الحوار ليكون بين الشيطان وبين
البشر . ونلاحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذي يدور فيه الحوار
وهو انقضاء الأمر^(١) ؛ حيث تقرر الوضع النهائي لكل شيء ؛

(١) المصرخ : المفخيت المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذي يزيل سبب الصرخ وسبب
الصراخ . [القاموس القويم ٢٧٢/١] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣٦٩٣/٥) : « معنى ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ..﴾ [إبراهيم] أي :
حُصِّلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ » .

ولا نقاشَ في أيّ أمر ، ولا فرصة للتراجع عما حدث .

وقضاء الأمر يعني أن يذهب كل إنسان إلى مصيره ، فمن كان من أهل الجنة دخلها ؛ ومن كان من أهل النار دخلها ؛ فقد وصلت الأمور إلى حدها النهائي الذي لا تتغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، لانه رَعَدَ مِمَّنْ يَمْلِكُ ؛ أما وَعَدَ الشيطان فقد اختلف ؛ لانه وَعَدَ بما لا يملك ؛ لذلك هو وَعَدَ كاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير .

وحين تُعد أنت - الإنسان - إنساناً آخر بخير قادم ؛ فهل تضمن أن تَوَاتِيكَ ظروفك على أن تُحَقِّقَ له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول « إن شاء الله »^(١) وبذلك نردّ الوَعْدَ لله ؛ فهو وحده الذي يمكنه أن يَعِدَ وَيُنْفِذَ ما يَعِدُ به .

وعلى الواحد منا أن يحمي نفسه من الكذب . وأن يقول « إن شاء الله » فإن لم تستطع أن تحقق ما وعدت به تكون قد حميت نفسك من أن تُلقَى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة :

﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُرَىٰ قَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ۞ (٢٣) ﴾ [الكهف] .

ذلك أن وَعْدَهُ باطل ؛ والباطل لَجَلَجٌ^(١) ، وحين تحكم به الآن تُثَبِّت
لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل
فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً^(٢) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبْرِئَ نفسه رغم علمه أنه قد وعد ،
وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بمن
اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا :

﴿ تَوَّهَدْنَا اللَّهَ تَهْدِيَتَكُمْ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان - كما تعلم - إما سلطان قَسْهَرٍ أو سلطان إقْنَاعٍ .
وسلطان القَهْر يعني أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أن
يفعل ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفاعل .

(١) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بيّن . واللجلجة والتجلج : التردد في الكلام .
واللجلج - المختلط الذي ليس بمستقيم - والحق أبلج ، أي : مضىء مستقيم . [لسان
العرب - مادة : لجج] .

(٢) جفأ الوادي غشاءه : رمى بالزُبْدِ والقذى . واسم الزُبْد : الجفأ . والجفأ : الباطل .
[لسان العرب - مادة : جفا] .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم : ويقول : أريد أن أناقشكم : هل كان لي سلطان قَهْرِيْ أقهركم به ؟ هل كان لي سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقي ؟

لم يكن لي في دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهموني ولا تجعلوني « شماعة » تُعلقون عليّ أخطاءكم : فقد غويت من قبلكم وخالفتم أمر ربي : ولم يكن لي عليكم سلطان سوى أن دعوتكم فاستجبتم لي .

وكل ما كان لي عندكم أني حَسَرْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحركت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقْبِلُوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أن يُحرِّك نوازع النفس : أو يترك النفس تتحرك بتوازعها إلى المعصية : وهي كافية لذلك .

وسبق أن أوضحت كيف تُعرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً : فإن وقفت النفس عند معصية بعينها : وكلما أبعدما الإنسان تَلَحَّ عليه : فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزَغُ^(١) الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان : إن وجدته رافضاً لمعصية ما : انتقل بالغواية إلى غيرها : لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أي لَوْنٍ : فالمهم أن يعصى فقط : لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

(١) نَزَغُ الشيطان : وسوس له بالشر . ونَزَغَ ما بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس

ضعفه ؛ فإنَّ وجده قوياً فى ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس المَلُوم على ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ۚ ۞ (٢٢) ﴾

[إبراهيم]

فالمَلُوم هنا هو مَنْ أَقْبَلَ على المعصية ؛ لا مَنْ أَغْوَى بها .

ويستمر الحق سبحانه فى فَضْح ما يقوله الشيطان لِمَنْ أَغْوَاهم فى اليوم الآخر :

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۚ ۞ (٢٢) ﴾

[إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذى سبق وأن تعالى على آدم لحظة أن طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوى بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصُّرَاح من صرخ ، وهو رَفَعَ الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يتلَفَّت حوله ليرى ؛ هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنَّ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَآرِب طلبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتَّى إلا مِمَّنْ يخاف من مُفْرِغ .

و « مُصْرَخ » يدل على الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمَّى في اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أى : الذى يدلُّك على معنى لفظ لِيُزِيلَ إبهامه ؛ فيقال « أعجم الكتاب » أى : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التى دخلتُ توضح إزالة العُجْمَة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة « عتب » أى : لومه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصيح « أعتب » أى : أزال ما به عتب .
وتجد فى دعائه ﷺ قوله الشريف : « لك العُتْبَى حتى ترضى »^(١) .
أى : إذا كُنْتَ يا ربَّ تعتب علىَّ فى أىِّ شىء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتى مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتى بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرَّضَ الطبيب مريضه » أى : أزال عنه - بإذن من الله - مرضه .

إذن : « مُصْرَخ » هو مَنْ يُزِيل صراخ آخر ؛ فكان هناك مَنْ استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغِيث . وهكذا يعلن الشيطان فى اليوم الآخر أنه وَمَنْ أغواهم فى مازق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المازق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مازقه ؛ ولن يُغِيث أحدهما الآخر .

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيذاء أهل الطائف له ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد ينهمنى أم إلى عدو ملكته امرئ ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى .. لك العتْبَى حتى ترضى » ولا حول ولا قوة إلا بالله ، أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٤١٥/٢) . وابن هشام فى السيرة النبوية (٤١٩/٢ ، ٤٢٠) .

ويضيف :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ۚ ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

فأنتم أشركتموني مع الله في الطاعة ؛ حين استسلمتم لغوايبي ؛ ولم تكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألا أغويهم^(١) ؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به ؛ فناديتكم واستجبتم ؛ وناداكم الله فعصيتم أو كفرتم . وصيرتم مثلي ، فقد سبق لي أن امرئى الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمن كفر وعصى :

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر في القمة ، فكما أطلعتم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ؛ فما هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ؛ بأنه شرك بالله ؛ وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء ؛ وتحقق فيه قول الله له :

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ^(٢) ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم - وهو اليوم الآخر - يندسُ

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِيُزَيِّنَنَّ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ (٥٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٥٧) ﴾ [ص] .

(٢) انظره : آخره وأمهله وتأنى عليه . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٤٤) ﴾

[الأعراف] أى : أمهلنى وأخر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة [القاموس القويم

وَيُوسُوسُ وَيَتَزَغُ : أما في ذلك اليوم فقد برز كل شيء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحد القهار ، ولم يعد هناك ما يخفى عن العين .

وهذا ما خدعوا به أنفسهم ، وظنوا أنهم قادرون على أن يخفوا ما فعلوه عن أعين الله : ولذلك نجد الحديث القدسي يقول :

« يا بني آدم ، إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في حياتك اليومية لا تجد من يسرق من آخر وجهاً لوجه : ولا أحد يحرق بيت أحد أمام عينيه : فإن كنتم يا معشر البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض : فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم : فتعصونه .

وإن شككتم أنه لا يراكم فالخلل في إيمانكم : وإن كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهون الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فانت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقراً بأن الظالمين لهم عذاب اليم ، والظلم في القمة هو الشرك بالله :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٢)

[لقمان]

وحين نقرأ ذلك إما أن نأخذ على أنه إقرار من الشيطان : أو نفهمه على أن الشيطان قد قال :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ..﴾ (٢٢) [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخلق والكائنات : ثم الحوار بين الضعفاء والسادة : ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية : يأتى بالقضية النهائية فى الحكم :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

والمناسبات توحى بمقابلاتها : لتكون النفس مُتَشَوِّقَةً وَمُتَقَبِّلَةً لهذا المقابل : مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٣) [الانفطار]

ويأتى بعدها بالمقابل لها :

﴿وَأِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (٢٤) [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء : لا بُدَّ أن يفتح القلوب لتتعم بسعادة مصير وجزاء الذين سَعِدُوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُونَ﴾ (٢٣)

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحَظ : فمرة يُسَنِّدُ الفعل لله سبحانه ، ومرة يُنسِبُ الفعل للملائكة الذين يتلقون الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذنا : والملائكة المؤكِّلون فتحو أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .
وهكذا يكون لكل مَلْحَظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وَأَدْخِلُ^(١) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْجَنَّةَ » والمتكلم هنا هو الله . ونلاحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ۖ ﴾ [إبراهيم]

لكي تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال في نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم]

وأن الملائكة المُكَلِّفِينَ بذلك فتحو لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلاحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هي الجنات ؟

(١) هذه قراءة الحسن ، وأَدْخِلُ ، على الاستقبال والاستغناء . قاله القرطبي في تفسيره (٢٩٩٦/٥) .

ونقول : إن الجنة في أصل اللغة هي السَّترُ ، ومنها الجنون أي : سترَ العقل ، والمادة هي : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما في الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ [البقرة]

ولنا أن نعرف أن الجنة غير المساكن التي في الجنة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ .. ﴾ [الثوبة]

والجنة - والله المثل الأعلى - هي الحديقة الواسعة ؛ وهذا الاتساع موزع على كل مرأى عَيْنٍ ، والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحب أن يتخصص في مكان مرة ؛ ويحب أن ينتشر في مكان مرة أخرى ؛ فيستاجر شقة أو يبني لنفسه بيتاً مستقلاً « قَيْلاً » . وفي البيت أو الفيلا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقِيم الأشياء على هذا الأساس ؛ فينظر مَنْ يرغب في شراء قطعة أرض ليسكن عليها بيتاً : أهى تُطلّ على حارة أم على شارع ؟ وهل سيستطيع أن يعلوّ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيُخصَص قطعة من الارض كحديقة أم لا ؟

فإن كانت الأرض تُطل على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمة ما يتيح من اتساع أفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفل عليك أحدٌ في هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبي ؛ هي أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجري من تحتها الأنهار . ومن يدخلونها :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ ﴾ (٢٣)

[إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التنعم ؛ ولكن كل تنعم في الدنيا هناك ما يُنقصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل مَنْ رأى أناساً عاشت في نعيم ؛ ثم نُزع منها بحكم الاغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتك ولا تقوته ؛ لأنه على قَدَر إمكانات ربك .

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ ﴾ (٢٣)

[إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلود في الجنة دائم بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ (٢٤)

[إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلاقائه ؛

ولذلك تأتي التحية على مقدار السرور : فمرة تكون التحية بمجرد رفع اليد دون مُصافحة ؛ وقد لا تكتفى بذلك في حالة ازدياد المعزة التي لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه في أحضانك ، وهكذا ترتقى في التحية ، وهي إعلانُ السرورِ باللقاء .

وتحيةُ الجنة هي السلام ؛ لأن السلام أمنٌ كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدرها بحديث النفس الذي يندم على ما فات ؛ أو الحُلم بعمل قادم . فالسلام في الجنة لن تجد فيه مُنغصات من الماضي أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حولك في الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ ﴾ (٢٣)

[إبراهيم]

وهذه أفضلُ نعمة ، وهي الحياة في سلامٍ وأمن ، وبعد ذلك تدخل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ ^(١) مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عَقِي الدَّارِ ﴿٢٤﴾

[الزهد]

ثم يلقون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٨)

[يس]

(١) قال سعيد بن جبیر : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم في جنات عدن . [الدر المنثور ٦٢٩/٤] .

(٢) عن عقیة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبح الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤) .

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرب والسعادة ، وأهل البُعد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفى . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيت فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أره ؛ فتقول له : إنه يشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِيَ عن مُخَيَلَة صديقك بِمَنْ هو واضح الصورة فى مُخَيَلته . .

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّنة ، كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلفٌ بالمُحسَّس ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التى يقوم عليها ويكون فى أسفله . [القاموس القويم

. [٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أكل . [لسان العرب - مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . (٢٦) ﴾

[البقرة]

وقد قال الكافرون : أ يضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كائى كائن ؛ وتركيبها التشريحي يتشابه مع التركيب التشريحي لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدٌ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دموى فيها ؛ أو مكان الغدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليوضح الأمر الخفى بأمر جلى . ومن بعد ذلك ينتشر المثل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويشكلونها بقدر وشكل مُحدد لتدل على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ، ويُقال - أيضاً - « ضُرب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . (٢٧) ﴾

[إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسك ؛ إما منظرًا أو رائحة
أو ثماراً ؛ أو كل ذلك مجتمعاً ؛ فقله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة »
ماخوذة من الطَّيِّب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهي
أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى
السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهي أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ،
أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على
صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهي كائن نباتى لا بدّ لها من أن تتغذى
لتحفظ مقومات حياتها . ومقومات حياة النبات توجد فى الأرض ،
فإن كانت الشجرة مُخلَّكة وغير ثابتة فهي لن تستطيع أن تأخذ
غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . . (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن
الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عبر

الجدور ؛ والباقي تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إن كانت البيئة غيرَ نظيفة ومُلوثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتَمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إِنَّ : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلَها ثَابِتٌ ۖ ۞ (٢٤) ﴾

[إبراهيم]

يعنى ؛ أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ۖ ۞ (٢٥) ﴾

[إبراهيم]

يُبَيِّنُ أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أَكْلَها كُلَّ حِينٍ ۖ ۞ (٢٥) ﴾

[إبراهيم]

والأكل هو ما يُؤْكَل ويُتَمَتَّع به ، ولكننا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكَل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاج الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الاثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل في ذلك : الطفل البدوي الذي شاهد نخيل جيرانه مثمرًا بالبلح ، ولكن النخلة التي يملكونها غير مثمرة ، وتسائل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخيلنا هي الذكر الذي يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كي تثمر .

ولذلك فانا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة : ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حنظل فهي طيبة بفائدتها التي أودعها الحق إياها : فشجرة الحنظل تأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطعم - لكنه يشفي بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيبة في هذا الكون . وقول الحق سبحانه :

﴿ تَرَوْنِي أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلنا على أن هناك قدرًا مشتركًا بين الشجر كله : مثمرًا بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبهنا العلم الحديث إلى أن كل خضرة إنما تُنقى الجو بما تأخذ منه من ثاني أكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين : وتستمر الخضرة في ذلك نهارًا ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثاني أكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مبرمجة على فهم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحي فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سلماً ينهج لأن رثتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرَة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قبل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تَرْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطلق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ^(١) (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينَتٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّرٌ ^(٢) آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذي يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الرُّوح إلى الحُلُقُوم ؛ فهذه اللحظة هي المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المريء . أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١٦٧/١] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٢٦٩٨) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين ، غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاءً وصيفاً يؤكل تمى جميع الأوقات . » ثم قال : « وهذه الأقوال مستتاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره . »

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن يتسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ (١٧٧) [البقرة]

والبأس يعنى الحرب ؛ ومدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤) [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمى الذى يمتد إلى أن تتبدل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماءُ غيرَ السماء . إذن ؛ فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنّا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥) [إبراهيم]

وضَرْبُ المثل معناه إيقاع شىء صغير ليدل على شىء كبير ؛ أو بشىء جلى ليدل على شىء خفى ؛ لِيُقَرَّبَ المعنويات إلى وسائل الإدراكات الاولى . وهى مُدْرَكَاتِ الحِسِّ من سَمْعٍ وبَصَرٍ وبَقِيَّةِ وسائل الإدراك .

وحين تأتى المعانى التى تناسب الطموج العقلى ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التى توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحي - كما قال - أن يضرب مثلاً بالبعوضة وما فوقها^(١) . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يقل « وما تحتها » ؟ .

ونقول لمن يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملكة العربية ؛ ذلك أن المثل يضرب بالشئ الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدق .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للحياة الدنيا ، وهي الحياة التي من لدن خلق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناس أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يوضح لنا بالمثل ما يخص الحياة من لحظة خلق آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التي تستغرق أعمار أجيال - ويعطيها لنا في صورة مثل موجز ، فيقول لنا :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(٢) تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف]

(١) يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ (٢٤) [البقرة] قال ابن كثير في تفسيره (٦٤/١) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستكف أن يضرب مثلاً ما أي مثل كان بأي شئ كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحبها ما جاءت ، فإذا سمعت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك » .
(٢) الهشيم : النبات اليابس المتكسر . وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم . فبلغ الغاية في اليأس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب - مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء
ينزل وتبات ينمو لينضج ثم تذروه^(١) الرياح .

وايضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا فَكَاخِرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَرْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ^(٢) أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ^(٣) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا
ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٦٠) ﴾

[الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطولها وعرضها فى هذا
المثل البسيط لنرى ما يوضح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحَسَّنة
بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يدرك ما يريد الله منها .

ونعلم أن المُحَسَّنَات تدرك أولاً بعض الأشياء : ثم ترتقى إلى
مرتبة التخيل : ثم يأتى التوهم : فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى
الحس أولاً : ثم التخيل ثانياً : ثم التوهم ثالثاً .

والتخيل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج :
وإن كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمثل
على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أن يصف الوشم على يد حبيبته .
فقال :

(١) ذروا الهواء الشيء يذروه ذروا : أطاروه وبذروه . [القاموس القويم ٢٤٢/١] .
(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٦٠) ﴾ [الحديد] يحتمل أنه
كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات . ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه
ونباته . [القاموس القويم ٦٥/٢] .
(٣) أعاجت الريح الغيث : أليست . أى جعلته جافاً قد ذهب رطوبته . [لسان العرب - مادة :
هيج] .

خَوْضٍ كَانَ يَبْنَاهَا فِي نَقْشِهِ الْوَشْمَ الْمُزَرَّدُ^(١)
سَمَكٌ مِنَ الْبُلُورِ شَبَكٌ تَكُونُ مِنْ زَبْرَجَدٍ^(٢)

وحين تبحث في الصورة الكلية لتلك الآيات من الشعر : لن تجدها موجودة في الواقع ؛ ولكن الشاعر أوجدها من مكوّنات ومُفردات موجودة في الواقع ؛ فالسّمك موجود ومعروف ؛ والبلّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير الموجودة من أشياء موجودة بالفعل ، وهذا هو الخيال الذي يُقَرِّب المعنى .

والتوهّم يختلف عن الخيال ؛ فإذا كان التخيّل هو تكوين صورة غير موجودة في الواقع من مفردات موجودة في هذا الواقع ؛ فالتوهّم هو صورة غير موجودة في الواقع ، ومُكوّن من مفردات غير موجودة في الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿ فِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ .. ﴾ (٧١) [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها ما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(٣) .

(١) الخوشة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابع . والزرد : هو تداخل حلق الدرع بعضها في بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب - مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : وأعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك في كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٧) [السجدة] . .

وَالْعَيْنُ وَسِيلَةُ إِدْرَاكَ وَحُسْنٍ ؛ وَكَذَلِكَ الْأَذُنُ ، أَمَّا مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْقَلْبِ فَهُوَ لِيُشْرِحَهُ الْخِيَالُ أَوْ الْوَهْمُ .

وَهَكَذَا نَعْلَمُ لِمَاذَا يَضْرِبُ اللَّهُ لَنَا الْأَمْثَالَ ؛ لِيُوجِزَ لَنَا مَا يَشْرَحُ وَيُوضِّحُ بِأَشْيَاءَ قَرِيبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ الْبَشَرِيِّ .

وَأَنْتَ حَبِيبُ تَرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ لَصَدِيقٍ ؛ فَقَدْ تُمْسِكُ الْوَرَقَةَ وَالْقَلَمَ وَتُدْبِجُ رِسَالَةً طَوِيلَةً ؛ وَلَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَمْسِكُ وَقْتُكَ فَسَتَحَاوِلُ أَنْ تُرَكِّزَ كُلَّ الْمَعْنَى فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ .

وَكَلَّمْنَا يَذْكُرُ مَا كَتَبَهُ سَعْدُ زَغَلُولُ^(١) زَعِيمُ ثَوْرَةِ ١٩١٩ الْمِصْرِيَّةِ لِوَاحِدٍ مِنْ أَصْدِقَائِهِ يَعِدُ أَنْ سَطَّرَ لَهُ رِسَالَةً فِي خَمْسِ صَفَحَاتٍ ؛ وَأَنْهَاهَا : « إِنِّي أَعْتَذِرُ عَنِ الْإِطَالَةِ فِي الْخُطَابِ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي وَقْتُ لِلْإِيجَازِ » وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يُوجِزُ إِنَّمَا يَضَعُ مَعْنَى كَثِيرَةً فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ .

وَحِينَ طَلَبَ أَحَدُ الْقَادَةِ الْمُسْلِمِينَ الذُّصْرَةَ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؛ وَكَانَ الْقَائِدُ الَّذِي يَطْلُبُ الْمُسَاعَدَةَ مُحَاصِرًا ؛ وَأَرْسَلَ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كَلِمَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ « إِيَّاكَ أَرِيدُ » ، وَهَكَذَا اخْتَصَرَ الْقَائِدُ الْمُحَاصِرُ مَا يَرْغَبُ إِيصَالَهُ إِلَى مَنْ يَنْجِدُهُ ، بِإِيجَازٍ شَدِيدٍ .

وَالشَّاعِرُ يَقُولُ :

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوبَيْتُ أَتَّاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفٍ^(٢) الْعُودِ

(١) هو : سَعْدُ إِبْرَاهِيمَ زَغَلُولُ ، وَلَدُ فِي . إِيْبَانَةَ ، مِنْ قَرْيَ . الْغُرَبِيَّةِ ، عَامَ ١٨٥٧م تَعْلَمُ فِي كِتَابِ الْقَرْيَةِ ، وَدَخَلَ الْأَزْهَرَ ، وَانْصَلَ بِالسَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِي ، تَوَلَّى وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ وَوَزَارَةَ الْحَقَائِقِ (الْعَدَلِ) ، أَصْبَحَ رَمْزًا لِلثَّوْرَةِ بَعْدَ نَفْيِهِ إِلَى مَالِطَةِ . تَوَفَّى بِالْقَاهِرَةِ عَامَ (١٩٢٧م) . [الْأَعْلَامُ لِلزُّرْكَانِ ٢/٨٤] عَنْ ٧٠ عَامًا .

(٢) الْعَرَفُ : الزَّيْجُ : طَيِّبَةٌ كَانَتْ أَوْ خَبِيثَةٌ . وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : الْعَرَفُ ، الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ وَالْمُنْتَنَّةُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : عَرَفَ] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحق سبحانه يتيح لها لساناً حاسداً ليُثَرِّثَ وينبش وينقب ؛ لتظهر وتنجلي ؛ مثلما يوضعُ خشبُ العود - وهو من أرقى ألوان البخور - فى النار ، فينتشر عطُّره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل ليُوضِّحَ أمراً ما للقارئ أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثَل أيضاً :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَءًا لِنَوَالِهِ ^(١) وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءُهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الزُّرُودِ لَمَّا أَطَالَ رِشَاءُهُ ^(٢)

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرُّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إن كان الماء على بُعد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن قِطَاطة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالشَّناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب - مادة : نول] .

(٢) الزرود : العضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب - مادة : رشو] .

وهكذا يكون ضربُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥)

[إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأت ؛
فبيأتى المثل ليُذكر بالامر الفطري .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل
القُرب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أن يذكر لنا المقابل ،
وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول
سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ

فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦)

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق
الشاسع ؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتَنَّةٌ من فوق الأرض ؛ والجُثَّةُ كما نعلم
هي الجسد الذي خرجت منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثَّة يصير
رَمَةً ؛ ثم يتحلل إلى عناصره الأولى .

إذن : فالاجتناث هو استئصالُ الشيء من أصله وقُلْعُه من
جذوره ، أما المقابل في الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله
ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتَنَّةٌ ؛ وليس لها
قَرَارٌ تستقر فيه .

(١) جُثَّةُ الشيء : قطعه أو قلعه من جذوره . واجتته : استأصله أو اقتلعه . [القاموس القويم

وحين تكلم المفسرون عن الشجرة الطيبة منهم من قال إنها النخلة لأن كل ما فيها خير ؛ فورها لا يسقط ، ويبقى دائما كظل وكل ما فيها يُنتفع به .

فتحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة في بيسوت الرّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسي ؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال ؛ والخوص نصنع منه القُفُف .

والذين حاولوا أن يفسروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحنظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَات ؛ لكل هؤلاء أقول ؛ لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة في ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مزاجه متنوع ؛ ومقومات الحياة ليست هي الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئي قد صممه الحق تعالى ، وهو الأعلم منا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طيباً .

وكل شيء في الكون له عطاء مستمر يُشع في الجو ، والمثل هو تساقط أوراق الشجر التي تُعيد الخصب مرة أخرى إلى الأرض ، وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أي ؛ يُظهرها بعد أن كانت موجودة أزلاً ومخفية عنا .

وهو جلّ وعلا يرفع قوماً ويخفض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته ؛

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

وكلنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ في توقيت مُعين ، وينتهي في توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أى يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الايام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) .

فمعنى ذلك أن يد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليل يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْبَ دوران الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظَل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَهَا بأنها شجرة خبيثة . فلا شيء خبيث من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بئس قطع من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسِيء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِئْسِهَا ليصنع منها ما يفيدُه ؛ كحُطَّافٍ يَشُدُّ به شيئاً يلزمه .

وعُمدة الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمدة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصدُّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيب لمعجزات الرسل ؛ وإنكار لمنهج الله .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعري رضى الله عنه .

ولقائل أن يقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن هناك شجرة خبيثة : فلا بد أن توجد تلك الشجرة ، وأقول : إن كل ما يضر الإنسان في وقت ما هو خبيث ؛ فالسكر مثلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمرضى السكر ؛ وكل كائن فيه حسنات مفيدة ؛ وله جانب ضار في حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يميز ما يضره وما ينفعه .

ونلاحظ هنا في وصف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يقل إن تلك الشجرة الخبيثة لها فرع في السماء ؛ ذلك أنها مجتثة من الأرض ؛ مُخلّطة الجذور ؛ فلا سند لها من الأرض ؛ ولا مدد لها من السماء .

ولذلك يصفها الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦)

[إبراهيم]

أي : ما لها من ثبات أو قيام ، وكذلك الكفر بالله ؛ ومن يكفر لا يصعد له عمل طيب ، فلا أساس يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث ، أولها : أنها شجرة خبيثة وثانيها : أنها عديمة الأصل بغير ثبات ، وثالثها : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحاليتين ، فالأولى : أمن وأمان في الدنيا والآخرة . والحالة الثانية : ظلم بضلال ، وقلق بضنك ، وفي الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦) [إبراهيم]

لأن الذى يُجْتَنُّ لا ثبوت له ولا استقرار ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ..﴾ (٢٧) [إبراهيم]

وتوحى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطراً عليه
الأحداث التى هى نتيجة لاختيار المكلفين فى نفاذ حُكْم أو إبطاله ،
فالمكلف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفّذه ، وقد لا ينفّذه .

وكذلك قد يتعرض المكلف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفّذ هذا
المخالفُ تعاليمَ المنهج ؛ ويؤذى مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن
أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إن قُرب
أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ..﴾ (٢٧) [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثَبِّتُهم بها

(١) قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى الترمذى عن البراء بن عازب أنه قال : نزلت
فى عذاب القبر [تفسير القرطبى ٢٧٠١/٥] .

مهما كانت جسامة الأحداث : ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨)

[الرعد]

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت : فهو لا يتعرض لزيغ^(١) القلب : ولا يتزعزع عن الحق .

والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المثبت : فحين يُخلَّل عمود في جدار البيت : فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائم لتثبيت هذا العمود : ويتبادل الناس الإعجاب بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التي كادت أن تنهار ، وهذا ما يحدث في عُرْف البشر : فما بآلنا بما يمكن أن يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿ يثبتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

يرُدك إلى المثبت الذي لن يطرأ على تثبيته أدنى خلل . وكلمة « التثبيت » دلَّتنا على أن الإنسان ابن أغيار : وقد تحدث له أشياء غير مطابقة لما يريده في الحياة : لذلك فالمؤمن يجب ألا يخور : لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبت الذين آمنوا :

﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

(١) الزيغ : الميل . زيغ القلب : الميل عن الهدى والتقص . [لسان العرب - مادة : زيغ] .

والقول ثابت : لأنه من الحق الذي لا يتغير : وهذا القول موجه للمؤمنين الذين يواجههم قوم أشرار اختاروا أن يكونوا على غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا : وأن يجعلوا أنفسهم في معية الله دائماً ، وأن يعلموا أن الظالم لو علم ما أعدّه الله للمظلوم من ثواب وحسن جزاء لضمن الظالم بظلمه على المظلوم ولقال : ولماذا أجعل الله في جانبيه ؟

والذين اضطهدوا في دينهم : وقام الكفار يتعذّبهم : لم يفتنوا في الدين : فكلما قسا عليهم الكفار ضرباً وتعذيباً كلما تذكروا حنان الحق فتحملوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحسن الجزاء قد يكون في الدنيا التي ثبتت فيها المؤمن بمشيئة الله : وهي بنت الاغيار وبنت الأسباب ، فأنت في الدنيا تحوز على أي شيء بأن تتعب من أجل أن تحصل عليه ، وتكد لتتعلم : وتعثّر على وظيفة أو مهنة : ثم تتزوج لتكون أسرة : وتخدم غيرك : ويخدمك غيرك ، وتزاول كل أسبابك بغيرك : فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو من تستخدمه ليؤدي لك هذا العمل .

باختصار كلما ارتقيت : فأنت ترتقي بأثر مجهود ما . وكل متعة تحصل عليها إنما هي نتيجة لمجهود جاد منك : وأنت تحاول دائماً أن تقلل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فما بالك بالآخرة التي لا تكليف ولا أسباب فيها : وكل ما فيها قد جهّزه الحق تعالى مقدماً للإنسان : ثواباً إن آمن ، وعذاباً إن كفر وعصى ، وإن كنت مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك بجنة عرضها السماوات والأرض : فيها كل ما تشتهي الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثَبِّتُ الذين آمنوا في الدنيا بالقول الثابت
الحق فتثبيته لهم في الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ ۝ (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الارتقاءات الطموحية في الحياة تكون مناسبة للمجهود
المبذول فيها ، ولكن الأمر في الآخرة يختلف تماماً ؛ لأن الحق
سبحانه هو الذي يُجَازِي على قَدَرٍ طلاقة مشيئته ، وهو يُنَبِّئهم بدايةً
من سؤال القبر ونهايةً إلى أن يَلْقُوا الثواب على حُسْنِ ما فعلوا من
خير في سبيل الله .

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيت في الحياة الدنيا
والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يَأْتِيَ بالمقابل ، ويقول :

﴿ وَيُضِلُّ^(١) اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضِلُّ الظالم لأنه اختار أن يظلم ؛ وهو سبحانه قد
جعل للإنسان حَقَّ الاختيار ، فَمَنْ اختار أن يظلم ؛ لا بُدَّ له من
عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسَخَّرًا لهم ؛
وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافر كفره ؛
فهو لن يُنْقِذَ تكاليف الألوهية التي أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

(١) أي : يضلهم عن حاجتهم في قبورهم . كما ضلُّوا في الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة
الحق . فإذا سئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري . فيقول : لا دريت ولا تثبت . وعند ذلك
يُضْرَبُ بالمقامع على ما ثبت في الأخبار . [تفسير القرطبي ٢٧٠٢/٥] .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أنسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو رب العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطى كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافرًا ؛ فسبحانه يمدُّ له فى أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمدُّ الله للمؤمنين كل أسباب الإيمان مصداقًا لقوله الحق :

﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ^(١) ﴾ [٢٠]

[الأنعام]

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خير العبد ؛ وقد ذاقَت البشرية الكثير من ويلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خير السيد ؛ ويُغدق السيد إحسانه على عباده .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ^(٢) ﴾ [٢٨]

(١) المحظور : المنع . والمحظور : الممنوع . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الأنعام] أى : لا يمنع عطاء الله أحد . [القاموس الفيوم ١/١٦١] .

(٢) البوار : الهلاك . ودار البوار : دار الهلاك [لسان العرب - مادة : بور] . والمقصود بها جهنم . قاله ابن زيد . [ذكره القرطبي فى تفسيره : ٢٧٠٢/٥] . ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم] .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى . . (٢٨) ﴾

[إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخْبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشيء فهو أَصْدَق من أن تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبادلة بين اعتراف بالنعمة : ثم إنكارها .
كان هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتينا ببديل له . والحق سبحانه هو
القائل :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . . (٢٩) ﴾

[البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقوم
بأى تكليف إيماني قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هي الأصل ،
والتكليف إنما يأتي من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألا يعصى العبد
مَنْ أنعم عليه بكل النعم . وأن يتجه إلى التكليف بمحبة : كي لا يقلب
نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أقاء^(١) الله عليهم الخير ،
وجعل لهم الحرم آمناً :

﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي^(٢) إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ
لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

[القصص]

(١) أقاء الله عليه شيئاً : منحه غنيمة في الحرب بالنصر أو بغير الحرب . [القاموس القويم
١٢/٢] .

(٢) حبي الخراج والماء : جمعه . وقوله تعالى : ﴿ يُحْيِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥٧) .
[القصص] تجمع إلى الحرم المكي وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم
١١٧/١] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبي الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبي الذي ستدين له الدنيا والعالم في كل زمان ومكان : فلماذا يُبدلون تلك النعمة كفراً ؟

أما كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسن العبادة ؟ فهذا النبي الذي قال الحق سبحانه عن رسالته :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (١٤) [الزخرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكيف يُبدلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصحبه حتى قال ﷺ : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف ^(١) » .

وخرج لقتالهم في بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قبلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صدق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لطلبوا من الاصنام أن تعطيهم ؛ أو لرفضوا أن يأخذوا خير المُنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمقومات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مَقوم الروح .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف .. » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٣ . ٥٠٢ . ٥٢٦) .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾

[إبراهيم]

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حال في محل . ونعلم أن الظرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللت حدثا محل حدث ؛ فهذا يخص ظرف الزمان ، وحين تحل شيئا مكان شيء آخر ، فهذا أمر يخص ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾

[إبراهيم]

وهذا يعنى ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلّوهم إلى دار بوار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غشّوهم وخدعواهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أن قادتهم وأولى الأمر منهم يسلكون السلوك السيء وعليهم ألا يقلدوهم ؛ فَجَرُّوا عليهم الفتن واحدة تلو أخرى ، وترين^(١) الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لامة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتجث النفس اللوامة المؤمن ؛ فسيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوامة إلى نفس أمارة بالسوء وجدت في المجتمع المسلم من يزجرها .

(١) الرين : الصدا يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاة تغطي على القلب بسبب الذنوب . وران الصبا عليه : غلب عليه وغطاه كله . [القاموس القويم ٢٨٢/١] .

وبهذا تصبح أمة محمد ﷺ محصنة ضد الفتن التي تذهب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾
[آل عمران]

ويذكرنا الحق سبحانه بأن الرسول سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كل واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله ﷺ .

ومثلما شهد الرسول أنه قد بلغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمة محمد ﷺ أن يشهد بأنه قد بلغ ما علم من رسالة محمد ﷺ .

وكل منا يعلم كيف حدثت الغفلة الأولى ؛ حيث حدثت الغفلة من الأسوة ؛ فزاحمتهم الشهوات وارتكبوا السيئات ، فحين غفلت النفس ارتكبت المعصية ؛ وحين رأى الناس من يرتكب المعصية قلّده .

وهكذا حمل من وقع في الغفلة وزره ووزر من اتبعه بساأسوة السيئة ؛ فصار ضالاً في ذاته ؛ ثم تحمّل وزر من أضله أيضاً .

وهكذا صار من فعل ذلك هو من أحلّ قومه دار البوار .

والبوار يعنى الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرّفوا وسلّكوا بما يخالف المنهج أورثوا من اتبعوهم الهلاك .

ونحن في الريف نَصِفُ الأرض التي لا تصلح للزراعة بأنها
الأرض البُور^(١) ؛ وكذلك يُقال « قُمْنَا بتبوير الأرض » أى : أهلكنا
ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾

[إبراهيم]

نجد فسى كلمة « قومهم » ما يُوحى بالخسنة لمن يرتكبون هذا
الفعل الشائن ؛ فمن يهلك قومه لأبد أن يكون خسيسا ؛ ولابد أن
يكون محترف غش وخديعة ؛ فالقوم هم من يقومون معهم ؛ وكان
من اللائق أن تضرب على يد من يصيبهم بشر أو يغشهم
أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول :

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُنْسُ^(٢) الْقَرَارُ (٢٩) ﴾

وإذا قسنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد من يرغب في أن تكون
جهنم هي مقره ؛ لأن الإنسان يحب أن يستقر في المكان الذي يجد
فيه راحة ، ولو لم يجد في هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التي يَصْلَوْنَهَا لن تكون المقر الذي يجدون فيه أدنى

(١) بور الأرض : ما بار منها ولم يُعمر بالزرع . وقال الزجاج - البائر في النقة الفاسد الذي
لا خير فيه . قال : وكذلك أرض يائسة متروكة من أن يزرع فيها . [لسان العرب - مادة :
بور] .

(٢) أصلاهُ النار : أدخله إياها وأثراء فيها . وصلبت النار أى : قاسبت حرها . وصلّى اللحم :
شواه . والصلاء : الشواء ، لأن يُصلّى بالنار . [لسان العرب - مادة : صلى] .

راحة : لان العذاب مُقيم بها : ولذلك يصفها الحق سبحانه بانها :

﴿بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

فكأنهم ممسوكون بكلاليب^(١) فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهي تقول :

﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

وكانهم قد عَشَقُوا النار فعشقتهم النار . ولو كانت لديهم قدرة على أَنْ يَفْرُوا منها لَفَعَلُوا ، لكنهم مربوطون بها وهي مربوطة بهم : وهي بئس القرار : لان أحداً لن يخرج منها إلا أَنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣١)﴾

والند هو : المثل والمُشَاهيه . وهم قد اتخذوا لله شركاء : وإيَّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التي أسبغها عليهم ولم يُنْزِلْ لهم منهاجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم . ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً ، ولم يُنْزِلْ أى من هؤلاء الشركاء منهاجاً كي يتبعه مَنْ يعبدونهم : ولا ثواباً على العبادة : ولا عقاب على عدم العبادة .

(١) الكلايب : جمع كَلَابٍ ، حديدة مموجة الرأس ، كالخطاف ، [لسان العرب - مادة : كلب] .

وَالَّذِكَ نَجِدُ أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا اتَّجَهُوا إِلَى عِبَادَةِ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ ؛
لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

وَالَّذِكَ نَجِدُ الدَّجَالِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ ؛
وَيَتَصَرَّفُونَ مَعَ مَنْ يُصَدِّقُونَهُمْ مِنَ الْآتِبَاعِ ، وَكَانَهُمْ كَأَنَّاتِ أَرْقَى مِنَ
النَّبِيِّ ﷺ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْهُمْ - .

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّنَا نَجِدُ بَعْضًا مِنَ الْمُتَقَفِّينَ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ هَؤُلَاءِ
الدَّجَالِينَ . وَقَدْ يَتَعَدَّ عَنْهُ بِسَطَاءُ النَّاسِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الْفُطْرِيَّةَ تَحِبُّ
أَنْ تَعِيشَ عَلَى فُطْرَةِ الْإِيمَانِ ؛ أَمَّا مَنْ يَأْتِي لِيُخَفِّفَ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ ؛
فِيَهْوَاهُ بَعْضُ مِمَّنْ يَتَلَمَّسُونَ الْفِكَاكَ مِنَ الْمَنْهَجِ .

وَبِذَلِكَ يَجْعَلُ هَؤُلَاءِ الْآتِبَاعَ مَنْ يَخَفِّفُ عَنْهُمْ الْمَنْهَجَ نِدَاءً لِلَّهِ
- وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَيَضِلُّونَ بِذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ .

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ هُنَا :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ .. (٣١) ﴾ [إبراهيم]

أى : لِيُضِلُّوا غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

وَهُنَاكَ قِرَاءَةُ أُخْرَى ^(١) لِنَفْسِ الْآيَةِ « لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ،
وَأَنْتَ سَاعَةً تَسْمَعُ حَدَّثًا يُوْجِدُ لِيَجِيءَ حَدَثٌ كَنْتَاجَةُ لَهُ ، فَانْتَ تَأْتِي
بِـ « لَامِ التَّعْلِيلِ » كَقَوْلِكَ « ذَاكَرَ الطَّالِبِ لِيَنْجَحَ » هُنَا أَنْتَ لَمْ تَأْتِ
بِفَعْلٍ وَنَقِيضِهِ . وَهَلْ كَانُوا يَضِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ ؟

(١) هى قراءة ابن كثير وأبو عمرو . قاله القرطبي فى تفسيره (٢٧٠٣/٥) ثم قال : . أما من
فتح (أى الياء) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم . أى : عافيتهم
إلى الإضلال والضلال ، فهذه لام العاقبة .

لا ، بل كانوا يتصورون أنهم على هُدًى واستقامة ، وهذه تُسمى « لام العاقبة » وهي تعنى أنه قد يحدث بعد الفعل فعل آخر كان وارداً . وهذه تُسمى « لام تعليلية » .

ولكن قد يأتى فعل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريدُه ؛ كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التى أرادت ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكم فى الأحداث ، بداية من ادعاء الانوهمية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتى التقاطه لموسى ليكون قُرّة عين له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له !!

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٢٠) [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمى ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٢١) [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أن يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أن يُراد به الصّد عن الطلب بأسلوب تهكمى .

ونجد في قول الإمام على - كرم الله وجهه - قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرٌّ في شر بعده الجنة ، ولا خير في خير بعده النار » .
فَمَنْ يَقُولُ : إن التكليف صعبة ؛ عليه أن يتذكَّر أن بعدها الجنة ، وَمَنْ يَرَى المعاصي والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبَّب أو المقدمة عن النتائج .

فالآب الذي يجد ابنه يُلاحق المذاكرة في الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه . ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كي لا يقع في المرض ؛ فيصيح كالمُنْبِت^(١) ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً^(٢) أبقى ، ولكن الولد يرغب في مواصلة الجهد ليصل إلى مكانة مُشْرِفة .

وهنا نجد أن كلاً من الآب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلةً لالتقاءات الخير في الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ ﴾ [٢٠]

[إبراهيم]

قد يستبطنون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتي هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلُّ إنسان أن الأمر المُعَلَّق على غير ميعاد

(١) الانبئات : الانقطاع . ورجل مُنْبِت أى مُنْقَطِع به . [لسان العرب - مادة : بت] .

(٢) الظهر : الإبل التي يُحمل عليها ويُركب . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

مُحَدَّر : قد يأتى فجأة ؛ فَمَنْ يعيش فى معصية إلى عمر التسعين ؛
هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وأهمّ يخدع نفسه ، ذلك أن إيهام الله لميعاد الموت هو أعنفُ
بيان عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتعة فى تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَّا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ۖ ﴾ (٣٦)

و « قُلْ » من الله لرسول الله ﷺ . وهل معنى هذا أن العباد
الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؟ لقد سمعه
بعضهم ولم يقم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطع الأمر هو مَنْ حَقَّقَ شَرْطَ الإيمان ، وعلينا أن ننظر
إلى مُكْتَنَفَات كلمة « عبادى » فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين
يؤمنون فهم سيعبرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفهم معنى
الالفاظ لتستقيم معانيها فى أساليبها .

وكل خلق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله فى
طريقة خلقهم ، لا قدرة لهم على مخالفتها ؛ فهو سبحانه قد قهرهم
فى أشياء ؛ وخيرهم فى أشياء .

(١) خلال : إما جمع خُلَّة أو مصغر خالَه . والمعنى : أن يوم القيامة لا يتجى من عذابه
شئ ، فلا يباع فيه شئ بمال يقتدى الكافر نفسه به ، ولا صداقة تقيده ، فلا صديق
يُغنى عن صديق . [القاموس الفويم ٢٠٨/١] .

ولذلك أقول دائماً للمتَمَرِّدين على الإيمان بالله : لقد أَلْفَتم التمرّدَ على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبَعَ واحد منكم على رفض التمرّد ، فإن كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أن تتمرّدوا على التنفس ؛ فهو أمر لا إرادى ، أو تمرّدوا - إن استطعتم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم أَلْفُوا التمرّدَ على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عباد الله » ، وإن لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقرئ كلمة « عباد » وكلمة « عبيد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَرًا^(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ^(٢) قَالُوا سَلَامًا^(٣)﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهى مُلتصقة بمنّ يتمردون على منهج الله ؛ ولن تجد وصفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحقُّ جلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

(١) الهرّون : الرفق واللين والتثبت . والهرّون : السكينة والوقار والسهولة . [لسان العرب - مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس الفيوم ١/ ١٢٤] .

﴿ اَنْتُمْ اَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) [الفرقان]

ونلاحظ أن زمن هذا الخطاب هو في اليوم الآخر : حيث لا يوجد لأحد مُرتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعن في أن كلمة « عباد » إنما تستخدم في وَصَف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه في الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَمُوا زِمَامَ اختيارهم لله ، وأطاعوه في أوامره ونواهيهِ .

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ﴾ (٢٦) [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر لِيُنْفِذُوهُ فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفذ كل أمر يأتيهِ من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدقون^(١) لتنفيذ الأمر فور سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في جُمهرة آيات القرآن^(٢) تأديان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامة الصلاة تتطلب

(١) صدعت إلى الشيء . ملئت إليه . [لسان العرب - مادة : صدع] .

(٢) جاء هذا في أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة في الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد ممّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويؤدّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كلّ فرض حين يؤدّى في ميعاده لن يأخذ الوقت الذي يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبل المصلي على العمل بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف في حضرة مَنْ خلقه ، وَمَنْ رزقه ، وَمَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال » ^(١) .

والصلاة في كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة في آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هي جِماع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جِماع قيام الحركات العضلية كلها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) من رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلح
مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .
ولذلك قال ﷺ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١) .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة
وتتفرع منهما : ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ في الأركان
الخمسة للدين ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،
 وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن
استطاع إليه سبيلاً^(٢) .

وعرفنا من قَبْلُ كيف أخذت الصلاة كل هذه الأركان مجتمعة ؛
ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛
وفيها صَوْمٌ عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها
إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصلحة لها
بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سرّاً
وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٢ ، ١١٩ ، ٢٨٥) . والنسائي في سننه (٦١/٧)
والحاكم في مستدركه (١٦٠/٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال الحاكم :
صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ونماه : « حَبَّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا :
الثناء ، والطيب ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخاري في صحيحه (٨) من
حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

سرّاً كي لا يقع الإنسان فريسةً المِبَاهَاةِ ؛ والإنفاق علناً كي يعطى غيره من القادرين أُسْوَةٌ حسنة ، ولكي تمنع الآخرين من أن يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغيرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سرّاً ، واجعلها كما قال النبي ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطت يمينك »^(١) .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدى ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أُسْوَةٌ فعلية ، وعظّة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظّة سلوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدّوا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذى يبني مسجداً ؛ يعطى القادر غيره أُسْوَةٌ ليبنى مسجداً آخر ، وما أن يأتى رمضان حتى يصوم القادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوَةٌ لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٣١) [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل وعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيمينه ما تلقى شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . »

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتنفذها على الفور ؛
ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بيع أو شراء ، ولن يستطيع أحد
فيه أن يزكى أو يُصلى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عما
كان يجب أن تقوم به في الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هي ما أذن له الرحمن بها^(١) . ولذلك يأتي الأمر
هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سراً وعلانية من
قبل أن يأتي اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال .

والبيع - كما نعلم - هو معاوضة متقابلة ؛ فهناك من يدفع
الثمن ؛ وهناك من يأخذ السلعة . والخلال هو المخالة ؛ أي
الصديق الوفي الذي تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبين معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمَّا التَقِينَا قَرَبَ الشُّوقِ جَهْدَهُ خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِثَابَا
كَأَنَّ خَلِيلًا فِي خِلَالِ خَلِيلِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِثَاقِ وَغَابَا
وهذا يوضح أن المخالة تعني أن يتخلل كل منهما الآخر .

وفي الآخرة لن تستطيع أن تشتري جنة أو تفقد نفسك من
النار ؛ ولا مخالة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسنته .
والحق سبحانه هو القاتل :

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه] ويقول
أيضاً : ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ..﴾ [سج] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن
بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللشفوع فيه يعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون
والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أن يأخذوا على القرآن أنه أثبت الخلّة ونفاها : فهو القائل :

﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ (٣١) [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿وَلَا خُلَّةٌ ..﴾ (٢٥٤) [البقرة]

ثم أثبت الخلّة للمتقين : الذين لا يُزَيَّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحسنون تدبر القرآن : ذلك أن الخلّة المتّفية - أو الخِلَال المتّفية - فى الآيات هى الخِلَال التى تحضُّ على المعاصى : وهذه هى الخِلَال السيئة .

ونعلم أن البيع فى الحياة الدنيا يكون مقابلةً سلعة بشئ : أما المُخَالَة ففيها تكرم ممَّن يقدمها : وهو أمرٌ ظاهرى : لأن فى باطنه مُقايضة : فإذا قدّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقتضى أن تردّ له الجميل : أما التكرم المجرد فهو الذى يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيّن الأشقياء ، وضرب المثل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثل بالكلمة الخبيثة ، يأتى من بعد ذلك بما يهيج فى المؤمن فرحة فى نفسه : لأنه آمن بالله الذى صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ^(١) لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾

والسمااء والارض - كما نعلم - هما ظرفا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ (٥٧) [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والارض ؛ فهذا لفت لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يقل لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عمد^(٢) ؛ وليس فيها فطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الارض رواسى كى لا تميد^(٣) بنا الارض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الارض أقواتها^(٤) ، واكتفى هنا بلمحة عن خلق السماوات والارض .

(١) الْفُلْكَ : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

(٢) عَمْدٌ : جمع عمود . وقال القراء : فيه قولان :

- أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرواية إلى خبر .

- والقول الثانى : أنه خلقها بعد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب - مادة : عمد] .

(٣) ماد تميد : تحرك واعتد . ومادت الارض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ..﴾ (٥٥) [القمان] .

لثلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢٤٦/٢] .

(٤) الأقوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ..﴾ (٥٥) [قصص] أى : أقوات جميع سكان الارض من إنسان وحيوان وكل شئ .

حتى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢٢٦/٢] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْقِ السماوات والأرض يأتي بشيء لم يدعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون الزم في الحجة للخصم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يرون أنهم كفروا نتيجة لِدِدٍ^(١) غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حكماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سلم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكان الكافر منهم قد أدار الأمر في رأسه ، وعلم أن أحداً لم يدع لنفسه خَلْقَ السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفرّاً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦)﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مناطُ الصعوبة في التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تفضيرون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة .

ولم يأتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزلُ الأوامر والنواهي ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

(١) الدد : الخصومة الشديدة . والدّه يلدّه : خصمه . [لسان العرب - مادة : دد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كُلُّ ما علاك فاطَّلَكَ .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيِّم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي ^(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ^(٢) فَتَرَى الْوَدْقَ ^(٣) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن الطائرة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل يَفْزَلُ مماَّ يعلونا من غَيِّم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتي من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال وينضج في داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ ^(١) شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

(١) رَجَحَ بَزَجَه : دفعه بسرعة - وَرَجَا الشيءَ يَرْجُوهُ : سافه برفق . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : متجمعا فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ٢٧٦/١] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهَيْئَتِهِ . [لسان العرب - مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير في تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعنى : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدرع ونحوها . و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : في معاشهم كالسكة والنفاس والقودم والعمش والازمىم والآلات التى يستعان بها فى الحراة والحياة .. وما لا قوام للناس بدونها وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٢١٥/٤] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خُلق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء ؛

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. ﴾ (٤٢)

[إبراهيم]

والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضها منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكننا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكننا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٤٣)

[إبراهيم]

والتسخير معناه قهر الشيء ليكون في خدمة شيء آخر .
وتسخير الفلك قد يثير في ذهن سؤالاً : كيف يُسَخَّرُ الله الفلك ، والإنسان هو الذي يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين تأتي بالأخشاب التي نصنع منها الألواح التي نصنع منها الفلك ؟ ثم من الذي جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومن الذي سير الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتي مرة ويُراد بها الشيء الواحد ؛ وتأتي مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهي تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

وكذلك قال في قصة نوح عليه السلام :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التانيث عليه ؛ تكون جمعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكني أقول : إن هذا القول غير غالب ؛ فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهي مفرد :

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر]

ولم يقل : « يجرى بأعيننا » ، وهكذا لا يكون التانيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عذب الماء ؛ والبحر ماءه مالح . وسبحانه قد سَخَّرَ لنا كل شيء بأمره ، فهو الذي خلق النهر عذب الماء . وجعل له عمقاً يسمح في بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقاً القاع ليمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر
بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ .. ﴾ (٤٣) [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياح ساكنة : فتترك السفن
فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنبياءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن
الرياح التى تُسيرُ الفلك والسفن : قال الشكليون والسطحيون « لم نعد
تُسيرُ السفن بالرياح بل تُسيرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَعِثُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴾ (٤٦) [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قواكم وطاقتكم : فالمراد بالرياح القوة
المطلقة : سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنّا عنها - نزلت بعد أن
أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء
الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة
الله هذه ، فلمّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتمهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضَيَّب ، وتكريم
للعقل الذى فكّر فى الكون ، ونظر فيه نظرة اعتبار وتدبر ليستنتج
من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تفريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر
برب هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلَقَ السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية
النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلَقِ السماوات والأرض ؛ وشيء من
تلك النعم مُتَّصِلٌ بالسما : مثل السحاب ، وشيء متَّصِلٌ بالأرض
مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن : فالاستقامة السلوية موجودة بين النعمة الأولى وبين
النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ ۞ (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

فما هي المناسبة التي جعلتْ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟
لأن الْفُلْكَ طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض ، ومدلول
الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب
أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أمثال اليابسة ؛
ورُقْعَةُ الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمرًا هي
رِزْقُ لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت
البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها
للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى : وأوضح أنه سخر
البحر لناكل منه لحماً طرياً^(١) : وتلك مَقُومَات حَيَاة ، ونستخرج منه
حلية نلبسها : وذلك من ثَرَفِ الحَيَاة .

ونرى الفلك مواخر^(٢) فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى : ولكنها
جاءت بالإجمال لا بالتفصيل : فربما لم يكن الناس قادرين في عصر
نزول القرآن على أن يفهموا ويعرفوا كل ما في البحار من خيرات :
ولا تزال الأبحاث العلمية تكشف لنا المزيد من خيرات البحار .

وحين نقابل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات
التي فيه .

إذن : فقله :

﴿ لِبَتِّغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٦٦) ﴾

[الإسراء]

هو قول إجمالي يُلْخِص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير
الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات
أعماق البحار نتعجب من ذلك الخلق أكثر مما نتعجب من الخلق الذي
على اليابسة ، ومن خلق ما في السماء .

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ
تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسَخَّرُونَ حِلْيَةً يَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لِبَتِّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَتَعْلَمُونَ
تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر] .

(٢) مَخْرُوت السَّيْفِيَّة مَخْرًا وَمَخْرًا : شَقَّتِ الْمَاءَ بِصَدْرِهَا وَسَمِعَ لَهَا صَوْتٌ . [القاموس القويم
٢١٨/٢] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿لِتَتَّقُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التي تُفصلها آيات الكون : فبعض من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لما صدق الناس - على عهد نزول القرآن - ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلم سبحانه عن وسائل المواصلات :

قال :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

أدخل كل ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يوضح لنا ما يكمل الكلام عن الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

ولو فطن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وياك أن تقول : أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ
المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتُ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من
الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ،
فكلها أشياء جاءتُ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْاَنْهَارَ (٣٢) ﴾

[إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عذبا ليروى الأشجار التى تُنتج الثمار .
والأشجار عادة تحتاج ماء عذبا .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزنا ضخما
للمياه ؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة
شاسعة تنبع فُرصة لعمليات البَحْر ؛ التى تُحوّل الماء بواسطة
الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحابة ؛ فيُسقط السحابُ
الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَحْر من الأملاح وصار ماء عذبا ؛ تروى
منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتج لذا الثمار التى نحتاجها ، وكان
الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لحفظها وصيانتها من
العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون
دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس
لتُبَخَّرها ؛ لتصير سحابة ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطرا يُغذى الأنهار ؛
ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ^(١)
 وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ ﴾ (٣٣)

والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء الذى نشربه له علاقة بالشمس والتي تُبَخَّرُه من مياه البحار ؛ ونزوى به أيضاً الارض التى تنتج لنا الثمار ؛ اما البحار فحساب كُلِّ ما يجرى فيها يتم حسب التقويم القمري .

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبي الامي ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضم حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّابِّ ، والدُّؤوب هو مرور الشيء فى عمل رتيب ، ونقول « فلان دؤوب على المذاكرة » أى : أنه يبذل جهداً مُنظماً رتيباً لتحصيل موارده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

(١) ناب على الامر : اعتاده . ودائبين : أى مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجتهد . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْعُمُونَ سَبْعَ مِائِينَ نَابًا .. ﴾ (٤٧) [يوسف] .
أى : مداومين مجتهدين ذوى نَاب . [القاموس القويم ٢١٩/١] .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار :
ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة : ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً :

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا .. (٦) ﴾ [الأنعام]

أى : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أى منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسّر علينا أن نحسب بهما الزمن . فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلّ منهما فلكٌ خاصٌ^(١) وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشبهان بطبيعة الحال الساعات التى نستخدمها ونحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقىنا فى صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقربنا من عمق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ^(٢) لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

(١) الفلك . المدار يسبح فيه الجرم السماوى . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء] أى : فى مدار تدور فيه . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

(٢) سَخَّرَ : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من السَخَّرَ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ .. (٥٥) ﴾ [الاعراف] أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ٣٠٦/١] .

وبما أن الشمس آية نهارية : والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل في الوجود بالنسبة لنا . كان مُقتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية : ويسطع في الليل : والليل مخلوق للسكون : لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض : بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكده فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضوءه منها : ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكان الله قد اكتنف هذه الآية بتورين .

النور الاول : من الشمس . والنور الثانى : من القمر ، كى يعلم الإنسان أن حياته مُغلقة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظنن أيها الإنسان أن الأصل هو النوم : ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لرتاح : ثم تصحو لتكدح .

ونلاحظ أن كلمة « التسخير » تاتى للأشياء الجهرية ، وتأتى للمُسَخَّرَات أيضاً ، فالحيوان مُسَخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسَخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر : هما الشمس والقمر : والليل والنهار مُسَبَّبان عن شيئين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير - كما نعلم - هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسَخَّر هو الذى يتأتى فيه الاختلال : ذلك أنه قد يسير على جادة الصواب ، أو قد يُخطئ .

وفى مسألة التسخير والاختيار نَعِب الفلاسفة فى دراستها :
وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين
ظاهريهما التعارض : ولكنهما يسيران إلى غاية واحدة وهى تبريرُ
الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ منهما يُبرر الإلحاد ، وأن يُبررَ
الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أن يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة
قادرة حكيمة : وأن كُلَّ ما فيه منضبط بتصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التى نراها
فى الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان - على
سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر
من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع
عاجز ؛ ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك
الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية فاعطين : وإذا لم يكنْ هناك إله ،
أتستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فانت
تدفع الحكمة عن الخالق الذى تؤمن به ؛ فهل تستطيع أنت إثبات
الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أن يردُّ عليك ؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول : إن النظام الموجود بالكون
يدل على أنه لا يوجد له خالق ؛ فهو نظام ثابت آلى ؛ ولا يوجد إله
قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ؛ ومتعارضتين ؛ ولكنهما
يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً
على وجود إله ؛ فهذا الثبات موجود في الكون الأعلى . ويا من تأخذ
الشدوذ دليلاً على وجود خالق ؛ فهو موجود في الكائنات الأدنى ؛
ولو حدث الشذوذ في الكائنات الأعلى لفسدت السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه في الأفراد ؛
فواحد يكون شاذاً ، والباقي الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ في الأفراد غير مانع لقضية وجود خالق
أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ؛ كي تعلم أنه
لا يوجد للإنسان مدخل في هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سَجَّرَ لنا الليل والنهار ؛ وهما
من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس
والقمر دائبين ، يمشي كل منهما في حركته مشياً لا تنقطع فيه رتبة
العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد
- على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة ؛ ومواقيت
الصلاة .

وإذا نظرت إلى أي اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم
أن ذلك قد نشأ من تدخل الإنسان المُخْتَار المُسْتَخْلَف في الأرض ؛
والمثال هو مشكلة نُقَب طبقة الأوزون الموجودة في الغلاف الجوي ،
والتي قد نشأت من تجاربنا التي نلث فيها من أجل تحسين حياتنا
على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجربة بأفق محدود ، ونفصل النظرة الجزئية عن النظرة الكلية المطلوب منا أن ننظرَ بها لكل ما يحيط بنا في الكون ؛ فننسب بهذا اللهُث في التجارب في إفساد الكثير من اسرار حياتنا على الأرض ؛ حتى بثنا نشكو من اضطراب الجو برداً وصقيعاً ؛ وحرّاً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخل الإنسان المختار فيما لا يجب أن يتدخل فيه إلا بعد أن يدرس كل جوانبه . وقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ..﴾ (٤١) [الروم]

ولذلك لا بُدَّ من دراسة المقدمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التي قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبية لكل اختراع علمي كي نحميَ البشر من سيئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْفُ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..﴾ (٢٤) [الإسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مُشكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخلنا بغير علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمة الخالق الأعلى ؛ ذلك

(١) ففاه يقفوه : مشى خلفه أو تبعه . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..﴾ (٢٤) [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً . ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

أننا لما خرجنا بالمُخترعات العلمية وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا
أن في ذلك مكسباً كبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً في بعض الأحيان نتيجة
الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه : « بما اكتسبت أيدي الناس » بل
قال :

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. ﴾ (١١)

[الروم]

وفى الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (٢٢)

[إبراهيم]

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر : يُسبِّبُ تعاقبَ مجيء
الليل والنهار .

ولا يعنى ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ؛ فهو
موجود ، ولكن ضوء الشمس المُبهر يمنعك من أن تراه ، ولكن هناك
أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهار فهما يتتابعان كل منهما خَلْفَ الآخر . والحق
سبحانه هو القائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. ﴾ (٢٢)

[الفرقان]

أى : أنهما لا يأتیان معاً أبداً ؛ فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبت لنا الدأب فى الحركة ؛ فكلُّ منهما يأتى عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خَلْفَهُ ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ؛ فكان الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجه للشمس ؛ فى مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعض من نعمه الكلية علينا نحن العبياد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وشمسرات تنبت من الأرض ، وكذلك سَخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكان الله ينبهنا إلى أصول النظام الكونى الاعلى ، ثم فتح المجال لنعم أخرى لن يستطيع أحد أن يُحصيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤)

نعم . أعطانا الحق سبحانه مما نسال وقبل ان نسال ، وأعد الكون لنا من قبل ان نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل ان نسال ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكون آدم ، وهو مُعدٌ لاستقباله .

وإذا نظرت للفرد منا ستجد ان نعم الله عليه قد سبقت من قبل ان نعرف كيف نساله ، والمثل هو الجنين في بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ..﴾ (٢٤) [إبراهيم]

يعنى : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقته به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنت قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة فى التحدى - والله المثل الأعلى - نجد بعض البشر ممن أفاء الله عليهم بجزيل نعمه : ويقول لواحد منهم : قل لى مانا تطلب ؟

وقد حدث معى ذلك ونحن فى ضيافة واحد ممن أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا فى رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لى : أطلب أى شىء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ فى أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان رده إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر ! فما بالناس بقدررة الله على العطاء ؟
ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴾ (٢٤)

[إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاء حكمة ، ووراء كل منع حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحق سبحانه منزه عن أن يكون موظفاً عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. ﴾ (١١)

[الإسراء]

ولذلك قلنا :

﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴾ (٢٤)

[إبراهيم]

أى : بعض مما سألتُموه ، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يجيبكم الله عليها : مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقيني نارك » هذه السيدة : لو أذاقها الله نارَ العقاب ابنها : ماذا سوف تفعل ؟

إنن : فمن عظمته سبحانه أن أعطانا ما هو مطابق للحكمة : ومنع عنا غيرَ المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمنع نعمة أيضاً ، ولو نظر كل منا لعطاء السُّبب : لوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه :

﴿ سَأَرْيَكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (٢٧)

[الأنبياء]

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوتُ ربِّي ولم يَستجِبْ لِي » وعلى الإنسان أن يتذكَّرَ قَوْلَ الحق سبحانه :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١ ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدٌ منا يستطيع أن يعدَّ نَعَمَ الله . والعدُّ - كما نعلم - هو حصْرٌ لمفرداتٍ جَمْعٍ أو جزئياتٍ كُلِّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق - ونسميهم المَنَاطِقَة - أن هناك « كُلِّي » يقابله « جُزْئِي » ، وهناك « كُلِّ » يقابله « جزء » .

والمَثَل على « الكلِّي » الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكوِّنِينَ من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى « كل » فالمَثَل عليه هو الكرسي ، وهو مُكوَّن من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغراء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسي ؛ وكذلك لا نستطيع أن نُسمِّي « المسامير » بأنها كراسي .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكلِّي أن مفرداته متطابقة ، وإن اختلفت أسماءها ، لكن حقيقة الكل أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف في حقيقتها .

وإذا أردت أن تُحصي الكلِّي فانتِ تنطق بأسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلي ؛ وهذا ما يُسمَّى عدًّا ، وهكذا نفهم أن العدَّ هو إحصاء جزئيات الكلِّي ، أو إحصاء أجزاء الكلِّ .

ونعلم أنهم قد سَمَوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصى ؛ وأطلقت كلمة الإحصاء على مُطلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلى أو الكل .

وكان الإنسان في العصور القديمة يَعدُّ - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمَّع لديه عَشْرُ حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفي كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زِلْنَا نُسَمِّي بعض الأشياء بِمُسَمَّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. ﴾ (٢٤)

ستجد الكثير من المعاني ، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غَيْرُ دقيق ؛ فما دام قد حدث العَدُّ ؛ فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسونَ أن المقصود هنا ليس العَدُّ في ذاته ؛ ولكن المقصود هو إرادة العَدِّ .

ولو وُجِدَت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً في آيات الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عَدِّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان في إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثَّل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده في قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. ﴾ (٦)

[المائدة]

ونحن لا نفعل وجوهنا لحظة أن نقوم بالصلاة ؛ ولكننا نفعلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يؤذن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة ، فكان القول هنا يعني : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا .

ونعلم أن ذكر الشيء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الأذان قد أذن في المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجرى لتلحق بالإمام وتُدرِك الصلاة^(١) ؛ لأنك في صلاة من لحظة أن توضأت وخرجت من بيتك للصلاة ؛ وإياك أن تفعل حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد يسكينة ووقار لتؤدي الصلاة مع الإمام^(٢) .

وحين نقابل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۖ .. ﴾ (٢٤) [إبراهيم]

ستجد أن العادة في اللغة هي استعمال « إن » في حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المتيقن فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق :

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبي بكرة رضي الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع ، فركع دون نصف ثم مضى إلى الصف ، فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال : « أيكم الذي ركع دون الصف ثم مضى إلى الصف ؟ » فقال أبو بكرة : أنا ، فقال النبي ﷺ : « إنك الله حرصت ولا تهمل » أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٩ ، ٦٨٠) ، والبخاري في صحيحه (١١٩/٢) ، ٢٦٧ - فتح الباري) وأحمد في مسنده (٣٩/٥ ، ٤٢) .

(٢) وهذا اسمعني مأخوذة من الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه (٦٠٢ - المساجد) عن أبي قتادة قال : بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ ، فسمع جلبة فقال : « ما شأنكم ؟ » قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أنيتم الصلاة ، فليكن السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فاتموا » .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مقدّمًا أنه سيعجز عن إحصاء نعم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلى « الكمبيوتر » لم يستطع أحدٌ ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نعم الله فى الكون ، ذلك أن العدد والإحصاء يقتضى كلياً له افراد ، أو كلاً له أجزاء .

وانت إن نظرت إلى أى نعمة من نعم الله : قد تظنها نعمة واحدة ! ولكنك إن فصلت فيها ستجدّها نعمًا متعدّدة وشتى ، وهكذا لا يوجد تناقض فى قوله الحق :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

وانت إن أخذت نعمة المياه ستجدّها نعمًا متعدّدة : فهى مكوّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ؛ وإن أخذت نعمة الأرض ستجد فيها نعمًا كثيرة مطمورة . وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمورة فيها نعمٌ متعدّدة ، ولا تُحصى .

وحين تنظر فى قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

تجد ثلاثة عناصر : هي المُنْعَم : والنعمة التي حَكَمَ الحق سبحانه
أنك لن تحصيها ، وأن خَلَقَه لم يضعوا أنوفهم في أنَّ يعدُّوا تلك
النعمة ! فهي لا تحصى لأنها ليست مظنة الإحصاء : ولا يقبل عاقل
أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه ، وهو الإنسان الذي قد يعجز
عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه - فما بالك بنعم الله التي
لا تحصى ، وكمالاته التي لا تُحَد ، وعظائمه الذي لا ينقذ ؟ والله المثل
الأعلى ، فهو المنزَّه عن المثل .

ثم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢١)

[إبراهيم]

وهذا في سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه
وكفره بالنعمة ، وفي كفره بالنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٧٨)
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا (٧٩) وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٨٠) ﴾

[إبراهيم]

وهؤلاء هم مَنْ ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان
بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه : وما كان يصح أن يرى كل تلك
النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن
بعضاً من البشر بدَّلوا نعمة الله كفرًا : وهكذا صاروا ممَّنْ يُطْلَق على
كل منهم أنه ظلوم في الحكم ! وأنه كَفَّار ! لجحوده بالنعمة ونكرانه
عطاء الخالق للمخلوق .

(١) صنى اللحم وغيره يصلبه صلباً : شراه ، والصلاء : الشراء والإحراق ، وصلى بالنار :
قاسى حرَّها واحترق . [لسان العرب - مادة : صلا] .

وانظر إلى قول الحق سبحانه في سورة النحل :

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصى عطاءات الله التي فوق العدِّ والحدِّ ؟ ففي الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهي .

العمرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٦] .

إن بعضاً ممن يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن
مرة :

﴿إِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾

[إبراهيم]

ثم يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل]

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذى جاء فى كل
آية ، وعميت بصيرتكم عن معرفة أن سياق الآية - التى نحن بصدد
خواتمها عنها - قد جاء فيها ذكر النعم وذكر الجحود والكفران
بالنعم ! وهذا ناشئ عن ظلم الإنسان لنفسه بالظلم العظيم .

وفى آية سورة النحل جاء بذكر النعم ، ورغم ظلمنا إلا أن
رحمته سبحانه وسعَّتْنا ، ولم يمنع عنا ما أسبغناه^(١) علينا من نعم .
وكأنه سبحانه يوضح لنا : (ياكم أن تستحوا أن تسألونى شيئاً : وإن
كنتم قد ظلمتم وكفرتم فى أشياء ، فظلمكم يقابله غفران منى ،
وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارض بين الآيتين !
بل كل تذييل لكل آية مناسب لها ، وفى الآية الأولى يعاملنا الله
بعده ، وفى الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم]

(١) أسبغ الله النعمة : اكتملها واتمها ووسعها . وسيعت النعمة : اتسع . والشيء السابغ :
الكامل الواقع . [فسان العرب - مادة : سبغ] .

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وينعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِفُ الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلُومٌ كَفَّارٌ ؟
ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطْلِقَتْ من غير استثناء فهي تنصرف إلى الخُسْرَانِ والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير في الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّحَ لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا
وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أي « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبِّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للسَّالِقِ الرَّبِّي ، لذلك قال « رَبِّي » ولم يَقُلْ « يا الله » لأن عطاء الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير في أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ .. (١٣) ﴾ [البقرة]

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبي ٢٧٠٦/٥] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تأت مسألة إبراهيم هنا قَفْرًا ؛ ولكنَّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سَيَسْمَعُهُ هُمُ السَّادَةُ مِنْ قَرِيْشٍ ؛ الَّذِينَ تَمَتَّعُوا بِالْمِهَابَةِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَلَا يَجْرُوْ أَحَدٌ عَلَى التَّعَرُّضِ لِقَوَافِلِهَا فِي رِحْلَتَيِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ لِلْيَمَنِ وَالشَّامِ ؛ وَهُمْ قَدْ أَخَذُوا الْمِهَابَةَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التي تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد وردت هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ۖ ۝ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلدًا » يحتاج منا أن نشرحه ، فـ « بلدًا » تعني أن المكان كان قَفْرًا^(١) ؛ ودعا إبراهيم أن يصبح هذا المكان بلدًا آمنًا أي : أن يجد مَنْ يقيمون فيه ، يُجَدِّدُونَ حاجاتهم ومُتَطَلِبَاتِهِمْ ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضًا شمل طلب الأمن ، أي : ألا يوجد به ما يُهدِّد طمأنينة الناس على يومهم العادي ووسائل رزقهم .

(١) القفر والغفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرَت الأرض : خلت من الكلا والناس . (لسان العرب - مادة : قفر) .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً : وجعله سبحانه آمناً آمناً عاماً : لأن الإنسان في أي بقعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوكلن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مقومات حياة ومن عدم تفزيعة تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان في أي أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أن نزل هذا المكان ، وكان وادياً غير ذي زرع : ولا مقومات للحياة فيه : فكان دعاؤه هذا الذي جاء ذكره في سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً : وكان الدعاء بالأمن لثاني مرة : هي دعوة لأمن خاص : ففي غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة : أو يصطاد صيّد : ولكن في هذا المكان هناك أمنٌ خاصٌ جداً : أمنٌ للنبات ولكل شيء يوجد فيه : فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه : وحتى قاعل الجريمة لا يُمسّ^(١) .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثاني : فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام : والدعاء الثاني : هو دعاء بالأمن الخاص : ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقق فيه الأمن العام : ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط نبطه إلا من عرفها ولا يُختلَى خلاها ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنك لقينهم وليبوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَمًا
آمنًا ؛ قلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس في
الحرم ؟

ونقول : وهل كان آمن الحرم أمرا « كونيًا » ، أم تكليفا شرعيا ؟
إنه تكليف شرعي عُرِضَ أَنْ يُطَاع ، وعُرِضَ أَنْ يُعْصَى .
وقوله سبحانه :

﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. ﴾ (٩٧)

[ال عمران]

يعنى ان عليكم أيها المتبعون لدين الله أَنْ تُؤْمِنُوا مَنْ يَدْخُلُ الْحَرَمَ
أنهم فى آمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفي والأمر الكونى .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣٠)

[إبراهيم]

وهو قَوْلٌ يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو
ابن لُحَيٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْلٌ يحمل
تنبؤا من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أَنْ يسأل : وكيف يدعوا إبراهيم بذلك ، وهو النبی
المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أَنْ يُجَنَّبَهُ عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أَنْ يدعوا ربه بدوام ما هو
عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفي منه سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴾ (١٣٦)

[النساء]

وهو أمرٌ بالمدامنة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. ﴾ (٨٩) [الاعراف]

وفى هذا القول ضراعة إلى المنعم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاح لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣٥) [إبراهيم]

والصنم غير الوثن^(١) ، فالمُشْكَلُ بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحجر فقط والتي خصّها بعض من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أن يخرج بنا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جلى ؛ وشرك خفى . والشرك الجلى أن يعبد الإنسان أى كائن غير الله ؛ والشرك الخفى أن يُقدّس الإنسان الوسائط بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة آدمى تُعمل وتُشعب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب - مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجَنَّبَهُ وبنيه أنْ يَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُونَ إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ^(١) فَأَتَمَّهُنَّ ۖ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ .. (١٢٥)﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبيّقة وأمانة . وإذا كان هذا هو دستور الله فى الخلق ؛ فلا بدّ لنا من أن نتخلّق بأخلاق الله . وعلينا ألا نختار أى إنسان لآية مهمة ليكون إمامها ، إلا إن كان كفءً لها ويحسن القيام بها .
ولنتذكر قوله ﷺ :

« إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » . قال السائل له عن موعد

(١) الكلمات : جمع كلمة ، ومى منا أحكام الدين وتكاليفه . [القلموس النبوي ١٧٣/٢] وقال ابن كثير فى تفسيره (١٦٥/١) . « الكلمات : الشرائع والأوامر والنهائى . »

قيام الساعة : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ » الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »^(١) .

ذلك أن إسناد أى أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أى أمر لآى إنسان أن يكون بهدف أن يقوم بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أسوة فى السوء ؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتيان إلى غيره ؛ ويتفشى السوء فى المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أَهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعادل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربوا فى السعودية ؛ ورأوا أن يد السارق تُقَطَّع ؛ لم تجد منهم مَنْ يسرق ؛ لأنهم تربوا على أن السارق تُقَطَّع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أن يضع عقوبة قاسية ؛ فليس هذا إذن يأن تقع الجريمة ؛ بل ألا تقع الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعون التحضر : كيف يقول القرآن :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٤٦) ﴿ [البقرة]

وحين تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

(١) وُسِّدَ : أُسْنِدَ . وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة - وسد) : « يعنى إذا عُوِّدَ وشُرِّفَ غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثل هذا الحرص على كرامة الدين يُهَيِّبُ الناس أن يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحق مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٢) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكَلِّفُه حياته لو أراد أن يخرج منه . لأنه خرج من اليقين الذي دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٠) ﴾

[إبراهيم]

كان قد نجح في اختيار الله له ، ونجح في أداء ما أُسند إليه تماماً : وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضع الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بُنوة لَحْمٍ

ودم : بل بِنُوءِ اتِّبَاعِ وَاقْتِدَاءِ ، وَكَلَّمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ قَالَ
لنُوحٍ عَنْ ابْنِهِ ^(١) :

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٤٤) [هود]

وَنَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ عَنْ سَلْمَانَ الَّذِي كَانَ فَارِسِيًّا :
« سَلْمَانٌ مِنْ آلِ الْبَيْتِ » ^(٢) .

وَفِي هَذَا تَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ بِنُوءَ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ بِنُوءُ اتِّبَاعٍ وَاقْتِدَاءٍ .
وَيَسْتَكْمِلُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ! فَتَجِدُ وَعَى
خَلِيلِ الرَّحْمَنِ بِمَا تَفْعَلُهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣١)

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٤٦/٢) : « هَذَا مِنْ الْإِبْنِ الرَّابِعِ ، وَاسْمُهُ يَامُ وَكَانَ كَافِرًا » .
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْعَدٍ تَابِعٍ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦١) قَالَ مَكْرِي
إِنِّي يَتَكَلَّمُ بِمَعْصِيَةِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُفْرَقِينَ ﴾ (٤٣) [هود] ثُمَّ سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ سَوْأَلَ اسْتِعْلَامٍ وَكَشَفَ عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ
فَقَالَ : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٦٢) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٤) [هود] .

(٢) عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمَذَنِي قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَنْدَقَ عَامَ الْأَحْزَابِ مِنْ أَجْمِ السَّمُرِ
طَرَفَ بَنِي حَارِثَةَ حَتَّى بَلَغَ الْمَدَادَ ، ثُمَّ قَطَعَ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا بَيْنَ كُلِّ عَشْرَةٍ ، فَاخْتَلَفَ
الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فِي سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : سَلْمَانٌ
مِّنَّا . وَقَالَتِ الْمُهَاجِرُونَ : سَلْمَانٌ مِّنَّا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَلْمَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ » .
أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَالِ الْبُيُوتِ (٤١٨/٣) وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٥٩٨/٢) وَضَعَفَ
الذَّهَبِيُّ [سَنَدَهُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ] .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضِلُّ أحداً^(١) ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها يدعَوِي أن لتلك الأصنام الوهية ؛ ولا تكليف يصدر منها ، هم الذين يضلُّون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامي « على حلِّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَنْ تَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [إبراهيم]

وهذه تعقيبات في مسألة الغفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرة يعقبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة]

ومرة يعقبها :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العظمى أو جريمة القمّة ؛ مثل مَنْ يدعى أنه إله ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أن يقول لهم هو ذلك .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٧٠٦/٥) : « لما كانت - الأصنام - سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل » .

وقد قال عيسى - عليه السلام - بسؤال الحق له :

﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (١١٦) [الساعة]

فيأتي قول عيسى عليه السلام :

﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القول :

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨) [المائدة]

وهكذا تأتي العزة والمغفرة بعد ذكر العذاب ؛ فهناك مواقف تناسبها العزة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحد يقادر على أن يردَّ الله أمرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .
وقوله الحق :

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ..﴾ (١٣٦) [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمقدمات الصدرية في الآية . وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذي أوحى إلى عبده القرآن :

﴿سَتَقَرُّنَاكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (١) [الأعلى]

فما الذي يجعله يقول في آية :

﴿الْفَقُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) [الزمر]

وفي آية أخرى :

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨) [المائدة]

مع أن السياق المعنوي قد يوحي من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذي يجعله سبحانه يقول في آية بعد ان يُذَكِّرنا ان نَعْم الله
لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) [إبراهيم]

ويقول في آية أخرى بعد أن يُذَكِّرنا بِنِعَمِ الله بنفس اللفظ :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٨) [النحل]

وكذلك قوله :

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (٦٦) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٦٧)﴾ [عيسى]

ثم قوله في آية أخرى :

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها
يحمل اسرار المراد .

وكلُّ ذلك يأتى تصديقاً لقوله الحق :

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) [الاعلى]

لان الحق سبحانه وتعالى شاء أن يُنزل القرآن على رسوله ،
ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أو مكان آية من الآيات أبداً ،
ذلك أن الذى قال :

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) [الاعلى]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَنْبِكَ
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ونفهم من التعبير في هذه الآية أن المكان لا يصلح للزراعة ؛ ذلك
أنه أرض صخرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقول إبراهيم
- عليه السلام - :

﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم]

أي : لا أمل في زراعتها بمجهود إنساني ، وليس أمام تواجد
الرزق في هذا المكان إلا العطاء الرباني . ولم يكن اختيار المكان
نتيجة بحث من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهي ، فسبحانه
هو الذي أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار
الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِنْدَ يَنْبِكِ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم]

(١) قال الفريسي في تفسيره (٢٧/٩/٥) : « قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ يَنْبِكِ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم] يدل على أن البيت كان تديماً على ما روي قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه
لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أي : يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع
واستحلال ، وقيل : محرم على الجبارة ، وإن تنزهت حرمة ، ويستحق بحقه .. »

فهذا يعنى حيثية الرضا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفاً يجب أن يُنفذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حبّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل فى حكاية الرجل الذى قابله الأصمعى^(١) عند البيت الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إني قد عصيتك ، ولكنى أحب من يطيعك ، فاجعلها قرّة لى » ، فقال الأصمعى ما يعنى أن الله لا بد أن يغفر لهذا الرجل لحسن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحبّ التكليف ولو لم يقم به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يسعده .

فالتكليف عندما يقوم به أى إنسان ؛ فذلك أمر فى صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٢)﴾ [الفاتحة]

أى : أن كلاً منا يحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبل من واحد فتدخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لمن يرتكب معصية : عليك ألا تغضب ، لأن هناك من يطيع الله ؛ بل أفرح به ؛ لأن فرحك بالمطيع لله ؛ دليل على أنك تحبّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفى هذا الحبّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم - عليه السلام - عن الوادى الذى أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زرع ، وقد

(١) هو : عبدالملك بن قريش الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، واحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، كان كثير التملّوف فى الديوانى ، توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً ، [الاعلام للزركلى ١٦٢/٤] .

جاء هو إلى هذا المكان لِيُنْفِذَ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار في هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذن لن يضيعنا » ^(١) .

ويُقَدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة في هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ۖ ۞ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوةً سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلا بُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أخذ الأمر بالوجود في مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقَوِّماتها شيء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلا بُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقَوِّم الأول للحياة هو المأكَل والمشْرَب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ۖ ۞ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفتدة جمع « فؤاد » ، وتُطَلَّق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة . ألتى أم يكن فيها أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هناك . ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم تركهما وذهب ، فعالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا . ذكره القرطبي في تفسيره (٢٧٠٧/٥) .

بالحجيج علاقةً قوية : لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب : لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظى بأداء تلك الفريضة^(١) .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معانٍ متعددة ، فلك أن تقولَ « هَوَى » أو تقولَ « هَوَى » ، فإن قلتَ « هَوَى يهوى » من السقوط من مكان عال : دون إرادة منه فى السقوط : وكأنه مقهورٌ عليه ، وإن قلتَ : « هَوَى يهوى » فهذا يعنى أحبَّ ، وهو نتيجة لميل القلوب ، لا ميل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

فهم فى مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام : ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق :

﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِبُ^(٢) إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ
لَدُنَّا .. ﴾ (٥٧)

[القصاص]

(١) قال ابن عباس ومجاهد . لو قال : « أفْتِدَاةُ النَّاسِ » لارتفعت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس . ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبي فى تفسيره (٢٧١١/٥) ، والسيوطى فى « الدر المنثور » (٤٨/٥) .
(٢) جبا يحبب المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُحِبُّ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٥٧) [القصاص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس الفويم] ١١٧/١ .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة
 « يُجْبَى » تدل على أن الأمر في هذا الرزق القادم من الله كأنه
 جباية ؛ وأمر مفروض ، فتكون في الطائف مثلاً وفيها من الرمان
 والعنب وتحاول أن تشتريه ؛ فتجد من يقول لك : إن هذا يخص مكة
 المكرمة ؛ إن أردت منه فذهب إلى هناك .

وتجد في كلمة :

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾

[القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فانت في مكة تجد بالفعل ثمرات كل
 شيء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمة من
 كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النمو الحضاري والعقول المُفكّرة
 وهي معروضة في سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط
 والإمكانات وقد تمت ترجمتها إلى واقع ملموس في كل أوجه الحياة
 هناك .

وقديماً عندما كنّا نؤدى فريضة الحج ؛ كنّا نأخذ معنا إبرة
 الخيط ؛ وملح الطعام ؛ ومن بعد أن توحّدت غالبية أرض الجزيرة
 تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صرنا نذهب إلى هناك ،
 ونأتى بكماليات الحياة .

ونلاحظ قول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْمَلْ أَفْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٢٧) ﴾

[إبراهيم]

فكلمة « من » توضح أن مَنْ تهوى قلوبهم إلى المكان هم قطعة من أفئدة الناس ، وقال بعض من العارفين بالله^(١) : لو أن النص قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً في الحبيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

فاقتصر الحبيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُستكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢٨)

وبعد أن اطمأن إبراهيم - عليه السلام - أن لهذا البلد أمناً عاماً وأمناً خاصاً ، واطمأن على مقومات الحياة ؛ وأن كل شيء من عند الله ، بعد كل ذلك عاودته المسألة التي كانت تشغله ، وهي مسألة تركه لهاجر وإسماعيل في هذا المكان .

وبعض المفسرين قالوا : إن الضمير بالجمع في قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ .. ﴾ (٢٨)

[إبراهيم]

(١) نقل السيوطي في الدر المنثور (٤٨/٥) عن السدي معزواً لابن أبي حاتم أنه قال في تفسير هذه الآية : « أخذ بقلوب الناس إليهم ، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ، فذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلق بحب الكعبة » .

مقصود به ما يُكَنِّه من الحبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعَلِّنه من
الحقِّاء الذي يُظهِره لهما أمام سارة ، وكأن المعانى النفسية عارِدتْ
لحظة أن بدأ فى سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هى الأخرى تعيش موقفاً صعباً ؛ ذلك
أنها قد وُجِدَتْ فى مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كَتَمَتْ
نوازعها البشريَّة طوال تلك الفترة وصبرت .

ولحظة أن جاء إبراهيم ليُودِّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل
تتركنا من رايك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل
هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالته قد تحقَّق ؛ ولم يَضيعَهما الله .
وحين يعطش وحيدها تجرى بين الصفا والمروة بُحْثاً عن مياه ؛
ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَيْ ابْنها فى المكان الذى تركته فيه ؛
ويبدأ بئر زمزم^(١) فى عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التى
لا تنضب^(٢) .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم - عليه السلام - فى أن الله يعلم
ما تُسِرُّ وما تُعلن ؛ ذلك أن كل مُعلن لا يكون إلا بعد أن كان مخفياً ،
وعلى الرغم من أن الله غيبٌ إلا أن صلَّته لا تقتصر على الغيب ؛ بل
تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظلوف فى السماء أو الأرض
معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً فى ذهنك هو معلومٌ لله من قبل
أن يتحرك ذهنك إليه .

(١) يُقال : ماء زمزم ؛ كثير بين الملح والعذب . [لسان العرب - مادة : زمزم] .

(٢) نضب الماء : ذهب فى الأرض وبُعد . ونضب البشر : نزع ماؤه ونشف . [لسان العرب] .

مادة - نضب [] .

ولذلك يقول سبحانه في موقع آخر :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السِّر هو ما أسررتُ به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألا يقوله ، أو كان السر ما أخفيته أنت في نفسك ؛ فالله هو العالم به في الحالتين .

ويقول القرآن :

﴿ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا .. (٣) ﴾ [التحریم]

أى : أن السِّر كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعض من أزواجه . والأخفى هو ما قبل أن تبوح بالسر ؛ وكنمته ولم تبج به .
وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أى : السر الذى لم تقله لأحد ، بل ويعلمه قبل أن يكون سرا .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم - عليه السلام - ضراعة وحمداً له سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٢٩) ﴾

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل مثك . وكل الذرية هبة .

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له (إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة . [تفسير القرطبي ٢٧١٢/٥] .

لو لم تكن هبة لكنت رتيبة بين الزوجين : وإنما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

والدليل على أن الذرية هبة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام : وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بعلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغ من الكبر عتياً^(١) وزوجه عاقر : وقد تعجب زكريا من ذلك : لأنه أنجب بقوة ، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألا يدخل زكريا فى الأسباب والمسببات والقوانين .

وقد سمى الحق سبحانه الذرية هبة : لذلك يجب أن نشكر الله على هبته : فلا تُرد هبته ، إن وهب لك إناثاً فعلى العين والرأس : لأن الذى يقبل هبة الله فى إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات : ويصبحون أطوع له من أبنائه ، رغم أنه لم يشق فى تربيتهم .

وكل من يرى ذلك فى محيطه ، فمن أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمن تخطفه وتجعله أطوع لغيره منه .

وإن وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، عليك أن تطلب

(١) عنا عزراً وعتياً : أسنٌ وكبر وشعبت ثمارته وعضارته . قال تعالى عن زكريا : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتًيًا (٢٠) ﴾ [مريم] . [القاموس القويم ٦/٢] .

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإن وهبك ذُكْراناً وإناثاً
فلك أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكر ربه ؛ لأن العقم
أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذي يقتل أباه وأمه ، ورأينا
البنات التي تجحد أباهما وأُمها .

وإن قيل العاقر هبةٌ الله في ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولمن حوله هذا
القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء
لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم
فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم - عليه السلام - قد قال للحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ . . (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة - كما عرفنا - يُشكّل عطاءَ الذرية في الشباب ،
أو في الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون في :

﴿ عَلَى الْكِبَرِ . . (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وهبه إسماعيل وإسحاق مع أنه
كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه (على) وهي من ثلاثة
حروف ؛ بدلاً من « مع » ولم يقل : « الحمد لله الذي وهب لي مع
الكبر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول : إن (على) تفيد الاستعلاء ، فالكبر ضعف ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال « مع الكبر » فالمعية هنا لا تقتضى
قوة . أما قوله :

﴿ وَهَبْ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. ﴾ (٣٩)

[إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على
استجابته لما قاله من قبل :

﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. ﴾ (٤٧)

[إبراهيم]

أى : أنه دعا أن تكون له ذرية .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٩)

[إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (٤٠)

وكان إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه
قضية تخص منهج الله ، وهو يسأل الله أن يقبل ، ذلك أن الطلبات
الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن
الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طلبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه

السلام :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

ونعلم أن طلب الغُفران من المعصوم إيدانٌ بطلاقة قدرة الله في الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول - أي رسول - لا يُعفى الرسول المختار من الحذر وطلب المغفرة ، وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة » ^(١) .

وطلب المغفرة من الله إن لم يكن لذنوب - كما في حال الرُّسل المعصومين - فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق - سبحانه وتعالى - يستحق منا فوق ما كلفنا به ، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوعات ؛ فلندعُ الحق سبحانه أن يغفرَ لنا .

ومنا من لا يقدر على الفرائض ؛ فلندعُ الله أن يغفرَ له ؛ ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ^(٢) .

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٣٠٢/٢) ، والحاكم في مستدركه (٤٥٧/٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يشرجاه . وأحمد في مسنده (٢٩٤/٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال : كان في لساني ذنب على أهلي ولم يكن يحدوهم إلى غيرهم فسألت النبي ﷺ فقال : « ابن أنت من الاستغفار » إني لاستغفر الله كل يوم مائة مرة .

(٢) الأبرار والمقربون كلاهما من أهل الجنة ، ولكن الأبرار أفضل منزلة من المقربين ، وقد تحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين : ﴿ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (١) أولئك المقربون (٢) في جنات النعيم (٣) ثلَّةٌ من الأولين (٤) وقليلٌ من الآخرين (٥) على سررٍ موضونة (٦) متكئين عليها مقابلين (٧) يطوفُ عليهم ولَدُنَّ مَخْلَدُونَ (٨) ﴿ [الواقعة] الآيات . أما الأبرار فقد قال عنهم : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ (٩) في سدرٍ مخطوط (١٠) وطلع مخطوط (١١) وظل مخطوط (١٢) ﴿ [الواقعة] الآيات . فلعظم منزلة المقربين فعلم : إن الحسنات التي يجعلها الأبرار والتي استحسوها بها النعيم في الجنة هي سيئات في جنات ما يعمله المقربون .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً : إن الحق - جلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبدَ بفوق ما كُلفَ به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كُلفَ به سبحانه ؛ فكاننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكر ؛ وما بالناس إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خلقه اصطفاً ؛ أفلا يزيده شُكراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلاحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ^(١) وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصلي من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبويه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأسوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صحبة له وقُدوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكان إبراهيم عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمن آمن ؛ ويرجو الحق سبحانه أن يتقبلها .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٧١٤/٥) قراءتين أخريين لهذه الكلمة

- (لِوَالِدَيَّ) يعني أباه ، وهي قراءة سعيد بن جبور . وذلك قيل أن يشهد عنده أنه عدو لله .

- (لِوَلَدَيَّ) يعني ابنيه ، وهي قراءة إبراهيم النخعي ، ويصحي بن يعمر . ولذلك قيل : إنه أراد ولديه : إسماعيل وإسحاق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^{٤٢}
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ^(١) الْأَبْصَارُ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النعم العامة على الكون ،
والنعم الخاصة التي أنعم بها سبحانه على مَنْ تَوَطَّنُوا مكة ، ومن
نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله ﷺ موقف العنت ، بعد ذلك جاء
الحق سبحانه بهذه الآية تعزية وتسرية عن رسول الله ﷺ :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢)﴾ [إبراهيم]

وإرضية التصوير التي سبقتها تشتمل بداية التكوين لهذا المكان
الذي وجدوا به ، وكيفية مجيء النعم إلى مَنْ تَوَطَّنُوا هذا المكان ؛
حيث تجيء إليهم الثمرات ، ونعمة المهابة لهم حيث يعصف سبحانه
بمَنْ يُعَادِيهِمْ كأبرهة ومَنْ معه .

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ^(٢) مَأْكُولٍ^(٣)﴾ [الفيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة :

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَّا فِيهِمْ^(٢) رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

(١) شخص بصرد : انفتحت عيناه فلا تطرف من الخرف والفزع والحيرة . [القاموس القويم
٢٤٢/١] .

(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذي أصابه مرض الأكال فتكملت منه أجزاء .
[القاموس القويم ٢٢/٢] .

(٣) الإيلاف : الاعتقاد والانس بالشئ ومحبه . والإيلاف أيضاً : العهد يؤخذ لتأمين خروج
التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابي : أصحاب الإيلاف أربعة إخوة بني عبد مناف :
هاشم أخذ عهداً من ملك الروم ، ونوفل أخذ عهداً من كسرى . وعبد شمس أخذ عهداً من
التجاشي ، والمطلب أخذ عهداً من ملوك حمير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه
الامصار بعهود هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد . [لسان العرب - مادة : ألف] .

هَذَا الْيَتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿ [فريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار والتعنت والتصدى والجحود ، وحاولوا الاستعانة بكل خصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريته عن الرسول الكريم :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴾ (٤٧) [إبراهيم]

لماذا ؟ وتأتى الإجابة فى النصف الثانى من الآية :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٨) [إبراهيم]

وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ .. ﴾ (٤٩) [إبراهيم]

أى : لا تظنن : فَحَسِبَ هنا ليست من الحساب والعَدَّ ، ولكنها من : حَسِبَ « يحسب » : وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة :

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ^(١) ﴾ (٥٠)

[العنكبوت]

أى : أظن الناس ، فَحَسِبَ يحسب ليست - إذن - من العَدَّ ؛ ولكن من الظن . والحُشْبَانُ نسبة كلامية غير مجزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

(١) الفتنة : الاختيار والابتلاء بالشدائد والمصائب ونقص الاموال والاولاد والثمرات ليُعرف مدى صدق المؤمنين . [القاموس القويم ٧١ / ٢] .

والغفلة التى ينفيها سبحانه عنه : هى السهو عن أمر لعدم اليقظة
أو الانتباه ، وطبعاً وبداهة فهذا أمرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو
القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

وهذا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً : فحين
يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب فى نفس الوقت كلَّ مَنْ
أمن به .

ولكن ، أكان الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولناحظ أن الله حين يُوجِّه بشيء فقد يحمل التوجيه أمراً
يُنقِذه الإنسانُ فعلاً : ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمثل : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر »
وهو لا يشرب الخمر : فأنت تطالبه بقولك هذا أن يستمرَّ فى عدم
شُرْب الخمر ، أى : استمرَّ على ما أنت عليه ، فعلاً فى الأمر ، أو
امتناعاً فى النهى .

وهل يمكن أن تأتى الغفلة لله ؟

واقول : حين ترى صفةً توجد فى البشر : ولا توجد فى الحق
سبحانه فعليك أن تُفسِّر الأمر بالكمالات التى لله .

والذى يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب
يتساءل الذين رأوا فعل الظلم فهم يتهايمسون : ترى هل تم نسيان
الظلم الذى ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلة فى الأمر ؟

وهم فى تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب
الذنب : وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

[إبراهيم]

﴿ غَافِلًا (٤٢) ﴾

فى هذه الآية بمعنى « مُؤَجَّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أن يتذكروا قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمْلِي^(١) لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الاعراف]

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعنى أخذ حق من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أخذه للنفس .

وإذا كان الظلم فى أمر عقديّ فهو الشرك ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإن ظلمت فى أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو الفسق ، وإن ظلمت فى صغيرة فهو الظلم .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذى تغاضى عن تجريم الشرك :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة]

ويقول عن تغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين :

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة]

وإذا وجد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة فالحكم متوقف على ما حكم به .

(١) الإملاء ؛ الإسهال والتأخير وإطالة العمر . واملى الله له : أمهله وطول له . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وحين ننظر في مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضى مظلوماً ، فإن كان الظُّلم - والعياذ بالله - هو ظلم القمّة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم - عند العلماء - إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله والوحيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُّلم فى واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثانى : هو الاعتراف بالوهمية الله ، وإشراك آخرين معه فى الألوهية ، وهذا الشرك ظلم للحق فى ذاتية وواحديّة تفرده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوّن من أجزاء ؛ وهذا ظلم لله فى أحديّة ذاته .

ويقول بعض العارفين : إن أول حق فى الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذى قال :

وأول حق فى الوجود وجوده وكل حقوق الكون منه استمدت
فلا هو جمع كما قال مشرك ولا هو فى الأجزاء يا حسن ملئى^(١)

والظلم الذى ورد فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها ، هو ظلم القمّة ؛ ظلم فى العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول ﷺ . ويُلخص الشاعر ظلمهم للرسول ﷺ فيقول :

(١) أى : يا حسن ملة الإسلام التى جاءت من عند الله مثبتة وجوده دون شريك له فى الملك ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ، فثبتت له سبحانه وجوبية وجوده - وواحديّة تفرده - واحديّة ذاته سبحانه . (ع)

لَقَبْتُمُوهُ اَمِينًا فِى صِغَرٍ وَمَا الْاَمِينُ عَلَى قَوْلٍ بِمَثْنِهِمْ

وهم قد سَمَّوْا الرسول من قبل الرسالة بالأمين : وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصِفُونَهُ قَبْلَ الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصدق والنطق بالحق : والتحدث عن راحة قدرته فى الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة : وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سَلْبِ الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن يُرْسَلَ : فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال : وهو ظلم مُزْدَوِج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة : ولكن من بعد الرسالة أنكرتم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة : وقلتم إنه غير صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْصٍ قبل الرسالة : فجئتم أنتم له بصفة نقص : كقسولكم : ساحر : كاهن : مسجون ، وفى هذا ظلم للرسول ﷺ .

وهذا أيضاً ظلم للمجتمع الذى تعيشون فيه ، لأن من يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمر فى السيادة

والاستغلال والتحكم في الغير ؛ فكلُّ ذلك ظلُّم للمجتمع ؛ وفوق ذلك ظلُّم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرم نفسه من متعة كبيرة ؛ هي متعة الحياة في ظلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨) [النحل]

وفوق ظلُّم النفس وظلُّم المجتمع هناك ظلُّم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسان حين لا يكون على منهج خالقه ؛ والكون كله مُسَخَّر لمنهج الخالق ؛ فلن يرعى الإنسان ذلك في تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ ..﴾ (٤٤) [الإسراء]

حين يُسَبِّح كل ما في الكون يشدُّ عن ذلك إنسان لا يتبع منهج الله ؛ فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عرفنا ظلُّم القمصة في إنكار الألوهية ، أو الشرك به سبحانه ، أو توهم أنه من أجزاء ، وظلُّم نزع الكمال عن الرسول ؛ وهو الوسطة التي جاءت بخبر الإيمان ؛ وظلُّم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسَبِّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ..﴾ (٤٢) [إبراهيم]

نجد فيه كلمة « يعمل » . ونعلم أن هناك فرقاً بين « عمل »
و « فعل » ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذي
يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً
بمفرده ، ذلك أن الذي يكب^(١) الناس على مناخرهم في النار إنما هو
حصائد السننهم^(٢) ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه
« يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجَفُونَ^(٣)
بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ؛ وكل الأفعال التي قاموا بها نشأت
عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتى هذه الآية الكريمة التي يؤكد فيها سبحانه أنه يُمكن لهم
الذنوب ليُمَكِّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتى قوله :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) [إبراهيم]

ونعلم أنه قد حدثت لهم بعض من الظواهر التي تؤكد قُرْب
انتصار رسول الله ﷺ ؛ فَقُتِلَ صَنَادِيدُهُمْ وبعض من ساداتهم في

(١) كب الشيء : يكيه ؛ قلب . وكبه لوجه فانكب أى : صرعه . [لسان العرب - مادة : كيب] .
(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؛ فقال : « تكلمت أمك
يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد السننهم » .
أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٥ ، ٢٢٦) والترمذي في سننه (٢٦١٦) وقال :
« حسن صحيح » .

(٣) أرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن . قال تعالى : ﴿ وَالْمُرْجَفُونَ فِي
الْعَذِيبَةِ .. ﴾ [الأحزاب] هم الذين يؤكّدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في
الناس . [لسان العرب - مادة : رجف] .

بدر : وأسر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أن يأتي بالوعد
أو الوعيد : جاء بالأمر الذي يدخل فيه كل السامعين ، وهو عذاب
الآخرة : إن ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) [إبراهيم]

يعنى : تفتح بصورة لا يتقلب بها يَمْنَةً أو يَسْرَةً من هَوْل
ما يرى : وقد يكون عدم تقلب البصر من قَرُط جمال ما يرى ،
والذى يَفْرُق بينهما سبيل خاص بخلق الله فقط : وهو سبحانه الذى
يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من قَرُط الخوف : فسِحْنَتُهُ تتشكّل
بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شيء جميل وشَخَصَتْ عيناه
له ، يصبح لملامحه انسجام ارتواء النظر إلى الجمال ؛ ولذلك يقول
الشاعر :

جَمَالُ الذى أَهْوَاهُ قَيْدُ نَاطِرِي فَلَيْتَ لِشَيْءٍ غَيْرِهِ يَتَحَوَّلُ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بلامع الوجه
المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن المرائى ؛ فساعة تتعدّد المرائى ؛ فالبصر
يتنقل بينها ؛ ولذلك فالشخص المُبْصِر مُشْتَت المرائى دائماً ؛ ويتنقل
ذهنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجَزْ أَبْصَارَهُم - المكفوفين - فلا
تشغله المرائى ؛ ولذلك نجدهم أحرص الناس على العلم : فأذهانهم
غير مشغولة بأى شيء آخر ، وبُورَة شعور كل منهم تستقبل عن
طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إن أرادوا أن يعلموا : فلا أحد من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثله مثل الصندوق الذي لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم في العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله : فانت لا تقول لنفسك « اغضب » أو « اضحك » : لأنه هو سبحانه الذي يملك ذلك ، وهو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣)

[النجم]

والضحك والبكاء مسائل قسرية لا دخل لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن :

﴿وَإِذْ زَاغَتْ^(١) الْأَبْصَارُ ..﴾ (٦٠)

[الاحزاب]

فمرة تشخص الأبصار ، ويستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المرعب ، ومرة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن منفذ أو مهرب فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول :

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رِعْيًا وَسِهِمَ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ
طَرْفُهُمْ وَأَقْبَدَتْهُمُ هَوَاءٌ﴾ (٤٣)

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم يزل شيئاً . وزاغ

الأبصار : اضطرابها لشدة الفزع . [الفاموس القويم ٢٩٤/١] .

(٢) المفتح : الذي يرفع رأسه ينظر في ذل . والإفتاع : رفع الرأس والنظر في الـل وخشوع .

[لسان العرب - مادة : فتح] .

والمُهْطَع هو مَنْ يَظْهَرُ مِنْ فَرْطِ تَسْرُعِهِ وَكَانَ رَقَبَتُهُ قَدْ طَالَتْ ،
لأنَّ المُهْطَع هو مَنْ فِيهِ طُولٌ ، وَكَانَ الْجَزَاءُ بِالْعَذَابِ يَجْذِبُ الْمَجْزَى
لِيقْرَبِهِ ، فَيُدْفَعُ فِي شِدَّةِ رَجْفَوَةِ إِلَى الْعَذَابِ ، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿يُدْعُونَ^(١) إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً^(٢)﴾

[الطور]

وَكَأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَدْفَعُهُمْ دَفْعًا إِلَى مُصِيرِهِمُ الْمُؤْلَمِ . وَهُمْ :

﴿مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ^(٣) . . .﴾

[إبراهيم]

أَي : رَافِعِينَ رُءُوسَهُمْ مِنْ فَرْطِ الدَّهْشَةِ لِهُوْلِ الْعَذَابِ الَّذِي
يَنْتَظِرُهُمْ .

وَفِي مَوْقِعٍ آخَرَ يُصَوِّرُهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا^(٤) فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ^(٥) فَهُمْ مُمْقَمَحُونَ^(٦)﴾

[يس]

وَهَكَذَا تَكُونُ صُورَتُهُمْ مُسْفُزَعَةً مِنْ فَرْطِ الْمَهَانَةِ ؛ فَيَبْصُرُ الْوَاحِدُ
مِنْهُمْ شَاخِصًا إِلَى الْعَذَابِ مُنْجَذِبًا إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ لَا يَتَحَكَّمُ فِيهَا ؛ وَرَأْسُهُ
مَرْفُوعَةٌ مِنْ فَرْطِ الْهَوْلِ ؛ وَمُقْمَحٌ^(٦) بِالْأَغْلَالِ .

(١) دَعَا يَدْعُو : دَفَعَهُ فِي جَفْوَةٍ . وَالْدُّعُ : انْطَرَدَ وَالِدْفَعُ فِي انْتِهَارٍ وَزَجَرٍ . [لِسَانُ الْعَرَبِ -
مَادَّةُ : دَعَا] .

(٢) الْأَذْقَانُ : مَجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ اسْفَلَ الْوَجْهِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَا يَنْبَتُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّعْرِ مَجَازًا ، وَقَدْ
يُطْلَقُ عَلَى الْوَجْهِ كَنًى . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/ ٢٤٢] .

(٣) الْمُقْمَحُ : الْخَاضِعُ الذَّائِلُ لَا يَكَادُ يَرْفَعُ بَصَرَهُ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : أَرَادَ عَنِ وَجَلٍ أَنْ أَيْدِيَهُمْ لَمَّا
عُلِّتْ عَنْهُمْ أَعْنَاقُهُمْ وَفُتَّتِ الْأَغْلَالُ أَذْنَاقَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ سَعْدًا كَالْإِلِيلِ الرَّاقِعَةِ رُءُوسَهَا . [لِسَانُ
الْعَرَبِ - مَادَّةُ : قَمَحَ] .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحة رَغْمًا عنه ؛ وفؤاده هواء بمعنى : أن لا شيء قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلاحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة في قلب الماء ؛ فتخرج فقائيع الهواء مقابل دخول الماء من فوهتها .

ونعلم أن قلب المؤمن يكون ممتلئًا بالإيمان ؛ أما الكافر المُلحد فهو في مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ؛ فلا يجد فيها شيئًا يُطمئن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خالٍ فارغ ؛ لا يطمئن به إلى ما يواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضًا ممن شاهدوا لحظات احتضار^(١) غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرق الوجه متلألئ الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر ؛ فهم يحكّون عن بشاعة ملامحه في تلك اللحظة .

والسبب في هذا أن الإنسان في مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمن قضى حياته وهو يُرضي الله ؛ لا بُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومن قضى حياته وهو كافر مُلحد فلا بُدَّ أن يشعر بالمصير المرعب الذي ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

(١) حُضِرَ المريض واحتضِر : إذا نُزِلَ به الموت ودنا منه أجله . [لسان العرب - مادة حضر] .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُنذِرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالة .

وكلمة « يوم » هي ظَرْفُ زمان ، وظَرْفُ الزمان لا بُدَّ له من حَدَث يقع فيه . ويوم القيامة ليس محلُّ إنذار أو تبشير ؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدَّ أَنْ يكونا في وقت التكليف في الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنذِر به هو تخويفهم ممَّا يحدث لهم في هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب ؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتى يوم القيامة حتى تنفجر في وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلُم القمّة في العقيدة ، وظُلُم الرسالة بمقاومتها ؛ وظلم الكون المُسَبَّح لله :

﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ .. (٤٤)﴾

[إبراهيم]

(١) بأسرة : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٢) الفارقة : الدامية تكسر فقار الظهر . [القاموس القويم ٢/٨٦] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لمُهْلَةٍ بسيطة ، يُثَبِّتُونَ فِيهَا أَنَّهُمْ سَيُجِيبُونَ الدَّعْوَةَ وَيَطِيعُونَ الرَّسُولَ ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ تَأْجِيلَ قِيَامَتِهِمْ .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلُ مَا لَكُمْ مَن زَوَالٍ ۚ ﴾ (١٤)

[إبراهيم]

فانتهم قد سبق وأن أقسمتم بأن الله لا يبعث مَن يموت ؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ۚ ﴾ (٢٨)

[النحل]

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد نَدْبٍ ، فهذا يعنى تكذيب ما جاء قبلها ، وهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنها عنها ظنُّوا أنهم لن يُبْعَثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تَرَابًا ؛ وهم الذين قالوا :

﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٤٧)

[المؤمنون]

وهكذا اكْدُوا لأنفسهم أنه لا يبعث من بعد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم :

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۚ ﴾ (٤٠)

[النبأ]

أو : أنهم ظنُّوا أن الذين أنعم الله عليهم فى الدنيا ؛ لن يحرمهم فى الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثَلُ ، فى قوله تعالى :

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ^(١) مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا^(٢) كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا^(٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا^(٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا^(٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا^(٦)﴾ [الكهف]

والذى يقول ذلك فهم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهم أن جنته تلك ستظل على ما هي عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتى تلك » .

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدم إيماناً بالله ليجده فى الآخرة ، فهو إذن ممن أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة من لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أن قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿أَنذَا ضَلَلْنَا^(١) فِي الْأَرْضِ أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ^(٢)﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّا اثْنَتَيْنِ وَأَحْييتَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ^(١)﴾ [غافر]

(١) الجنة : حديقة ذات شجر كثير ملفف بستر الأرض . [القاموس القويم ١/ ١٢٢] .

(٢) ضل فى الأرض : مات ومبار ثراباً فضل فلم يتبين شئ من خلقه . [لسان العرب -

مادة : ضل] .

فيرد الحق سبحانه عليهم :

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾
[غافر]

وفى موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله :
يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٦) ﴾
[السجدة]

ويأتى رد الحق سبحانه عليهم :

﴿ فَلَذُقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤) ﴾
[السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾

[المؤمنون]

فيأتى رد الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾
[المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾
[المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَرُوا^(١) فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ (١٠٨) ﴾
[المؤمنون]

(١) اخسأوا : انزعجوا وابتعدوا عن النار ولا تكلموني . [القاموس القويم ١/ ١٩٢]

والخاسيء : الصغار الذليل . [المعجم الوجيز - مادة : خسا] .

وفى موضع آخر يقولون عند اضطراخهم^(١) فى النار :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۖ ۞ (٣٧) ﴾ [فاطر]

فيأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ أَوْ لِمَ نَعْمَرُكُمْ مَا تَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۞ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ونلاحظ أنهم فى كل آيات التوسل لله كى يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسوا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم فى الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أى : لا بعث ولا تشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

﴿ وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۞ (٤٥) ﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشيء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

(١) اضطرخ القوم وتصارخوا : استغاثوا . والاضطراخ : التصارع . [لسان العرب - مادة : صرخ] .

(٢) قال قتادة : سكن الناس فى مساكن قوم نوح وعاد وثمود ، وقرون بين تلك كثيرة ممن ملك من الأمم . [الدر المنثور ٥/ ٥٢] .

المرأة في الزواج تعتبر سكناً ، والبيت سكن ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أي : أنكم لم تنعظوا بالسوابق التي ما كان يجب أن تغيب عنكم ، فأنتم تمرّون في رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرّون على الأحقاف^(١) ؛ وترون ماذا حاقّ ب قوم عاد .

وَكُلُّ أُولَئِكَ نَالُوا الْعِقَابَ مِنْ اللَّهِ ، سواء بالريح الصرصر^(٢) العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً^(٣) من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وعده في عذاب الدنيا ؛ فلماذا لم تأخذوا عبرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدّث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم]

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَأَنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾

[الصافات]

(١) الأحقاف : منازل قوم عاد بظاهر بلاد اليمن . والحقف من الرمل : المتعرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل . [القاموس القويم ١/ ١٦٢] بزيادة .

(٢) الريح الصرصر : الشديدة البرد . وقيل : الشديدة الصوت . [لسان العرب - مادة : صرر] .

(٣) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : عصار شديد يقذفكم بالحصى فيهاكم . [القاموس القويم ١/ ١٥٦] .

أَي : أَنْكُمْ تَمْرُونُ عَلَى تِلْكَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي أَقَامَهَا بَعْضُ مِمَّنْ سَبَقُوكُمْ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ ؛ وَأَنْزَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الْعِقَابَ ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ خَوَاطِرِنَا عَنْهَا :

﴿ وَنَبِّئْ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (٤٥) [إبراهيم]

نعم ؛ فَحِينَ تَمْشِي فِي أَرْضِ قَوْمٍ عَادَ ، وَتَرَى حَضَارَتَهُمُ الَّتِي قَالَ عَنْهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِرَمٌ ^(١) ذَاتُ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر]

وهي حضارة لم نكتشف آثارها بعد ؛ وما زالت في المظمورات ، وكل مظمور في الأرض بفعل من غضب السماء ؛ تَضَعُ السَّمَاءُ مِيعَادَ كَشْفِ لَهُ لِيَتَعَطَّ أَهْلُ الْأَرْضِ ؛ وَيَحْدُثُ هَذَا الْكَشْفُ كُلَّمَا زَادَ الْإِلْحَادُ وَاسْتَشْرَى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهي الحضارة التي سبقت كل الحضارات في العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذي شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجَلة في خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

(١) إرم : اسم قبيلة منها عاد - وقيل هي مدينة كبيرة لهم - وزعم الكندي في كتابه فضائل مصر : أنها مدينة الإسكندرية . وقوله : (ذات العِمَاد) يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [التاموس القويم ١/ ١٨] .

﴿وَسَكَنَ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم]

أى : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته فى إنزال العقاب
قد وضحت أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام
التي سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق
سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمثل إنما يضربه الله
ليُقَرَّبَ بالشئ الحسى ما يُقَرَّبُ إلى الأذهان الشئ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾

والمكر - كما نعلم - هو تبييت الكيد فى خفاء مستور ، ومأخوذ
من الشجرة المكمورة ؛ أى : الشجرة التى تُدَارَى نفسها ، ونحن
نرى فى البساتين الكبيرة شجرة فى حجم الإصبع ؛ وهى مجدولة
على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ،
أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أى فرع فى
الشجرة الملتفة إلا إذا نزعناها من حول الشجرة التى تلتف من
حولها .

ومن يبيّن إنما يشهد على نفسه بالجهن والضعف وعدم القدرة
على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيّن ضد مساو لك ؛ أما أن تُبيّن على
الحى القيوم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛
فتلك هى الخيبة بعينها .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤) ﴿آل عمران﴾

﴿وَلَا يَحِيقُ^(١٣) الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ . . (٦٦) ﴿[الشورى]

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) ﴿[الأنبياء]﴾

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَأْكُورِينَ﴾ (٥٤) [آل عمران]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ .. ﴿٤٦﴾ ﴿[إبراهيم]

فانتصارات الرسائل مرهونٌ بقوة المرسل وأتباعه ، وهم

(١) حاق به الشيء : أصابه وأحاط به . وحاق به الأمر : لزمه ووجب عليه . والحقيق : ما يصيب الإنسان من مكروه فعله . [المعجم الوجيز - مادة : حقيق] .

يَقْسَابِلُونَ خُصُومًا هُمْ حَيْثِيَّةٌ وَجُودُ الرِّسَالَةِ : ذَاكَ أَنَّهُمْ قَدْ مَلَأُوا
الْأَرْضَ بِالْفُسَادِ ، وَيُرِيدُونَ الْحِفَافَ عَلَى الْفُسَادِ الَّذِي يَحْفَظُ لَهُمُ
السُّلْطَةَ : وَالَّذِينَ الْجَدِيدُ سَيِّدُكَ سَيَادَتُهُمْ وَيُزَلِّزُهَا : لِذَلِكَ لَا بُدَّ إِلَّا
يَدْخُرُوا وَسُعَا فِي مُحَاوَلَةِ الْكَيْدِ وَالْإِقْقَاعِ بِالرَّسُولِ لِلْقَضَاءِ عَلَى
الرِّسَالَةِ .

وَقَدْ حَاوَلُوا ذَلِكَ بِالْمُوَاجَهَةِ وَقَدْ أَنْ كَانَ الْإِسْلَامُ فِي بَدَايَتِهِ :
فَاخْذُوا الضَّعَافَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ، وَبَدَّوْهُ فِي تَعْذِيبِهِمْ : وَلَمْ يَرْجِعْ
وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ عَنِ الدِّينِ .

وَحَاوَلُوا بِالْحَرْبِ : فَغَضِبَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا
الْمَكْرُ ، وَسَبَّحَانَهُ الْقَاتِلُ :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ^(١) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

وَحَاوَلُوا أَنْ يَفْسُدُوا خَلِيَّةَ الْإِيمَانِ الْأُولَى ، وَهِيَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
ﷺ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنْ نَجَحُوا فِي ذَلِكَ : فَسَوْفَ تَنْفُضُ الرِّسَالَةَ .
فَحَاوَلُوا أَنْ يَشْتَرَوْهُ بِالْمَالِ : فَلَمْ يُفْلَحُوا .

وَحَاوَلُوا أَنْ يَشْتَرَوْهُ بِالسِّيَادَةِ وَالْمُلْكِ فَلَمْ يَنْجَحُوا ، وَقَالَ قَوْلُهُ
الْمَشْهُورَةُ : « وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي
يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ،
مَا تَرَكْتُهُ » ^(٢) .

(١) لِيُثْبِتُوكَ . أَيُ : يَجْرَحُوكَ جِرَاحَةً لَا تَقُومُ مَعَهَا . رَأَيْتُ فُلَانًا ، أَيُ : اسْتَدْبَقْتُ بِهِ عَقْبَهُ ، أَوْ
اَثْبَتَهُ جِرَاحَةً فَلَمْ يَتَحَرَّكَ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - عَادَةٌ : ثَبَتَ] .

(٢) أَوْرَدَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ (٢٦٦/١) مَعْرُوفًا لِابْنِ إِسْحَاقَ .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (١٧)

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لما قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخلفَ ، ولكن مكرهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحاته هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧١) ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ (١٧٢) ﴿ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣)

[الصافات]

إذن : فوعد الله لرسله لا يمكن أن يُخلفَ .

والوعود في القرآن كثيرة : فهناك وعد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ (٣) ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ (٢٦٨)

[البقرة]

وهناك وعد من الله للمؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥٥)

[النور]

(١) حسب الشيء حسباً : مثله . فلا تحسبن : أي : لا تظنن . [المعجم الوجيز - مادة : حسب] .

(٢) العزيز : من صفات الله عز وجل وأسماء الحسنی . قال الزجاج : هو المعتمد فلا يظلمه شيء . وقال غيره : هو القوي الغالب كل شيء . [لسان العرب - مادة : عز] .

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٢١) : « أي : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ، ومع مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمأثم والمحارم ومخالفة الخلق » .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلف وَعْدَهُ لاتباع الرسول : أَيْخَفِ
وَعْدَهُ للرسول ؟

طبعاً لا : لأن الوعد على إطلاقه من الله : مُوفى : فكيف إذا كان
للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾
(٥١) ﴿ [غافر]

والنصر يقتضى هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه :
والصفة المناسبة هي صدوره من عزيز لا يُغلب : والهزيمة لمن
كفروا تحتاج إلى صفة : والصفة المناسبة هي تحقق الهزيمة بأمر
مُنْتَقِم جَبَّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْوَّاحِدَ الْقَهَّارَ ﴾ (٥٨)

ويُخَوِّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صَوَّرَ لهم
ما سوف يدعونه ، بأن يُؤَخَّرَ الحق حسابهم ، وأن يُعيدهم إلى الدنيا
لعلهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذي خلقه الله سبحانه ، وطراً

(١) يرزوا لله : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله . [تفسير ابن كثير ٥٤٤/٢]
والبروز : الظهور والخروج . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً .. ﴾ (٥٧) ﴿ [الكهف] أي :
ظاهرة بلا جبل ولا تل ولا رمل . [لسان العرب - مادة : برز] .

عليه آدم وخلفته من بعده ذريته : قد أعدّه سبحانه وسخره في خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشون في الكون بأسباب الله الممدودة في أنفسهم ، والمنثورة في هذا الكون لكل مخلوق لله ، مؤمنهم وكافرهم ؛ فمن يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ^(١) الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أن يهب عباده الارتقاء في الدنيا بالأسباب ؛ أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمُسَبَّب ؛ وبمجرد أن تخطر على بال المؤمن رغبة في شيء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قدر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسي ؛ وأنزل عليها من السماء ماء . إذن ؛ فهي أرض غير الأرض ؛ وسماء غير السماء ؛ لأن الأرض التي نعرفها هي أرض أسباب ؛ والسماء التي نعرفها هي سماء أسباب .

وفي جنة الآخرة لا أسباب هناك ؛ لذلك لا بد أن تتبدل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

(١) الحرت : الثواب والنصيب . وحرت الدنيا : كسبها . [لسان العرب - مادة : حرت] .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب فى دُئْيَاه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة^(١) حين سأل الرسول ﷺ : كيف أصبحت ؟ فقال الصحابى : أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابى : عزفتُ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها - أى : تساوى الذهب بالتراب - وكانى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذبون . فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »^(٢) .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذى أنكره ، وهى مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه فى وصف ذاته هنا :

﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطرى » .

وفى آية أخرى يقول عن هؤلاء :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ^(٣) بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَلَ اللَّهُ عَنْدَهُ . . (٣٩)﴾ [النور]

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٤٢/١) وعزا الحديث لابن الفيارك فى الزهد .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى .

(٣) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض القضاء كأنه ماء ، وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] والقيعة جمع قاع ، وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب . [تفسير ابن كثير ٢/٢٩٦] .

أى : انه يُفَاجَأُ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعد له .

وقوله :

﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾

[إبراهيم]

أى : القادر على قَهْرُ المخلوق على غير مُرادِه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)﴾

والمجرم هو مَنْ ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَنْ ارتكب ذنب القِصَّةِ ، وهو الكفر بالله ، ومن بعده مَنْ ارتكب الذنوب التى دون الكفر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى « قَرَنٍ » وهو الحبل ، أو القيد الذى يُقَيِّدُونَ به .

والأصفاد جمع صَفَدَ ، وهو القيد الذى يوضع فى الرَّجُل ؛ وهو مثل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُقَيِّدُونَ فى الأصفاد أى : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقيد بالأغلال ، أى : أن توضع أيديهم فى سلاسل ، وتُعلَّقُ تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيَّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا - فى الغالب - مودة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافرين ، وعلى عدااء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل

(١) مقرئين : مشدردين مقيدين بعضهم مع بعض . والأصفاد : القيود . [القاموس القويم

منهم ينافك^(١) الآخر ويضايقه ، ويعلن ضيقه منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الْأَخْلَاءُ^(٢) يَرْمِذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكان كلا منهم يُعَذَّب الآخر من قبل أن يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك تجدهم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٦٩) ﴾ [غصلت]

ويقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرَا (٦٨) ﴾ [الاحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المذنبين : فيقول :

﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾

(١) قال ابن منظور في لسان العرب - مادة : نكف : « في ثوابر الأعراب : تنافك الرجلان الكلام إذا تعاورا » أي : رد هذا على هذا وتبادلا التفانف بالكلام .

(٢) الاخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المختص . [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

(٣) القطران : مادة سويداء سائلة لزجة ، تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالنقطير الجاف . وتستعمل لحفظ الخشب من القسوس ، والحديد من الصدأ . [المعجم الوجيز -

مادة : قطر] .

و « السرابيل » جمع « سُرْبَال » وهو ما يلي الجسد ، وهو ما نسميه فى عصرنا « قميص » . وإذا كان السُرْبَال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شئ يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذهن من التى يراها العربى فى بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَتَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرض لأمر يصيبه بالعطب ، فأول ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شئ فى الإنسان ، فما بالناس حين تغشى وجوه الكفرة النار ؟ إن مجرد تخيل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٢٤) ﴾ [الزمر]

وكان الواحد منهم من قرط شدة العذاب يحاول أن يدفع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيس شتى لهذا العذاب ؛ وهو مؤلم أشد الألم .

ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ .. (٤٨) ﴾ [القمر]

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء في أكثر من صورة : من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١)

والجزاء أمر طبيعي في الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بآله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنيات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أسراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يضع الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب ؛ لَنَالَ كُلُّ مُفْسِدٍ بُغْيَتَهُ من فسادهِ ؛ ولأَحْسَ أَهْلُ الْقِيَمِ أَنَّهُمْ قَدْ خُدِعُوا في هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ؛ فلا ظُلْمَ فيه إذن ؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال :

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. (١٧)﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة .

وقوله سبحانه :

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ .. (٥١)﴾ [إبراهيم]

يعنى أن المؤمن أو الكافر سَيَلْقَى جزاء ما فعل ؛ إن ثواباً أو عقاباً .

والكسب - كما تعلم - هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شيء فى الدنيا ؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

وَمَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً سَيَأْخُذْ عِقَاباً عَلَيْهَا ، وَيُقَالُ « كَسَبَ السَّيِّئَةَ » وَلَا يُقَالُ « اِكْتَسَبَهَا » ذَلِكَ أَنَّ ارْتِكَابَهُ لِلْسَّيِّئَةِ صَارَ دُرْبَةً سَلُوكِيَّةً ؛ وَيَفْرَحُ بِارْتِكَابِهَا ، وَلَا بُدَّ إِذْنٍ مِنَ الْجَزَاءِ ؛ وَالْجَزَاءُ يَحْتَاجُ حِسَابًا ، وَالْحِسَابُ يَحْتَاجُ مِيزَانًا .

وقد يقول المؤمن : إِنِّى أَصْدَقُ رَبِّى ، وَإِن يَظْلِمُ رَبِّى أَحَدًا ، ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول :

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)﴾ [القارعة]

ويقول أيضاً :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ (٩) هَاوِيَةٌ (٩)﴾ [القارعة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقُلَتْ »

(١) أى ، أنه ساقط هاو يأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقال قتادة :

يهوى فى النار على رأسه . [تفسير ابن كثير ٥٤٢/٤] .

ومرة « حَقَّتْ » . أما مَنْ تساوت كِفَافًا ميزانه ؛ ففَسِّرَتْ حالته سورة
الأعراف التي قال فيها الحق سبحانه :

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ ^(١) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ^(٢) .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ؛ فقد يظنُّ
البعض أن ذلك سيستغرق وقتًا ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيحاسب كل الخلق من لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ
تَقُومَ السَّاعَةُ بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام - علياً - كَرَّمَ اللهُ وجهه - : كيف
سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ؟ أجاب الإجابة الدالة الشافية .
وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ

إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾

(١) أصحاب الأعراف : هم قوم استمرت حسناتهم وسيئاتهم فتمتدت بهم سيئاتهم عن الجنة .
وخلفت بهم حسناتهم عن النار . نوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم . [ذكره
ابن كثير في تفسيره ٢/٢١٦] .

(٢) السُّوْمَةُ : بالضم العلامة . قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار
بسواد الوجوه . [تفسير ابن كثير ٢/٢١٨] .

وهذه الآية هي مسك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركزت الدعوة : بلاغاً صدر عن الله ليعلمه لرسوله الذي أيد بالمعجزة ؛ ليحمل منهج الحياة للإنسان الخليفة في الأرض .

وإذا ما صدرت قوانين حركة الحياة للإنسان الخليفة في الأرض المخلوق لله ، وجب ألا يتزايد عليها أحد بأكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذي خلق هو الذي شرع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذكر من بال كل إنسان مكلف .

وحين تقرأ هذا القول الحكيم :

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شيء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانوني الحديث ، ذلك أن النص القانوني الحديث يوضح أنه لا عقوبة إلا بنص يُجرّم الفعل ، ولا بد من إعلان النص لكافة الناس ؛ ولذلك تُنشر القوانين في الجريدة الرسمية للدولة ؛ كي لا يقول أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فمهمة الرسول - إذن - هي البلاغ عن الله لمذهج الحياة الذي يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٤٠)

[الرعد]

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٣٩)

[الاحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول^(١) :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَاكَ رِسَالَاتِ رَبِّي .. ﴾ (٩٢)

[الاعراف]

ويقول أيضا :

﴿ أَرْسَلْنَاكَ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. ﴾ (٥٧)

[هود]

وهكذا لا توجد حجة لقائل : إني أخذت بذنب لم أعرف أنه ذنب وقت التكليف . لا حجة لقائل مثل هذا القول : لأن الحق سبحانه يقول في نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

والإنذار : تخويف بشر سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام . فقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَا يَفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ ﴾ (١٠٤) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أرسلتكم رسلاتي وانبأكم لكم فكيف آسى على قوم كافرين (١٠٥) [الاعراف] .

بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأْتِ أوانه
كى تستعدَّ لاستقباله.

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

يَتَّضَمَّن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك فى
قوله :

﴿ وَلِيَنْذَرُوا بِهِ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

واقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذَكِّر الإنسان فلا يُقدم
على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعة تُقدم للإنسان مغبة^(١) العمل
السيء ؛ فكانك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدِّى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الأولى ، والتى تأتى فى قِمة كل
القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام فى
هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند .
ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنت أنت تبني يوماً لىأتى غيرك فيهدم
ما بنيت .

(١) الغِبة من كل شيء : عاقبته وأخبرته . وكذلك المغبة . [المعجم الوجيز - مادة : غيب] .

ومهمة حركة الحياة أن تُؤدّي مهمتنا كخلفاء الله في الأرض ؛ بأن تتعاضد مواهبنا ، لا أن تتعارض ، فيتحرك المجتمع الإنساني كله في اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ . . (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يحدد لنا قَوَام الدين بعد تلقّيه من رسول الله ﷺ أن يُبلّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال ﷺ : « نُضِرَّ^(١) الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها »^(٢) .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإن لم يُبلغ قوم فالوَر على مَنْ لم يُبلغ . وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ ، فَمَنْ يعلم حكماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ؛ مثلاً طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل :

(١) نُضِرَّ الله وجهه : نَعِمه ، والنضرة : النُّعْمَة والحُسْن والرويق . وقال الحسن المؤدّب : ليس هذا من الحسن في الوجه ، إنما معناه : حُسْن الله وجهه في خلقه ، أى : جاعه وقدره . [لسان العرب - مادة : نُضِر] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٧/١) ، والترمذى في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) . وابن ماجه في سننه (٢٢٢) والحميدى في مسنده (٤٧/١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا^(١) لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلغكم وبقي على كل مسلم يعلم
حكمًا من أحكام الدين أن يبلغه لمن لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر
منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما من أبلغه الحكم
لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ : « رَبِّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ »^(٢) .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخط بين المعلومة التي تُقال لك ؛
وبين سلوك من قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذي قال :

خُذْ عِلْمِي وَلَا تَرْكَنْ إِلَى عَمَلِي وَأَجْنِ الثُّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلْحَطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغ بما يعرف من أحكام الدين
لمن لا علم لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق
سيحانه قد قال :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران]

أي : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

(١) أمة وسطاً : أي : أمة فاضلة خيرة ، قالوسط خير الطرفين ، [القاسوس القويم ٢/ ٢٢٦] .

(٢) تمام الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأداها إلي من لم يسمعها ... »
الحديث ، وقد سبق تخريجه صفحة (٧٦٢٣) .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين في تبليغه ؛ لذلك لا يمكن أن يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الأمر ؛ أو من عدم حكمة الأمر ، ولندقق جيداً في قول الحق سبحانه :

﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ .. (٥٢)﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصور الشراكة ؛ فلا أحد مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لكان في ذاته يحتاجُ لأعضائه ، وهذا لا يصحُّ ولا يمكن تخيله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هي القضية الأساسية التي يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هي جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لب » ، ولُبُّ الشيء هو حقيقة جوهرة ؛ لأن القشرة توجد لتحفظ هذا اللب ، والمحفوظ دائماً هو أنفُسُ من الشيء الذي يُغلفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويحركون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تُصْرِفُ الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿وَلْيَذْكُرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾ [إبراهيم]

أي : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ؛ فلا إله إلا هو ؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أن يشهد له أيُّ كائنٍ آخر ، وقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه شهادة الذات للذات ، ويُضيف سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ ۖ (١٨) ﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هي شهادة المُواجهة التي عايشوها ، وشهادة أولى الألباب هي شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ؛ وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعلى أولى الألباب مهمة ، أن يتذكروا ويذكروا بأنه إله واحد أحد .

سورة الحجرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السورة التي نبدأ خواطرنَا عنها هي سورة الحجر ^(١) تبدأ بالكلام عن جامع البلاغ ، ومنهج حياة الحياة وهو القرآن الكريم الذي قد جاء بالخبر اليقين في قضية الألوهية الواحدة ، والتي ذكرنا في آخر السورة السابقة بأن أولى الأبواب يستقبلونها بعقولهم .

ويقول الحق سبحانه في مُستهل السورة :

﴿الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ ۝ اٰیٰتُ الْكِتٰبِ وَقُرْءٰنٍ مُّیْنٍ ۝﴾ ^(٢)

(١) هذه السورة هي السورة الخامسة عشر من القرآن بترتيب المصحف ، وهي سورة عكية ، عدد آياتها ٩٩ آية ، بدايتها هي بداية الجزء ١٤ من القرآن . وقد سميت سورة الحجر بهذا الاسم نسبة إلى أصحاب الحجر المذكورين في الآية (٨٠) من السورة ، وهم قوم ثمود أرسل لهم الله صالحاً رسولاً فكذبوه . والحجر : ديار ثمود ناحية الشام عند وادي القرى . والحجر أيضاً في معناه اللغوي : العقل . وقد أنزلت هذه السورة بعد سورة يوسف وقبل سورة الانعام . على ما أورده السيوطي في علوم القرآن (٢٧/١) .

(٢) قال السيوطي في الإتقان (٢١/٢) : « خاض في معناه علماء ، فأخرج ابن أبي حاتم وعنه من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله (الر) : لنا الله كبرى . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي ، قال : (الر) من الرحمن ، وقيل : (الر) معناه : أنا الله أعلم وأرفع . حكاه الكرماني في غرانيه . ثم قال : ، والمختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى . وقال الشعبي : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور » .

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوقيفية : والتي قلنا :
إن جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا : وحفظها رسول الله ﷺ
وأبلغها لنا ﷺ هكذا : وهي قد نزلت أول ما نزلت على قوم برعوا
فى اللغة : وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهى حروف مُقطعة تُنطق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم
أن لكل حرف اسماً ، وله مسمى : فحين نقول أو نكتب كلمة
« كتب » : فنحن نضع حروفاً هى الكاف والباء والتاء بجانب بعضها
البعض ، لتكوّن الكلمة كما نطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف : فهى
« كساف : و « باء » و « تاء » . ولا يعرف أسماء الحروف إلا
المتعلّم : ولذلك حين تريد أن تختير واحداً فى القراءة والكتابة تقول
له : تهجّ حروف الكلمة التى تكتبها ، فإن نطق أسماء الحروف :
عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن - كما تعلم - نزل مُعجِزاً للعرب الذين نبغوا فى
اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً : مثل المعارض التى نقيمها نحن
لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تاتى معجزة الرسول الخاتم من
جنس ما نبغوا فيه : فلو كانت المعجزة من جنس غير ما نبغوا فيه
ولم يألّفوه لَقَالُوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصَنَعْنَا ما يفوقه .

وجاءتهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذى نبغوا فيه .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦٢١﴾

وباللغة العربية وبنفس المُفردات المُكوّنة من الحروف التي تُكوّنون منها كلماتكم ، والذي جعل القرآن مُعْجَزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مخلوقاً . وفي « الر » نفس الخامات التي تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من فواتح السور . علينا أن نعلم أن الله في كلماته أسراراً ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ^(١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .. (٧)﴾ [آل عمران]

أى : أن القرآن به آيات مُحْكَمَات ، هي آيات الأحكام التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، أما الآيات المستشابهات فهي مثل تلك الآيات التي تبدأ بها فواتح بعض من السور ؛ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يتساءلون : ما معناها ؟

وهم يقولون ذلك لا بحثاً عن معنى ؛ ولكن رغبة للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أن تفهموا كل شيء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلة إدراك ؛ مثله مثل العين ، ومثل الأذن .

فهل ترى عيناك كل ما يمكن أن يُرى ؟ طبعاً لا ؛ لأن للرؤية

(١) الزَّيْغُ : الميل . يقال : زاغ عن الطريق إذا عدل عنه . [لسان العرب - مادة : زيغ] .

بالعين قوائينَ وحدوداً ، فإن كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه ؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أفقه حسب قوة بصره ؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوى وحاد ؛ وهناك مَنْ هو ضعيف البصر ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعد على بقاء الإبصار .

فإذا كانت للعين - وهي وسيلة إدراك المرأى - حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهي وسيلة إدراك الأصوات يحد المسافة الموجية للصوت ؛ فلا بُدَّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه ؛ وهناك ما لا يمكن أن تفهمه .

والرسول ﷺ قال عن آيات القرآن : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به »^(١) .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أى سرٍّ من الأسرار المكنونة فى القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسرارهِ فى أول قرن نزل فيه ؛ فكيف يستقبل القرون الأخرى بدون سرٍّ جديد ؟

إذن : فكُلُّما ارتقى العقل البشرى ؛ كلما أذن الله بكشف سرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل فى آيات الأحكام .

(١) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكتب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » . عزاه ابن كثير فى تفسيره (٢/١٦٦) لابن مردويه من حديث عباد بن عمرو بن العاص ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٥٤) وعزاه النضر المقدسى فى الحجة .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة :

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ - وَالرَّاسِخُونَ^(١) فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا...﴾ (٧)

وهناك من يقرأ هذه الآية كالاتى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم - » وتتأسى من يقرأ تلك القراءة^(٢) أن مُتْنِى الرسوخ فى العلم أن تؤمن بقلك الآيات كما هى^(٣) .

والحق سبحانه هنا يقول :

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

و (تلك) إشارة لما سبق ولما هو قادم من الكتاب ، و (آيات) جمع « آية » . وهى . الشئ العجيب الذى يُلْتَفَت إليه . والآيات إما أن تكون كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الاعلى ، وإما أن تكون الآيات المعجزة الدالة على صدق البلاغ عن الله وهى معجزات الرسل ، وإما أن تكون آيات القرآن التى تحمل المنهج للناس كافة .

(١) الراسخون فى العلم . المتمكنون فيه . وأورد السيوطى فى الدر المنثور (١٥١/٣) أن رسول الله ﷺ قال « من برت يمينه ، وصبق لسانه ، واستقام قلبه ، وعف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » عزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وأبى الدرداء .

(٢) مقتضى هذه القراءة الوقف اللازم على كلمة العلم ، ويكون معنى الآية أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة . أما القراءة الأولى . فالتوقف على لفظ الجلالة (الله) معناه أن الله وحده هو عالم تأويل الآيات المتشابهة . (انظر : تفسير ابن كثير ٢٤٧/١) .

(٣) قالت عائشة رضى الله عنها . كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بحكمه ومتشابهه ولم يحسموا تأويله . أورد السيوطى فى الدر المنثور (١٥١/٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

ريضيف الحق سبحانه :

﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)﴾

[الحجر]

فهو الكتاب هو شيء غير القرآن ؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطلق : فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل : كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى : وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم « أهل كتاب » .

أما إذا جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّفة بالالف واللام : فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً خاتماً ، ومُهيئاً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو (قرآن) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عامٍّ ، فالكتاب هو القرآن ، ودلّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل في اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتبت أيضاً : فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتبت بعد أن نزلت بفترة طويلة ، ولم تُكتب مثل القرآن ساعة التلقّي من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب في نفس زمن نزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدئ في كتابته .

والقرآن يُوصف بأنه مُبين في ذاته ومُبين لغيره : وهو أيضاً مُحيط بكل شيء .

وسبحانه القائل :

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. (٣٨)﴾

[الأنعام]

وَأَيُّ أَمْرٍ يَحْتَاجُ لِحُكْمٍ : فَمَاذَا أَنْ تَجِدَهُ مُفْصَّلًا فِي الْقُرْآنِ ، أَوْ
نَسْأَلُ فِيهِ أَهْلَ الذِّكْرِ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ^(١) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّمَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانَُوا مُسْلِمِينَ ﴾

و « رَبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على
حَسَبِ مَا يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ حَرْفُ الْأَصْلِ فِيهِ أَنْ يَنْخَلِ عَلَى
المفرد ، ونحن نقول « رَبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تُلِدْهُ أُمُّكَ » وذلك للتقليل ، مثلاً
نقول « رَبِّمَا يَنْجِحُ الْكَسُولُ » .

ولكن لو قلنا « رَبِّمَا يَنْجِحُ الذِّكِيُّ » فهذا للتكثير ، وفي هذا
استعمال للشيء في نقيضه ، إيقاظاً للعقل كي ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

بـ « رَبَّ » ومعها حرف « مَا » ومن بعدهما فعل ^(٢) . ومن العيب
أن نقول : إن « مَا » هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو رَبُّ كُلِّ الْعِبَادِ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبِّمَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٨) ﴾ [الحجر]

(١) الذِّكْرُ : القرآن والكتب المنزلة كلها . أي : اسألوا أهل العلم من الأمم كالنصارى واليهود والخصاري
وسائر الطوائف . هل كل الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ [تفسير ابن كثير ١/ ١٧٤] .
(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٧٢٥) : « رَبَّ لَا تَدْخُلْ عَلَى الْفِعْلِ فَإِذَا لَحِقَتْهَا « مَا »
مِثْلُهَا لِدُخُولِ عَالِي الْفِعْلِ » وقال ابن هشام في « سخني اللبيب » (١ / ١٢٠) : « إِذَا
زِيدَتْ « مَا » بَعْدَ « رَبَّ » ، فَالْغَالِبُ أَنْ تُكْتَفَى عَنْ الْعَمَلِ ، وَأَنْ تَهْبِئَهَا لِلدُّخُولِ عَلَى الْجَمْعِ
الْفُعْلِيَّةِ ، وَأَنْ يَتَوَكَّنَ الْعَمَلُ مَاضِيًا لَفْظًا وَمَعْنَى » .

فهل سيأتى وقت يتمنى فيه أهل الكفر أن يُسلموا ؟ إن « يود » تعنى « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شيء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال فى اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألا يتحقق ؛ فإن قلت : « يا ليت الشياطين يعود يوماً » فهذا طلب لا يمكن أن يتحقق ؛ لذلك يُقال إنه « تمنى » . وإن قلت « لعلى أزور فلاناً » فهذا يُسمى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك ؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمن يجلس إليه من تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمى استفهاماً .

وهكذا إن كنت قد طلبت عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبت ما يمكن أن يُنال فهو الترجى ، وإن كنت قد طلبت صورته لا حقيقته فهو استفهام . ولكن إن طلبت حقيقة الشيء ؛ فأنت تطلبه كى لا تفعل الفعل .

والطلب هنا فى هذه الآية ؛ يقول :

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٦) [الحجر]

فهل يتأتى هذا الطلب ؟

ولنذكر متى يودون ذلك . إن ذلك التمنى سوف يحدث إن وقعت لهم أحداث تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَجَعَلُوا^(١) بَيْنَهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا ..﴾ (١٤) [النمل]

(١) جحد الحق أنكره وهو يعلمه . [القاموس القويم ١/ ١٦٧] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

○ ٧٦٢٧ ○

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون
الغنائم أن قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم^(١) .

أى : إن هذا التمنى قد حدث فى الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند
موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠١) ﴾ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٠٦) ﴾ [السجدة]

إذن : فسيأتى وقت يتمنى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذا ما
عابنوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة
التي كنتم تتمسكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين
وقت أن زال التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفى المسلمين فخراً أن كانوا على دين الله ، واستمسكوا
بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أن خسرتُم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا
على أنكم لم تكونوا مسلمين .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦١/٤) عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : « رد
المشركون يوم بدر حين ضربت أعضائهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين
بمحمد ﷺ » .

وفى اليوم الآخر يُعَذَّبُ الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممن لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم : لعدم إخلاص النية وحُسن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل فى ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى :

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ١٠٠ (١٠٠)﴾ [النوبة]

فيدخلون النار ليأخذوا قدرًا من العذاب على قدر ما عصوا ، وينظر لهم الكفار قائلين :

ما أغنت عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا فى النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيفار على كل من قال لا إله إلا الله ؛ فيقول : أخرجوهم وطهروهم وعودوا بهم إلى الجنة ، وحديثاً يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة^(١) . ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيَلْهَمُ الْأَمِلُ^٢
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣﴾

و (ذرهم) أمر بأن يدعهم ويتركهم ، وسبحانه قال مرة (ذرهم) ، ومرة قال :

﴿وذرني والمُكذِّبينَ أُولَى النُّعْمَةِ ١١﴾ .. (١١) [المزمل]

(١) أورده السجوطى فى الدر المنثور (٦٢/٥) من حديث أبى موسى الأشعرى . وعزاه لابن أبى عاصم فى السنة ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور .

(٢) النعمة . التنعيم . والمسرّة والفرج والترقّة [لسان العرب - مادة نعم] .

أى : اتركهم لى ، فأننا الذى أعاقبهم ، وأننا الذى أعلم أجل
الإمهال ، وأجل العقوبة .

ويستعمل من « ذرهم » فعل مضارع هو « يذر » ، وقد قال
الحق سبحانه :

﴿ وَيَذَرُكَ أَهْلُكَ ﴾ (١٣٧)

[الأعراف]

ولم يستعمل منها فى اللغة فعل ماضى ، إلا فيما روى من حديث
رسول الله ﷺ « ذروا اليمن ما ذروكم » ، أى : اتركوهم
ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو « دَعُ » بمعنى « اترك » .
وقيل : أهملت العرب ماضى « يدع » و « يذر » إلا فى قراءة^(١) فى
قول الحق سبحانه :

﴿ يَا دَعُوكَ رَبُّكَ وَمَا قُلَى ﴾ (٤)

[الضحى]

وهذا بقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ (٣)

[الحجر]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرق بين الأكل كوقوف للحركة وبين
الأكل كلذة وتمتع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين
تشبع ؛ لا يستطيع أحد أن يجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فيبعد أن يأكل ويفسل يديه ؛ ثم يرى صنفاً جديداً

(١) هى قراءة عمرو بن الأبيز . والمعنى فيهما واحد (وَدَعُكَ ، وَذَرُكَ) . أى : ما تركك ربك
[لسان العرب - مادة - ودع] .

من الطعام فهو يمدُّ يده ليأكل منه : ذلك أن الإنسان يأكل شهوةً وممتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة : فإن جاءت اللذة مع الطعام فاهلاً بها : ذلك أننا في بعض الأحيان نأكل ونلتذذ ، لكن الطعام لا يمرى^(١) علينا : بل يُتعبنا : فنطلب المَهْضِمَات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول : « بحسب ابن آدم لُقيَمَات يُقِمِّن صُلْبُهُ »^(٢) .

أى : أنه ﷺ ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ونلاحظ الفارق بين طعام الدنيا وطعام الجنة في الآخرة : فهناك سوف نأكل الطعام الذى نستلذ به ويمرّى علينا : بينما نحن نُضطر في الدنيا - في بعض الأحيان - أن نأكل الطعام بدون ملِّح ومسلوقا كى يحفظ لنا الصحة : ولا يُتعبنا : وهو أكل مرىء وليس طعاماً هنيئاً ، ولكن طعام الآخرة هنيء ومرىء .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه .

﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا... ﴾ (٤)

[الحجر]

أى : أن يأكلوا أكلاً مقصوداً لذات اللذة فقط .

(١) طعام مرىء هنيء . حميد المغبة بين الفراءة . ومرء الطعام سهل في الحلق وخسعت عاقبته وخلا من التقيص . [الفاموس القويم ٢/ ٢٢٠] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٤) وابن ماجة في سننه (٢٢٤٩) من حديث المقدم بن سعد بكرب ، وتامه . « ما علا آدمى وجاء شبرا من بطن ، حسب آدمى لقيعات يقفه صلبه . فإن غلبت آدمى نفسه - فثالث للطعام . وثالث للشراب . وثالث للنفس » .

ويقول الحق سبحانه متابعاً :

[الحجر]

﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ (٤)﴾

أى : أن ينصبوا لأنفسهم غايات سعيدة ؛ قُلُوبُهُمْ عَنْ وَسِيلَةٍ يَنْتَفِعُونَ بِهَا ؛ ولذلك يقول المثل العربى : « الأمل بدون عمل تلصص » فما دُمْتُ تأمل أملاً ؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحقيقه .

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْهُ النِّعْمَةُ ، فقال :

﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . (٦)﴾

[الكهف]

ولكن الساعة ستقوم رَغْمًا عَنْ أَنْفِ الْأَمَالِ الْكَاذِبَةِ ، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه :

[الحجر]

﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧)﴾

وكلمة (سوف) تدل على أن الزمن مُتَرَاخٍ قَلِيلًا ؛ فالأفعال مثل « يعلم » تعنى أن الإنسان قد يعلم الآن ؛ ويعلم من بَعْدَ الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأزمنة .

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمثون الإيمان ؛ كما قلنا وأوضحنا من قبل .

ومكنا نرى أن قوله :

[الحجر]

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨)﴾

يشمل كل الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه في الدنيا أشياء
تؤذي بصديق وعده ، والذين يظنون أنهم يسيطرون على كل الحياة
يفاجئهم زلزال ؛ فيهدم كل شيء ، على الرغم من التقدم فيما يسمى
« الاستشعار عن بُعد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقي .

وفي نفس الوقت نرى الحمير التي تتهمها بأنها لا تفهم شيئاً
تهبُ - هي والماشية - من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن
الحظائر التي قد تتهدم عليها ، وفي مثل هذا التصرف الغريزي عند
الحيوانات تحطيم وأذى للغرور الإنساني ، فمهما قاده الغرور ،
وادعى أنه مالك لخاصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجهولاً .

وكذلك نجد من يقول عن البلاد الممطرة : إنها بلاد لا ينقطع
مائها ، لذلك لا تنقطع خضرتها . ثم يصيب تلك البلاد جفافٌ
لا تعرف له سبباً ، وفي كل ذلك تنبيه للبشر كي لا يقعوا أسرى
لغيرهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك ضارباً لهم المثل .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾

أي : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أي قرية إلا في الأجل المكتوب
لها . ويجعلها من المثل التي يراها من يأتي بعدها لعله يتعظ
ويتعرف على حقيقة الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦٤٣﴾

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَتْيِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا^(١) مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ^(٢) بِأَنعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

[النحل]

والمثل القريب من الذاكرة « لبنان » التي عاشت إلى ما قبل الخمسينيات كبلد لا تجد فيه فندقاً لا نقلاً ، ثم ازدهرت وانتعشت في الستينيات والسبعينيات ؛ واستشرى فيها الفساد ؛ فقال أهل المعرفة بالله : « لا بُدَّ أَنْ يَصِيبَهَا مَا يَصِيبُ الْقَرْيَ الْكَافِرَةَ بِأَنعَمَ اللَّهُ » .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ .. (٦٥)﴾

[الأنعام]

وهذا ما يحدث في الدنيا ، وهي مُقَدَّمَاتُ تُؤَكِّدُ صِدْقَ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ فِي الْآخِرَةِ .

وسبحانه القاتل :

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٤٨)﴾

[الإسراء]

وبطبيعة الحال : فهذا ما يحدث لأي قرية ظالم أهلها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مثقال ذرة .

وأذكر أن تفسير النسفي^(٣) قد صُوِّدَ في عصر سابق ؛ لأن

(١) رَغَدُ الْعَيْشِ : اتسَع وطاب . والرَّغْدُ : الكثير الواسع الذي لا يُعْيِيكَ مِنْ مَالٍ أَوْ مَاءٍ أَوْ عَيْشٍ أَوْ كَلَا . [لسان العرب - مادة : رَغَد]

(٢) كَفَرُ النِّعْمَةِ : جحدوها . كفر النعمة : جحدوها ولم يشكروها ولم يشكروا من قدرها له . أو كَانَ سَبِيحًا فِيهَا بَلْ أَنْكَرَ فَضْلَهُ [القاموس القويم ١٦٤ / ٢]

(٣) هو : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، فقيه حنفي ، مفسر من أهل إيدج ووفاته فيها . نسبته إلى « نسف » ببلاد السند ، بين جيحون وسمرقند . توفي عام (٧١٠ هـ) (١٣١٤ م) (١٣١٤ م) (١٣١٤ م) .

صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : « حدثني فلان عن فلان أن البلد الفلاني سيحصل فيه كذا : والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويل لأهلها ، وويل لأهل سوريا ، وويل لأهل الرملة ، وويل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

وما دام الحق سبحانه قد قال :

﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨)

[الإسراء]

فهو يُعَلِّمُ بعضاً من خلقه بعضاً من أسرارهِ ، فلا مانع من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم ، وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذي كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُوِّدَ تفسير النفسى .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا فى الدنيا مثلاً يؤكد صدقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصَدِّقَ ما يمكن أن يكون يعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٤)

[الحجر]

فليس لأحد أن يقول : « إن ذلك لم يحدث للبلد الفلانى » لأن كُلَّ أمر له أجل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ (٥)

أى : أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى
الأجل المعلوم جاءت نهايتها : فلا كائن يتقدم على أجله ، ولا أحد
يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا إِنَّا إِلَهُ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦)

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن : ذلك أنهم لو كانوا
يؤمنون بالقرآن وبالرسول : لما وصفوه ﷺ بالجنون . والذين قالوا ذلك
هم أربعة من كبار الكفار : عبد الله بن أبى أمية ، والنضر بن الحارث ،
وتوفيل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس : إنهم
الوليد بن المغيرة المخزومي : وحبيب بن عمرو الثقفي . وقيل عن
مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح : قَهُمْ - شَاؤُوا أم أَبَوْا -
يعترفون بالقرآن بأنه « ذِكْرٌ » ، والذِّكْرُ فى اللغة له عدة معانٍ . منها
الشرف . وقد أطلق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (١١)

وسبق لهم أن تَلَمَّسُوا فى هذا القرآن هُتَاتٍ : فلم يجدوا . فكيف
يَصِفُونَ مَنْ نَزَّلَ عَلَيْهِ هذا القرآن بالجنون : وهم الذين شهدوا له من
قَبْلِ بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصف رسوله ﷺ فقال :

[القلم]

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٧)

وهم فى اتهامهم للرسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : (بنأيها) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذى يخاطبه به الله : وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقييرا واحتراما للرسول ﷺ دون أن يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين ينطق أهل العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا :

﴿ لَا تَنْفَقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ ﴾ (٧) [المنافقون]

أى : لا تنفقوا على من عند النبى ﷺ ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . هم يقولون عنه « رسول الله » ، فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غلبة الحق ؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧)

ونعلم أن فى اللغة الفاظاً تدل على الخث وعلى رغبة المتكلم فى أن يوجد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « لو ما » . و « لولا » تجيء للتمنى ورغبة ما يكون بعدها . وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء زيد لأكرمته » لكن لمجئء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفار هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ۖ ﴾ (٧) [الحجر]

سُورَةُ الْحَجَرِ

○ ٧٦٤٧ ○

وسبق لهم أن قالوا :

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) ﴿

[الفرقان]

وكأنهم يطلبون نزول ملك مع الرسول ليؤنسه وليصدقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المعلق على هذا الشرط : تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملك ؟

وسبق أن تناول القرآن هذا الأمر في قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩١) ﴿

[الإسراء]

وكأنهم علقوا الإيمان بالرسول على شرط أنه ليس ملكاً : بل من صنف البشر ، وجاء الرد عليهم :

﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشيُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥) ﴿

[الإسراء]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملكاً : لما استطاع أن يمشي في الأرض مطمئناً : فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أسوة وقدة للبشر : لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبحوه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، لردُّوا عليه قائلين : أنت ملك ينطبق عليك قول الحق :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٤٤) ﴿

[التحريم]

وأنت لا تصلح أسوة لنا . ثم كيف يتكلمون مع ملك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مستواه ليأخذوا

منه ، وهو لن يستطيع أن ينزل إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه :
ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجَّتَهُمْ في عدم الإيمان بالرسول :
لأنه لم يأت من جنس الملائكة : وأبطل حُجَّتَهُمْ في طلبهم أن ينزل
مع الرسول ملائكة : لِيُؤَيِّدُوهُ في صدق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا نُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ (٨)

وهكذا يعلمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزل الملائكة إلا بمشيئة
حكمته سبحانه ، ولو نزل الملك - كما طلبوا - لمساعدة رسول
الله ﷺ في البلاغ عن الله ، فالملك إما أن يكون على هيئة البشر :
فلن يستطيعوا تمييز الملك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة
الملك ، فلا يستطيع البشر أن يروه ، ولأهلكوا .

ذلك أن البشر لا يستطيع تحمّل التواصل مع القوة التي أودعها
الله في الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مِنْكَ لَقَضَى الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴾ (٨) ﴿ (الأنعام)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٧٢٨/٥) : « معنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ » .. (٨) ﴿ [الحجر] إلا
والقرآن وقيل بالرسالة ، عن مجاهد وقال الحسن إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا » .

(٢) أنظره آخره وأماهه ، ذاتي عنه ، [الفاحوس القويم ٢٧٢/٢]

ولو جعله الحق سبحانه في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الامر ، ولظنوا أن الملك بشرٌ مثلهم .

وفي هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبِئْسَ عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبَسُونَ ﴾ (٩) ﴿

[الأنعام]

لم يُنزل الحق سبحانه الملائكة : لأنه لم يشأ أن يهلكهم ورسول الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣٣) ﴿

[الأنفال]

وقد آمن معظمهم ودخلوا في دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم . وكان الله غفورا رحيماً : لأن الإسلام يجب^(١) ما قبله .

وحين ننظر إلى صدر الآية نجد أنه سبحانه قال :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ . . . ﴾ (٨) ﴿

[الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (٥٩) ﴿

[الإسراء]

(١) أى : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصي والذنوب . [فإله ابن منظور في لسان العرب - مادة - جب] .

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التي طلبوها :
لأن السابقين لهم ، كذبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يكذبوا
أيضاً ، فحسبى لو نزلت الآية فسيكذبونها . وحين يكذبون في آية
مقترحة من عندهم ، فلا بد أن نهلكهم ، أما لو كذبوا في آية مُنزلة
من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فستنزلهم بالحق ، والحق
هو أن نهلكهم إذا كذبوا .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨)﴾ [الحجر]

أى : ما كان أجل المشركين قد حان لينزل الله لهم الملائكة
لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التي طلبت الآيات ، فنزلت
لهم كما طلبوها ، ولما لم يصدقوا ويؤمنوا أهلكهم الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

والقرآن قد جاء بعد كتب متعددة . وكان كل كتاب منها يحمل
منهج الله : إلا أن أى كتاب منها لم يكن معجزة : بل كانت المعجزة
تنزل مع أى رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ . وعادة ما تكون
المعجزة من صنف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصلاً عن المعجزة : فقد طلب الحق سبحانه
من الحاملين لكتب المنهج تلك أن يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦﴾

من الحق سبحانه لهم . والتكليف . كما تعلم . عُرْضَةٌ أَنْ يُطَاعَ .
وعُرْضَةٌ أَنْ يُعْصَى . ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكتب
المنزلة إليهم .

ونجد الحق . سبحانه وتعالى . يقول :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا^(١) وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْيَارُ^(٢) بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. (١٤)﴾
[المائدة]

أى : أن الحق . سبحانه وتعالى . قد كلفهم وطلب منهم أن
يحفظوا كتبهم التي تحصل منهجه . وهذا التكليف عُرْضَةٌ أَنْ يُطَاعَ .
وعُرْضَةٌ أَنْ يُعْصَى . وهم قد عصوا أمر الحق سبحانه وتكليفه
بالحفظ : ذلك أنهم حرفوا وبدلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم :

﴿وَأِنْ قَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾
[البقرة]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله : لذلك قال
فيهم الحق سبحانه :

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
(٧٩)﴾
[البقرة]

(١) اليهود التوبة . وهاد يهود . تأبى ورجع إلى الحق . هادوا . دخلوا في اليهودية . { لسان
العرب - مادة هود } .

(٢) الحبر (بفتح الحاء وكسر هاء) . العالم . وجمعه أحبار . { القاموس الفويم ١/ ١٤٠ } . وقال
ابن منظور في { اللسان مادة حبر } : « معناه العالم بختيار الكلام والعلم وتحسينه » .

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسُلِهِ السَّابِقِينَ على رسول الله ﷺ .

ولذلك لم يَشَأْ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ، لأن التكليف عُرْضَةٌ أَنْ يُطَاعَ وَعُرْضَةٌ أَنْ يُعْصَى ، فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صدق بلاغ رسول الله ﷺ في نفس الوقت

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٠)

[الحجر]

والذِّكْرُ إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن ؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج ؛ وسبحانه قد شاء حفظه ؛ لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله ﷺ .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فوراً أن ينزل على رسول الله ﷺ ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ؛ ولكنهم يتفنون في وسائل حفظه ؛ فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة ؛ وسحَّرَ لذلك مواهب أناس غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمَّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفي ألمانيا - على سبيل المثال - توجد مكتبة يتم حفظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعَيَّن مُحدَّد .

وفي بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهى حفظه وعمره سبع سنوات ؛ وإن سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممن يحفظونه لا يملكون آية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ؛ فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمة ذات معنى مُقارب لها ؛ إلى أن يردّه حافظٌ آخر للقرآن .

ولكى نعرف دقة حفظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ؛ نجد أن البعض قد حاول أن يُدخل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يروون أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقيير الرسول ﷺ ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[الفتح]

49

وأدخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : « إن به شيئاً زائداً » ، فردَّ مَنْ طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتؤثِّرونها » ، فردَّ العلماء : « إن القرآن توقفي : نقرؤه ونطبعه كما نزل » .

وقامت ضجة : وحسمها العلماء بأن أي زيادة - حتى ولو كانت في توقيف رسول الله ﷺ ومحبه - لا تجوز في القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقنه جبريل لمحمد ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ^(١) ﴾

وهنا يُسألُ الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ؛ فلا بُدَّ أن تكون مشقتك على قدر مهمتك ، ولا بُدَّ أن يكون تعبُك على قدر جسامته الرسالة الخاتمة .

و ﴿ شَيْعِ ^(١) ﴾ [الحجر]

تعني الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثل على من اجتمعوا على باطل هو قوله الحق :

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ^(٢) شِيَعًا ^(٣) .. ﴾ [الأنعام]

والمثل على من اجتمعوا على الحق قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ ^(٤) لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات]

وهكذا تكون كلمة (شيع) تعني الجماعة التي اجتمعت على الحق أو الباطل .

(١) الشيع . جمع شيعة . وهي الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً . وشيعة الرجل : أتباعه وأتباعه . ومن على مذهبه ورأيه . [القاموس القويم ١ / ٣٦٣] .

(٢) يلبسكم شيعاً : أي . يعمي الأمور عليكم فتصيرون فرقاً مختلفة . [القاموس القويم ١ / ١٨٨] .

(٣) للضمير هنا عائذ على نوح عليه السلام . قال ابن عباس : أي من أهل ذريته . وقال مجاهد : من شيعة نوح إبراهيم . على متناهجه وسنته . وقال قتادة : على دينه . ذكر هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور (٧ / ١٠٠) .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)﴾ [الحجر]

يعنى أنك لن تكون أقل من الرسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك فى الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ ، فيقول :

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾

ونجد كلمة :

﴿يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾ [الحجر]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ [الحجر]

وكان الحق سبحانه يوضح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليل على أنك قد بلغت منهم مَبْلَغَ الكَيْدِ ، ولو كان كيدك قليلاً لخففوا كَيْدَهُمْ ؛ ولكنك جئت بأمر قاس عليهم ، وهدمت لهم مداميهم ، وهدمت حتى سيادتهم وكذلك سطوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يُحققوا لك الخُور^(١) لتضعف ؛ معتمدين فى ذلك على

(١) الخُور : الضعف والانكسار . وقال الليث : الخُور : الضعيف الذى لا يقاوم له على الشدة .

[لسان العرب - مادة : خور] .

أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً في قومه ومُعزراً مكرمًا .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُسْتَهْزَأ به وسيُحَارَب ؛ وسيُؤَذَى ؛ لأن المهمة صعبة وشاقة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول ﷺ قبل أن يتأكد من مهمته ؛ أخذته زوجته خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - عند ورقة بن نوفل ؛ وعرف ورقة أنه سيُؤَذَى ، وقال ورقة لرسول الله ﷺ : ليتنى أكون حياً حين يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فتساءل الرسول ﷺ : أَمْخْرِجْنِي هُمْ ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١) .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصَّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التي تقابل الأحداث ؛ فما دام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفُوفٌ بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة في مكان به وباء يحتاج إلى مَصْلٍ^(٢) مضاد من هذا الوباء ؛ ليقى نفسه منه ، وهذا ما يحدث في الماديات ، وكذلك الحال في المعنويات .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٣٩/٢ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير الأنصاري . وانظر دلائل النبوة لأبي نعيم (١٦٨) .

(٢) المصل : ما يتخذ من دم حيوان محصن من الإصابة بمرض كالجدري والدفتريا ثم يحقن به جسم آخر ليكسبه مناعة تقويه الإصابة بذلك المرض . [المعجم الوجيز - مادة : مصل] .

ولهذا يوضح سبحانه هذا الامر لرسوله ﷺ ، ولقزاد ثقته في الحق الذي بعثه به ربه ، ويشد في المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء - كما نعلم - لَوْنٌ من الحرب السلبية : فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجد ، ولا أن يردّوا منهجه الراقى : لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من رسول الله ﷺ ، ولم تنفعهم سخريتهم في النُّيل من الرسول ، أو النُّيل من الإسلام ، وفي هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول ﷺ :

﴿ كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

و « سلك الشيء » أى : أدخله ، كما ندخل الخيط فى ثقب الإبرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ مَا سَأَلَكُمْ فِي سَفَرٍ ﴾ (٢٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٣﴾ ﴿ [المدثر]

أى : ما أدخلكم فى النار : فتاتى إجابته :

﴿ثُمَّ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ (١٢) [المذثر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الحجر)

(١) أى - كذلك نفسك الضلال والكفر والاستهزاء والشرك فى قلوبهم . والسك : إدخال الشيء فى الشيء كإدخال الخيط فى المخيط . (تفسير القرطبي ٥ / ٣٧٢١) .

(٢) سقر : اسم من أسماء جهنم . [القاموس القويم ١/٣٦٧] . قال السيوطي في الإتقان (١١٣/٢) : « ذكر الجواليقي أنها أجمعية » وقال ابن منظور في اللسان (مادة . سقر) : « وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربي من قولهم : سقرته الشمس . أي : أذابته . »

أى : كما سلكنَا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع
الاولين ، كذلك نُدْخِلُهُ فى قلوب المجرمين .

يعنى : مشركى مكة ، لانهم ادخلوا أنفسهم فى دائرة الشرك
التي دعتهُم إلى هذا الفعل ، فَنَالُوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من
أقوام مثلهم : وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذيبونه بالسنتهم ،
مثلاً قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافَةً أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ (١١)

[النمل]

فهم أمة بلاغة ولغة وبيان ؛ وقد أثر فيهم القرآن بحلاوته
وطلاوته^(١) ؛ ولكنه العناد ، وها هو واحد^(٢) منهم يقول :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن
أسفله لمغدق »^(٣) .

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة .

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان ؛ والحق سبحانه هو
القاتل عن أحدهما :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾ (١٦)

[محمد]

أى : أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ،
فقال الحق سبحانه رداً عليهم :

(١) الطلاوة : الحُسْنُ والقبول والرواق . [إسان العرب - مادة : طلى] .

(٢) هو الوليد بن المغيرة - أبو عبد شمس ، وقد كان ذا سنٍّ فيهم ، وكبيراً من كبارهم .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٧٠ / ١) .

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..﴾ (٤٤) [فصلت]

وهى مسألة - كما أقول دائماً - تتعلق بالقابل الذى يستقبل الحدث ؛ إما أن يُصَفَّى قلبه ليستقبل القرآن ؛ وإما أن يكون قلبه - والعياذ بالله - مُمْتَلئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق ، وقد حدث أن أدخل الحق سبحانه كتبه السماوية فى قلوب الأقباط السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظلمة عقولهم : سَخَرُوا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها . ويَصِفُ الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله :

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣)

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكفرة لا تلتين بالإيمان ، ولا تُحسن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتَلئة بالكفر ، تماماً كما حدث من الأقباط السابقة ، فتلذذت سنة من سبقوهم إلى الكفر . والسنة هى الطريقة التى تاتى عليها قضايا النتائج للمقدمات ، وهى أولاً وأخيراً قضايا واحدة . ومرة نجد الحق سبحانه يقول :

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٣٢) [الأحزاب]

(١) الوقْر : ثقل فى السمع أو صمم . [الفاموس القويم ٢ / ٢٥٠] .
(٢) خلا الأمر بخلو : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضع . [لسان العرب - مادة : خلا] .

ونعلم أن الإضافة تختلف حسب ما يقتضيه التعبير . ف (سنة الأولين) تعني الأمور الكونية التي قدرها الله لعباده . و (سنة الله) تعني سنة منسوبة لله . ومن سنن الحق سبحانه أن يهلك المكذبين للرسول إن طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ^(١) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ^(٢) ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم ملك من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى مما طلبوا ، ذلك أن نزول ملك من السماء هو أسهل بكثير من أن ينزل من السماء سلماً يصعدون عليه ، وفي هذا ارتقاء في الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً في الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فلكسوفاً يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لسحروهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادون في الكفر ، ويقولون : إنه لو نزل سلماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لكان ذلك بفعل السحر ؛ ولكان رسول الله هو الذي سحروهم ؛ وأعمى أبصارهم ، وأجعلهم يتوهمون ذلك .

(١) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ١٢/٢] . والمعراج : المصاعد والدرج . والمعراج : السلم . [لسان العرب - مادة : عرج] .

(٢) سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، أي : حبست عن النظر وخيرت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معناه غطيت وغشيت . أي : سدت بالسم . فيتحايل بأبصارنا غير ما ترى . [لسان العرب - مادة : سكر] .

وكان معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا في مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلماً يصعدون به إلى أعلى ؛ ليقولوا : إن الحق هو الذي بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ؛ لما آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم ، وهكذا يرتقون في العناد والجحود .

ولا بُدَّ أن نلاحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة :

[الحجر] ﴿ فَظَلُّوا (١٤) ﴾

ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لمُطلق الزمن ، و « ظل » للعمل نهاراً ، و « أمسى » للعمل ليلاً ، أى : أن كل كلمة لها وقت مكتوب ، والمقصود من « ظلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذي يعرجون عليه إلا في منتصف النهار ، ولكنهم أصدروا على الكفر .

لذلك قال سبحانه :

[الحجر] ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ (١٥) ﴾

أى : لن تأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون في وضوح النهار . أى : أن الله حتى لو فتح باباً في السماء يصعدون منه إلى الملا الأعلى في وضوح النهار لكذبوا .

وبعد ذلك يتقلنا الحق سبحانه إلى الكون ليُرينا عجيب آياته ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾

والبروج تعنى المياض العالية ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ^(٧٨) ﴾

[النساء]

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ^(١) ﴾

[البروج]

والمعنى الجامع لكل هذا هو الزينة المُلَفَّقة بجرمها العالى ؛ وقد تكون مُلَفَّقة بجمالها الاخاذ .

والبروج هى جمع بُرْج : وهى منازل الشمس والقمر ؛ فكما تحركت الشمس فى السماء تنتقل من برج إلى آخر ؛ وكذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ^(٢٢) ﴾

[الانبيا]

وهو سبحانه القائل :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ ^(٤) ﴾

[يونس]

أى : لنضبط كل التوقيعات على ضوء تلك الحركة لكل من الشمس والقمر ، ونحن حين نفتح أى جريدة نقرأ ما يُسمى بابواب الطالع ، وفيه أسماء الأبراج : برج الحمل ، و برج الجدى ، و برج العذراء ؛ وغيرها ، وهى أسماء سريرية للمنازل التى تنزلها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وظلاه . [القاموس القويم : ٢٦٢/١] .

الْجَعْلَ لتأثيرها في الجو ، أو لأنها علامات نهتدى بها ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدي مهمة جمالية كبيرة ، وهي أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَزَيْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ﴾ (١٦)

[الحجر]

ذلك أن الشيء قد يكون نافعا ؛ لكن ليس له قيمة جمالية ؛ وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه مكات متعددة ، وكل ملكة لها غذاء .

فغذاء العين المتظر الجميل ؛ والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيبة ؛ واللسان يعجبه المذاق الطيب ، واليد يعجبها الملمس الناعم ؛ وهذا ما نعرفه من غذاء الملكات للحواس الخمس التي نعرفها .

وهناك ملكات أخرى في النفس الإنسانية ؛ تحتاج كل منها إلى غذاء معين ، وقد يُسبب أخذ ملكة من ملكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تفسد تلك الملكة ؛ وكذلك قد يُسبب الحرمان لملكة ما فساداً تكوينياً في النفس البشرية .

والإنسان المتوازن هو مَنْ يُغذى ملكاته بشكل متوازن ، ويظهر المرض النفسي في بعض الأحيان نتيجة لنقص غذاء ملكة ما من الملكات النفسية ، ويتطلب علاج هذا المرض رحلة من البحث عن الملكة الجائعة في النفس البشرية .

وهكذا نجد في النفس الإنسانية ملكة لرؤية الزينة ، وكيف

تستحيل الزينة النفس البشرية ؟ ونجد المثل الواضح على ذلك هو وجود مهندسى ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة فى البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم :

﴿وَرَبَّانَاهَا لِلنَّاطِرِينَ﴾ (١٦) [الحجر]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نعمه التى أنعم بها علينا :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ (٨) [النحل]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هى فى خدمة الإنسان فى أمور أخرى :

﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ﴾ (١) إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦) [النحل]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المتأخرة ؛ ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فيها سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريد لجلاله .

(١) الأنفال : الاحمال الثقيلة . والنفل : الحمل الثقيل . [الغاموس القويم ١/١٠٨] .

(٢) سرجت الماشية . أى - أخرجتها بالغداة إلى المرعى . [لسان العرب - مادة : سرج] .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج :

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧)

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون^(١) السمع لبعض من منهج الله الذي نزل على الرسل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ وكانوا يحاولون أن يضيّفوا لها من عندهم ما يفسد معناها ، وما أن جاء رسول الله ﷺ حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه . يقول جل علاه :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ...﴾ (١٧٢) [الأنعام]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم في كتابه العزيز :

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَطَخَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا^(٢) رَصَدًا﴾ (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) [الجن]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ؛ ويأخذون بضعة من كلمات المنهج ويزيدون عليها ؛ فتبدو بها حقيقة واحدة وألف

(١) استرق السمع : إذا سمعه مستخفياً كأنه يسرق الكلام المسموع كما يسرق المال . وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَى السَّمْعَ...﴾ (١٧) [الحجر] أي : استمع في خفية . [القاموس القويم ٢١٢/١] .

(٢) الشهاب : الشعلة الدامعة من النار . وهو النجم المضيء اللامع . وهو جرم سماوي يسبح في الفضاء ، فإذا دخل في جو الأرض اشتعل ، وصار رماداً . [المعجم الوجيز : مادة : شهب] .

للمنهج المُنْزَل على الرُّسُل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة ؛ حيث شاء الحق سبحانه أَنْ يحرسَ السماء ؛ وما أَنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب^(١) .

والشهاب هو النار المرتفعة ؛ وهو عبارة عن جَذْوَة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ؛ ويخرج منه اللهب ، وهو ما يُسمى بالشهاب .

أما إِنْ كان اللهب بلا ذَوَابَة^(٢) من دخان ؛ فهذا اسمه « السَّمُوم » . وإنْ كان الدخان مُلْتَوِيًا ، ويخرج منه اللهب ، ويموج في الجو فيُسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه :

﴿ مَارِجٌ مِّن نَّارٍ ۖ ﴾ (١٥)

[الرحمن]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَّ وَأَنْبَتْنَا

فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۖ ﴾ (١٦)

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أَيْنَ . والمدُّ هو الامتداد الطبيعي لِمَا نسير عليه من أي مكان في الأرض .

وهذه هي اللفظة التي يلفتنا لها الحق سبحانه ؛ فلو كانت الأرض

(١) شهاب ثاقب أي : مشتعل مضيء خارق لظلام الليل ، أو خارق ملحق لكل شيطان بخطف خلفه من السماء ، وسبب اشتعال الشهاب هو دخوله في نطاق جاذبية الأرض واحتكاكه بالهواء . [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) ذَوَابَة كل شيء : أعلاه . ذَوَابَة الفرس : شعر في الرأس . في أعلى الناصية . وذَوَابَة القوم : أشرفهم وأعلامهم . [لسان العرب - مادة : ذاب] .

﴿وَأَنْبِئْنَا^(١) فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر]

وأثبت سبحانه من الأرض كُلَّ شَيْءٍ موزونٌ بِدَقَّةٍ تناسب الجو
والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سيحانه من بعد ذلك :

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿﴾

ففى هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا فى الأرض وسائل للعيش : ولم يكتفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقاً ما نطعمه نحن من الكائنات التى تخدمنا : من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة : وفوق ذلك أعطانا الذرية التى نقرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ﴾

إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٦١﴾

وقوله الحق :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ . . .﴾ (٢١)

أى : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائن عند الله

(١) المقصود من الإنبياء: الإنشاء والإيجاد. قاله الفرطاسي في تفسيره (٢٧٣٦/٥) . رحمه

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ آتٰكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَآءًا﴾ [نوح] .

(٢) الصالحات : جمع معيشة ، وهو ما يقتات به ويعيش عليه الإنسان .

ولو أن ما يُصرف على الحروب ؛ تم ترجيحه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لعاش الجميع في وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المُسبب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضيقاً في موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل في أماكن في الأرض ؛ رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل في أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ ونتجاهل قوله سبحانه :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ۚ﴾ (٢١) [الحجر]

فلكل شيء في الأرض خزائن ؛ والخزينة هي المكان الذي تُدخَر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدّر في الأرض أقواتاً لكل الكائنات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . فإن حدث تضيق في الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيع ، إما لأنكم أهملتم استصلاح الأرض وإحياء مواتها^(١) بقدر ما يزيد تعداد السكان في الأرض ، وإما أنكم قد كنزتم ما أخذتم من الأرض ، وضننتم بما اكتنظتموه على سواكم .

فإن رأيتَ فقيراً مُضيّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضنَّ عليه بما

(١) إحياء الموات هو إعداد الأرض المبة التي لم يسبق تعميرها وتهيتها وجعلها صالحة للانتفاع بها في السكنى والزرع ونحوها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها . [فقه السنة ٢/ ٢٠١] يَصرَف .

أفاض الله على الغنى من رزق ، وإنْ رأيت عاجزاً عن إدراك أسباب حياته فاعلم أن واحداً آخر قد ضنَّ عليه بقُوته . وإنْ رأيت جاهلاً ؛ فاعلم أن عالماً قد ضنَّ عليه بسعلمه . وإنْ رأيت أخْرق^(١) فاعلم أن حكيماً قد ضنَّ عليه بحكمته ؛ فكلُّ شيء مخزون في الحياة ؛ حتى تسلم حركة الحياة ؛ سلامة تؤدي إلى التسانُد والتعاضد ؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحانه قد أعدَّ لنا الكون بكل ما فيه قبل أن يخلقنا ؛ ولم يُكلفنا قبل البلوغ ؛ ذلك أنه علم أن التكليف يُحدِّد اختيار الإنسان لكثير من الأشياء التي تتعلق بكل ملكات النفس ؛ قُوتاً ومَشرباً وملبساً ومسكناً وضبطاً للأهواء ، كي لا ننساق في إرضاء الغرائز على حساب القيم .

وشاء سبحانه ألا يكون التكليف إلا بعد البلوغ ؛ حتى تستوفي ملكات النفس القوة والاعتدال ، ويكون قادراً على إنجاب مثل له ، ولكي يكون هذا التكليف حُجَّة على الإنسان ، هذا الذي طمَّر له الحق سبحانه كل شيء إما في الأرض ؛ أو كان طمراً في النوع ، أو في الجنس .

وكلُّ شيء في الكون موزون ، إما أن يكون جنساً ، أو نوعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذي توجد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليوافق الكثرة ؛ وليعيش الإنسان في حضن الإيمان . وهكذا يكون عطاء الله لنا عطاءً ربوبيّةً ، وعطاءً ألوهيةً ، والذكي حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

(١) الأخرق : الأحمق الجاهل الذي لا يُحسن عمله . [لسان العرب - مادة : خرق] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ^(١) ﴾ (١٠٠)

[الإسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظن أن ذاتيته هي الأصل ، وأن نفعيته هي الأصل ، وحتى في قضايا الدين : قد يتبع العبد قوله الحق :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(٢) ﴾ (٩)

[الحشر]

ومن يفعل ذلك إنما يفعله في ظاهر الأمر أنه يؤثر الغير على نفسه : ولكن الواقع الحقيقي أنه يطمع فيما أعدّه الله له من حسن جزاء في الدنيا وفي الآخرة .

إذن : فأصل العملية الدينية أيضاً هو الذات : ولذلك نجد من يقول : أنا أحب الإيمان : لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٣) ﴾ (٨)

[العنكبوت]

وفيه أنانية ذكية تنبج لصاحبها أخذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة : لأنها أنانية باقية ، ولها عائد إيماني .

(١) قنر الرجل على عياله : ضيق عليهم في النفقة ، والقنر : ضيق العيش . والإقتار :

التضييق على الإنسان في الرزق . [لسان العرب - مادة : قنر] .

(٢) خصّ ينص خصاصة : افتقر واحتاج . والخصاصة : الفقر والاحتياج ، [انقاموس القويم

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء ؛ ولم يجعل يداً علياً ويدا سفلَى ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك ؛ ليَجعل الإنسان ابنَ أغْيَارٍ ؛ ويعدل فيه بميزان الإيمان ، وليدُكُ غرور الذات على الذات ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربِّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتى للإنسان بأى شيء .

وكل مظاهر القوة فى الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هى موهوبة له من الله ؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُهذَّبَ الناسَ ليُحسِنُوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائن كل شيء . ولو شاء للقى ما فيها عليهم مرة واحدة ؛ ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابنُ أغْيَارٍ ؛ وليلفتهم إلى مُعْطَى كل النعم .

كما أن رتبة النعمة قد تُنسى الإنسان حلاوة الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكر عَيْنِهِ إلا إذا ألمته ؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فقد النعمة هو الملفت للنعمة ، وذلك لكى لا ينسى أحد أنه سبحانه هو المنعم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٢)

(١) لواقح : حوامل ، لأنها تحمل الماء والثراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهري : وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أى : تُقلِّه وتصورفه ثم تمر به فتسندره ، أى تنزله . [تفسير القرطبي ٣٧٢٩/٥] .

والإرسال هو الدَّفْعُ للشيء من حَيْزٍ إلى حَيْزٍ آخر ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح : نجد أنها مُرسلة من كُلِّ مكان إلى كُلِّ مكان : فهي مُرسكة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان : هو موقع لإرسال الرياح : وكل مكان هو موقع لاستقبالها : ولذلك نجد الرياح وهي تسير في دَوْرَةٍ مستمرة : ولو سكنت لما تحرك الهواء ، ولأصبحت البشرية بالكثير من الأمراض : ذلك أن الرياح تُجدد الهواء ، وتُنظف الأمكنة من الرُكود الذي يُمكن أن تصير إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.. (٥٧)﴾ [الاعراف]

أما إذا أفرد وجاء بكلمة « ريح » فهي للعذاب ، مثل قوله :

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ^(١) عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر]

ولواقح جمع لاقحة ، وتُطلق في اللغة مرّة على الناقة التي في بطنها جنين ؛ ومرة تُطلق على اللافح الذي يلقيح الخير ليصير فيه جنين ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون ؛ وجعل

(١) ريح صرّ وصرصر : شديدة البرد ، وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب - مادة : صرر] .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج في النبات فهي تنكشف وتتنظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهي خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر ؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر لتجد النباتات فرصة للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدَب ؛ لأن الرياح نقلت للنصف الأخضر حبوب اللقاح ، ولم تنقل الحبوب للنصف الثاني من الجبل ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورة تنقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقد تبين لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح ؛ وبه ذكورة وأنوثة .

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

أي : أنكم لن تخرنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخرن المياه ، فذلك من عطاء الله ؛ فلا يقولن أحد : لقد بيننا السدود ؛ بل قُلْ : هدانا الله لخبئها ؛ بعد أن يسقط المطر ؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزين المياه .

(١) أي : ليست خزائنه عندهم ، فنحن الخازنون لهذا الماء ، ننزله إذا شئنا ، ونمسكه إذا شئنا . [تفسير القرطبي ٥/ ٢٧٤٢] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦٧٩﴾

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذى خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أن هداقنا لقبضى السدود .

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقَطَّر ؛ تذهب إلى الصيدلى لِيسْخَن الماء فى جهاز مُعَيَّن ؛ ويحوّله إلى بخار ، ثم يكتف هذا البخار ليصير ماء مُقَطَّراً ، وكل ذلك يتم فى الكون ، وأنت لا تدري به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣)

وفى ظاهر الأمر كان من الممكن أن يقول الحق : « إنا نُمِيت ونُحْيى » ؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المحض الذى أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل :

﴿وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨)

[البقرة]

والكلام فى تفصيل الموت يجب أن تُفَرَّق فيه بين العدم المحض والعدم بعد وجود ؛ فالعدم المحض هو ما كان قبل أن نُخْلَق ؛ ثم أوجدنا الله لتكون أحياء ؛ ثم يميتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها يكون الكلام عن الموت الذى يحدث بعد أن يهبنا الله الحياة ، ثم نقضى ما كتبه لنا من أجل .

ثم يُذَكِّر الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٢)

[الحجر]

وهذا القول يعنى أن هناك تركة كبيرة ؛ وهى هذا الكون الذى خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُضَفْ شيئاً لهذا الكون الذى خلقه الله ؛ لأنك إن نظرتَ إلى كمية المياه أو الغذاء التى فى الكون ، وكل مقومات الحياة لَمَّا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص ؛ فالماء تشربه ليرويك ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ؛ ومن بعد الموت يتحلل الجسم ليتبخر منه الماء ، وهذا يجرى على كل الكائنات .

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة وعودة الكون فى النهاية إلى مُنشئه سبحانه ؛ فهو يُحَدِّثُنَا عن أمرين يمتوران^(١) حياة كل موجود ؛ هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كُلِّ الكائنات ؛ فكلُّ شيء له مدة يَحْيَاهَا ، وأجلٌ يقضيه .

وكل شيء يبدأ مهمة فى الحياة فهو يُولَدُ ؛ وكل شيء يُنْهَى مهمته فى الحياة - بحسب ما قدره الله له - فهو يموت ؛ وإن كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعى ذلك .

وهو سبحانه القائل :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٨٨)

[القصص]

(١) التماور والاعتوار أن يكون هذا مكان هذا ، وهذا مكان هذا . يقال : اعتواراه وابتدأه هذا مرة وهذا مرة . قاله ابن الأعرابي فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب [مادة : مور] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٠٣/٣) : « هذا إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿رَبِّقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٢) [الرحمن] فعبّر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هنا : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٨٨) [القصص] أى : إلا إياه .

- وقال مجاهد والثوري : أى إلا ما أريد به وجهه . وحكاه البخارى فى صحيحه كالمفرد له . وهذا القول لا ينافي القول الاول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باضلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشرعية ، والقول الاول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فإنه الاول الآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء .

إِذَنْ : فَكُلَّ شَيْءٍ يُطْلَقُ عَلَيْهِ « شَيْءٌ » مُصِيرُهُ إِلَى هَلَاكِ : وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ حَيًّا ؛ وَدَلِيلُنَا عَلَى أَنَّهُ كَانَ حَيًّا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ :

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۖ﴾ [٤٦] [الأنفال]

وَهَكَذَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ مَهْمَةٌ فِي الْحَيَاةِ لَهُ حَيَاةٌ تَنَاسِبُهُ ؛ وَفَوْرُ أَنْ تَنْتَهِيَ الْمَهْمَةُ فَهُوَ يَهْلِكُ وَيَمُوتُ ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِثُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ أَنْ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ لَهُ حَيَاةٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَائِلُ :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [١١] [مريم]

وَهُوَ بِذَلِكَ يَرِثُ التَّارِكَ وَالْمُتْرُوكَ ؛ وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ . وَيَخْتَلِفُ مِيرَاثُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ عَنْ مِيرَاثِ الْخَلْقِ ؛ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ حِينَ يَرِثُ آخِرٌ ؛ فَهُوَ يُودِعُهُ التُّرَابَ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَرِثُ مَا تَرَكَ ؛ أَمَّا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ يَرِثُ الْآثْنَيْنِ مَعًا ، الْمَخْلُوقَ وَمَا تَرَكَ .

وَلِذَلِكَ نَحْنُ نَرَى مَنْ يُعِزُّ عَلَيْهِمْ مَيِّتٌ ؛ قَدْ يُمَسِّكُونَ بِالْخَشْبَةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْجِثَّةَ ، وَيَرْفُضُونَ مَنْ قَرَّطَ الْمَحَبَّةَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَلَوْ تَرَكَاهُ لَهُمْ لِمُدَّةِ أَسْبُوعٍ وَرَمَتِ الْجِثَّةُ ؛ سَيَقُوسُكُونُ لِمَنْ يَحْمِلُ الْجِثَّةَ أَنْ يَحْمِلَهُ لِأُورِيهِ التُّرَابَ ، ثُمَّ يَبْدَأُونَ فِي مَنَاقِشَةٍ مَا يَرِثُونَهُ مِنَ الْفَقِيدِ .

وَهُمْ بِذَلِكَ يَرِثُونَ الْمُتْرُوكَ بَعْدَ أَنْ أَوْدَعُوا التَّارِكَ لِلتُّرَابِ ، وَإِذَا كَانَ التَّارِكَ مِنَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ فَيَدْخُلُ حَيَاةً جَدِيدَةً هِيَ أَرْغَدٌ بِالتَّكَبُّدِ مِنْ حَيَاتِهِ الدُّنْيَا ؛ وَلَسَوْفَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دُونَ أَنْ يَتْعَبَ ، وَكُلُّ مَا تَمَرَّ عَلَى ذَهْنِهِ رَغْبَةٌ فَهِيَ تَتَحَقَّقُ لَهُ ، فَهُوَ فِي ضِيَاةِ الْمُنْعَمِ الْأَعْلَى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ

﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾

والمُسْتَقْدِم هو مَنْ تَقَدَّمَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ : وَهُمْ مَنْ قَبَلْنَا مِنْ بَشَرٍ وَأَمَمَ . وَالْمُسْتَأْخِر هو مَنْ سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِنَا ، وَسَبْحَانَهُ يَعْلَمُكَ بِحُكْمِ أَنَّهُ عِلْمٌ مِنْ قَبْلِ كُلِّ مُسْتَأْخِرٍ ؛ أَيْ : أَنَّهُ عِلْمٌ بِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نُوجِدَ ؛ وَيَعْلَمُ بِنَا مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرْحَلَ ؛ فَعِلْمُهُ كَامِلٌ وَأَزْلَى ؛ وَفَائِدَةُ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّهُ سَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ ؛ فَنَحْنُ حِينَ أَخَذْنَا الْحَيَاةَ وَالرِّزْقَ لَمْ نُقَلِّتْ بِهِمَا بَعِيدًا ؛ بَلْ نَجِدُ اللَّهَ قَدْ عِلَّمَ أَرْلَأَ بِمَا فَعَلَ كُلُّ مَنَّا .

وَهَنَّاكَ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَنَّاكَ مَعْنَى آخِرٍ ؛ بِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يَكْتُبُ مَنْ يُسْرِعُ إِلَى الصَّلَاةِ وَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا قَوْرًا أَنْ يَسْمَعَ النِّدَاءَ لَهَا ، وَيَعْلَمُ

(١) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٤٢/٥) : « فِيهِ ثَمَانُ تَأْوِيلَاتٍ :

١ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : فِي الْخَلْقِ إِلَى الْيَوْمِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : الَّذِينَ لَمْ يَخْلُقُوا بَعْدَ . قَالَ قَتَادَةُ وَعُكْرَةُ وَغَيْرُهُمَا .

٢ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : الْأَمْوَاتُ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : الْأَحْيَاءُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ .

٣ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : مَنْ تَقَدَّمَ أَمَّةٌ مُحَمَّدٌ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : أَمَّةٌ مُحَمَّدٌ . قَالَ مُجَاهِدٌ .

٤ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : فِي الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : فِي الْمَعْصِيَةِ وَالشَّرِّ . قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ أَيْضًا .

٥ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : فِي صِفْوَةِ الْحَرْبِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : فِيهَا . قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ .

٦ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : مَنْ قَتَلَ فِي الْجِهَادِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : مَنْ لَمْ يَقْتُلْ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ .

٧ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : أَوَّلُ الْخَلْقِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : آخِرُ الْخَلْقِ قَالَ الشَّعْبِيُّ .

٨ - الْمُسْتَقْدِمِينَ : فِي صِفْوَةِ الصَّلَاةِ . وَالْمُسْتَأْخِرِينَ : فِيهَا بِسَبَبِ التَّمَاءِ . ذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٤٢/٥) .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿ ٧٦٨٢ ﴾

مَنْ يَتَأَخَّرُ عَنِ الْقِيَامِ بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ ، ذَلِكَ أَنْ تَأْثِيرَ كَلِمَةِ « اللَّهُ أَكْبَرُ »
فِيهَا مِنَ الْيَقَظَةِ وَالْإِنْتِبَاهِ مَا يُذَكِّرُنَا بِأَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغُوكَ .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم « الله أكبر » ؛
ولم يَقُلْ : الله كبير ؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا في الدنيا من
موضوعات قد نراها كبيرة ؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَانَ ؛ لأنها
المَعْبَرُ إِلَى الْجَزَاءِ الْقَادِمِ فِي الْآخِرَةِ .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أن تُنْفَسَى : وفي نفس
الوقت هي أتفه من أن تكون غاية ، فأنث في الدنيا تضرب في
الأرض وتسعى لِقُوَّتِكَ وَقُوَّةِ مَنْ تَعُولُ ؛ وَلِيُعِينَكَ هَذَا الْقُوَّةُ عَلَى
الْعِبَادَةِ .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا ؛ بل ليشكر الله ويدعوه أن يُوفِّقَه
فِيهَا ، وأن يبذل كلَّ جَهْدٍ فِي سَبِيلِ نَجَاحِهِ فِي عَمَلِهِ ؛ فإلعمل الطيب
ينال عليه العبدُ حُسْنَ الْجَزَاءِ ؛ وَقَوَّرَ أَنْ يَسْمَعَ الْمُؤْمِنُ « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛
فعليه أن يتجه إلى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ فِعْلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن
يؤدي الصلاة . هذا هو المعنى المُسْتَقْبَلُ مِنَ الْمُسْتَقْدِمِ لِلصَّلَاةِ
وَالْمُسْتَأْخِرِ عَنْهَا .

وهناك من العلماء مَنْ رَأَى مِلَاحَظَةً شَتَّى فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ،
فمَعْنَاهَا قَدْ يَكُونُ عَامًّا يَشْمَلُ الزَّمَنَ كُلَّهُ ؛ وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى خَاصٍّ ؛
كَمَعْنَى الْمُسْتَقْدِمِ لِلصَّلَاةِ وَالْمُسْتَأْخِرِ عَنْهَا .

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك ؛ فنحن حين نُصَلِّي
نقف صفوفًا ، ويقف الرجال أولاً ؛ ثم الأطفال ؛ ثم النساء ؛ ومن

الرجال مَنْ يَتَقَدَّمُ الصفوفَ كَيْلًا تَقَعُ عِيُونُهُ عَلَى امْرَأَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ
يَتَحَايَلُ وَيَقِفُ فِي الصفوفِ الْآخِرَةِ لِيَرَى النِّسَاءَ ؛ فَأَوْضَحَ الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا تَقُوتُ عَلَيْهِ ^(١) ، فَهُوَ الْعَالَمُ بِالْأَسْرَارِ
وَأَخْفَى مِنْهَا .

أَوْ : أَنَّ يَكُونُ الْمَعْنَى هُوَ الْمُسْتَقْدِمِينَ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ الْمَتَأَخِّرِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ . وَمَنْ يَمُوتُ حَتُّفًا أُنْفَهُ - أَيْ :
عَلَى فِرَاشِهِ لَا دَخَلَ لَهُ بِهِذِهِ الْمَسْأَلَةُ .

أَمَّا إِنَّ دَعَا دَاعِيَ الْجِهَادِ ، وَيُقَدِّمُ نَفْسَهُ لِلْحَرْبِ وَيُقَاتِلُ وَيُنَالُ
الشَّهَادَةَ ، فَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَى لِقَائِهِ مُحِبُّهُ
وَجِهَادًا لِرَفْعَةِ شَأْنِ الدِّينِ .

وَقَدْ يَكُونُ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَفِي عِيُونِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْحَيَاةَ ؛
وَلَكِنَّهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مُحِبٌّ لِلْحَيَاةِ بِأَكْثَرٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ حُبَّهَا ؛ لِأَنَّهُ
أَمْتَلِكُ الْيَقِينِ الْإِيمَانِي بِأَنَّ خَالِقَ الدُّنْيَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنَالَ الْجِهَادُ فِي
سَبِيلِ الْقِيَمِ الَّتِي أَرَادَهَا مِنْهَا جُأً يَنْعَدِلُ بِهِ مِيزَانُ الْكَوْنِ ؛ وَإِنْ اسْتَشْهَدَ
فَقَدْ وَعَدَهُ سُبْحَانَهُ الْخُلْدَ فِي الْجَنَّةِ وَتَعِيمَهَا .

وَنَجِدُ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يَقُولُ لِرَسُولِ

(١) وَرَدَ فِي هَذَا حَدِيثٍ قَالَ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ (تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٢/ ٥٥١) « حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا ،
غَرِيبُهُ نِكَاحُ شَدِيدَةٍ » . وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ فُرُوقِ هَذِهِ الْآيَةِ (أَسْبَابُ الْفُرُوقِ
ص ١٥٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « كَانَتْ تَمْلِكُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ امْرَأَةٌ حَسَنَاءٌ » . قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ : لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، وَكَانَ يَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا صَلُّوا اسْتَقْدَمُوا يَعْنِي لَعَلَّا
يُرَوِّهَا ، وَبَعْضُ يَسْتَأْخِرُونَ ، فَإِذَا سَجَدُوا نَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ » . وَالْحَدِيثُ مَرْسُومٌ
فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ النَّسَائِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ .

الله ﷻ : ادْعُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُشْهَدَ : فَيَرَدُّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ :
« مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ »^(١) .

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْمٍ : لأن الإيمان يحتاج
لِمَنْ يَصُونُهُ وَيُثَبِّتُهُ : كما يحتاج إلى مَنْ يُوَكِّدُ أَنْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَعَزُّ مِنْ
الْحَيَاةِ نَفْسِهَا : وهو الْمُتَقَدِّمُ لِلْقِتَالِ ، وِينَالُ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
ويقول سبحانه من بعد ذلك :

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ رَحِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

أى : أَنْ الْمُتَوَلَّى تَرْبِيَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ لَنْ يَتْرَكَ مَنْ خَاصَمُوكَ
وعاندوك ، وأهائوك وأذنوك دون عقاب .

وكلمة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ (٢٥) [الحجر]

تكفى كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا
البعث : ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكر الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد
سبق وعبر عن البعث بقوله الحق :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ ﴿١٦﴾

[المؤمنون]

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٧٤/٣) أن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق لم يزل على
دين قومه في الشرك حتى شهد بدرًا مع المشركين ودعا إلى البراز (الميأزة) فقام إليه
أبوه أبو بكر ليبارزه ، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : « متَّعْنَا بِنَفْسِكَ » .

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لما بعد الموت ، وكانهم يشكُّون في أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتمي ، وسبقته (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذي يشكُّون فيه : وهو أمر سبق وأن ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل :

﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ (٢٥)

[الحجر]

وسبحانه يُجْرِى الأمور كلها بحكمة واعتدال ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ^(١) ^(٢) ﴾ (٢٦)

وسبحانه يتكلم هنا عن خلق الإنسان من بعد أن تكلم عن خلق الكون وما أعدّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفة لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلْصَال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخلق في هذه السورة التي تضمنت خبر

(١) الحمأ والمصنأ : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنسانى ، أو مسحور

بصورة إنسان أو طين كالفقار صالح للتصوير والصقل [القاموس القويم ٢٢١/١] .

(٢) نار السموم : النار الحارة التي تقتل . وقال ابن مسعود : نار السموم التي خلق الله منها

النجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٧٤٦/٢] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٦٨٧

مَدَّ الْأَرْضَ : وَمَجَّى الرِّيحَ ، وَكَيْفِيَّةَ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ : وَكَيْفَ قَدَّرَ فِي الْأَرْضِ الرِّزْقَ ، وَجَعَلَ فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيً ، وَجَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مُوزَنًا .

وهو سبحانه قد استهلَّ السورة بقوله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

أى : أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القيم للحركة الإنسانية : ثم تكلم عن المادة التى منها الحياة : وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المَقُومِ الأساسى للقيم وهو القرآن ، والكلامَ عن مَقُومِ العادة : وكان ذلك أمراً طبيعياً : ودلَّلتُ عليه سابقاً بحديثي عن مُصمِّمِ أىِّ جهازٍ من الأجهزة الحديثة : حيث يحدد أولاً الغرض منه : ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهازٍ من تلك الأجهزة .

وهكذا كان خلق الله للإنسان الذى شاء له سبحانه أن يكون خليفته فى الأرض ، ووضع له مَقُومَاتِ مادةٍ ومَقُومَاتِ قيمٍ : وجاء بالحديث عن مَقُومَاتِ القِيمِ أولاً : لأنها ستمد حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّحُ لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض : بل كان هناك خُلُقٌ من قَبْلِ آدم ، فإِذَا حَدَّثَنَا علماء الجيولوجيا والحفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من الكائنات المظلمة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عَمَرَ الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف في الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [فاطر]

أى : أن خلق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخلق من قبلنا أمر وارد .
ونعلم أن خلق آدم قد أخذ لقطات متعددة في القرآن الكريم :
تُؤَدَّى في مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يَكُنْ ذلك تكراراً في القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطَةٍ في الموقع المناسب لها : ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر : بل كتاب قِيمٍ ومنهج ، ويريد أن يُؤَسِّسَ في البشر القيم التي تحميهم وتصونهم من أى انحراف ، ويريد أن يُرَبِّيَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خلق الإنسان في الكثير من سُور القرآن : البقرة : الأعراف : الحجر : الإسراء : الكهف : وسورة ص .

قال سبحانه - على سبيل المثال - في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) [البقرة]

وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ ؛ الَّتِي يَشْرَحُهَا لَنَا نَقْضُهَا فِي الْوَاقِعِ
الْمَادِيِّ الْمَلْمُوسِ ، فَحِينَ يَحْدُثُ الْمَوْتُ - وَهُوَ نَقْضُ الْحَيَاةِ - نَجِدُ
الرُّوحَ هِيَ أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْجِسْمِ ؛ وَكَانَتْ هِيَ آخِرَ مَا دَخَلَ الْجِسْمَ
أَثْنَاءَ الْخَلْقِ .

وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَبَدُّدُ الْحَيَوِيَّةِ فِي الرَّحِيلِ عَنِ الْجَثْمَانِ ؛ فَيَتَحَوَّلُ
الْجَثْمَانِ إِلَى مَا يَشْبِهُ الصَّلْصَالَ ؛ ثُمَّ يَتَبَخَّرُ الْمَاءُ مِنَ الْجَثْمَانِ ؛
لِيَصِيرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَرَابًا .

وَهَكَذَا نَشْهَدُ فِي الْمَوْتِ - نَقْضَ الْحَيَاةِ - كَيْفِيَّةَ بَدْءِ مَرَاكِيزِ الْخَلْقِ
وَهِيَ مَعْكُوسَةٌ ؛ فَالْمَاءُ أَوَّلًا ثُمَّ التُّرَابُ ؛ ثُمَّ الطِّينُ ؛ ثُمَّ الصَّلْصَالَ
الَّذِي يَشْبِهُ الْحَمْلَ الْمَسْنُونِ ؛ ثُمَّ نَفْخُ الرُّوحِ .

وَقَدْ صَدَّقَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ حِينَ أَوْضَحَ لَنَا فِي النَّقْضِ الْمَادِي ،
مَا أَبْلَغْنَا عَنْهُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ .

وَعَلَى ذَلِكَ - أَيْضًا - نَجِدُ أَنَّ الَّذِينَ يَضَعُونَ التَّكْهِنَاتِ بِأَنَّ الشَّمْسَ
خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ ؛ وَكَانَتْ الْأَرْضُ جِزْءًا مِنَ الشَّمْسِ ثُمَّ انْفَصَلَتْ
عَنْهَا ؛ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ هُوَ أَمْرٌ لَمْ يَشَاهِدُوهُ ،
وَهِيَ أُمُورٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْرُسَهَا أَحَدٌ فِي مَعْمَلٍ تَجْرِييٍّ ؛ وَقَدْ قَالَ
الْقُرْآنُ عَنْ أَهْلِ هَذَا اللَّغْوِ :

﴿ مَا أَشْهَدُتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ (٥١) ﴿ [الكهف]

وَهُمْ قَدْ أَعَانُوا عَلَى تَأْكِيدِ إِعْجَازِيَّةِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَسْمَاهُمْ
الْمُضِلِّينَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَغْوُونَ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ (٢٧)

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هي اللهب الذي لا دُخَان له ،
وَيُسَمُّونه « السَّمُوم » لأنه يتلصص في الدخول إلى مسام الإنسان .
وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً في مَقُومَات حياة الكائنات ،
فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نار له صفات
النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفُّ وأشدَّ من قانون الإنس ،

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ^(١) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴾ (٢٧) [الاعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التي لا لهب لها
يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته في الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع
له خيرية أو فضلية ، لأن المهام حين تتعدد في الأشياء ؛ تمنع
المقارنة بين الكائنات .

والمَثَلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده عِلْمٌ بالكتاب على عَفْرِيت
الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عَمَّن يَأْتِيهِ بِعَرْشِ بلقيس :

﴿ قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا^(٢) قِيلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

﴾ (٣٨) [النمل]

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصورون ، [القاموس القويم ٩٨/٢] .

(٢) العرش : سرير الملك . ذكر ابن كثير في تفسيره (٣٦٢/٢) : « كان من ذهب مقصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ . وقواشيه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُسْتَرَكاً بالديباج والحريز » .

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتي بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، ولكن من عنده علم بالكتاب قال : إنه قادر أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان ؛ وهكذا غلب من عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن ^(١) .

وقد قصر علينا الحق سبحانه هذا في كتابه الكريم ، فقال :

﴿ قَالَ عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. (٤٠) ﴿ [النمل]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢٨)

وعرفنا في مواقع متفرقة من خواطرننا كيف نغم هذه الآية . ونعلم أن البشر في زماننا حين يريدون صنع تمثال ما ، فهم يخلطون التراب بالماء ليصير طينا ؛ ثم يتركونه إلى أن يجتمرا ، ويصير كالصلصال ، ومن بعد ذلك يشكل التمثال ملامح من يريد أن يصنع له تمثالا .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرة لها ، عكس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذي يملك بفعل النفخ فيه من روح الله ما لا

(١) عفريت الجن : أقوى الجن . والعفريت : النافذ في الأمور مع دعاء . [المعجم الوجيز -

مادة : عفرت] .

يملكه أى كائن صنعته مهارة الإنسان ؛ ذلك أن إعجازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق لا يمكن أن تستوى مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حديث يقول فيه ﷺ : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً »^(١) .

واختلف العلماء فى مرجع الضمير فى هذا الحديث : أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلماء من قال : إن الضمير يعود إلى آدم : بمعنى أن الله لم يخلقه طفلاً ، ثم كبر ؛ بل خلقه على الصورة الناضجة ؛ وتلفت آدم فوجد نفسه على تلك الصورة الناضجة ؛ وأنه لم يكن موجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفت إلى المُرْجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وإن الضمير يعود إلى الله ؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفة له فى الأرض ؛ وأعطاه من قدرته قدرة ؛ ومن علمه علماً ؛ ومن حكيمته حكمة ، ومن قاهرته قهراً .

ولذلك يقول ﷺ : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » .

فخلق آدم داخل فى كينونته . يقول الحق :

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : - هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفاً عليها وهى طوله ستون ذراعاً . ولم ينتقل أطواراً كذريته وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير ، .

﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)

[آل عمران]

وأمام الكينونة ينتفى التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩)

والتسوية تعنى جعل الشيء صالحاً للمهمة التى تُراد له . وشاء سبحانه أن يُسَوِّى الإنسان فى صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء فى غم آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

[الإسراء]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

(١) « النفخ : إجراء الريح فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن . من ذلك الجسم ، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريعاً وتكريهاً » . قاله القرطبي فى تفسيره (٥ / ٣٧٤٧) .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٢٠)

وقد سجدوا جميعاً في حركة واحدة ؛ ذلك أنه لا اختيارَ لهم في تنفيذ ما يُؤمرون به ، فمن بعد أن خلق الله آدم جاء تكريم الحق سبحانه له بقوله للملائكة : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. ﴾ (١١٦) [طه]

وسجدت الملائكة التي كُلِّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد ، وهم المُدبِّراتُ أمراً والحَفَظَةُ ، ومنَ لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد .

وقوله الحق : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١٦٦) [الحجر]

يعنى أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة ، وكان سجودهم هو طاعة للأمر الأعلى ؛ لا طاعة لآدم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٢٣) [الحجر]

يعنى الملائكة الأعلى من البشر ، ذلك أن هناك ملائكة أعلى منهم ؛ وهم الملائكة المُهيِمُونَ المتفَرِّغُونَ للتسبيح فقط .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣١)

ومكذا جاء الحديث هنا عن إبليس ؛ بالاستثناء وبالعقاب الذى

نزل عليه : فكان الأمر قد شمله ، وقد أخذت هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء .

وكان من الواجب أن يحكم هذا الجدل أمران :

الأمر الأول : أن النص سيد الأحكام .

والأمر الثاني : أن شيئاً لا نص فيه : فنحن نأخذه بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نص مع التزام : فنحن نُؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص .

وإذا كان إبليس قد عُوقِبَ : فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً : فهل هذا يعنى أن إبليس من الملائكة ؟

لا . ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة^(١) ؛ بل هو من الجن ؛ والجن جنس مختلف كالأنفس ؛ يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يعصى .

وكونه سَمِعَ الأمر بالسجود : فمعنى ذلك أنه كان فى نفس الحَضْرَةِ للملائكة ؛ ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً

(١) قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . رواه ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عنه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره (٨٨/٢) .

V79V

(٣) قوله (إني) وحده جاء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِلَهِسَ إِنْى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٥٥) [الحجر] أما قوله (استكبر) وحده . فجاء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِلَهِسَ اسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٦) [ص] . أما الجمع بينهما فجاء في قوله تعالى : ﴿ فَسَجِدُوا إِلَّا إِلَهِسَ إِنْى وَاسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٧) [البقرة] .

والإباء يعنى أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعال . والاستكبار هو التآبى بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق الذى أورده سبحانه مرة بقول إبليس :

﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر] وقوله :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص] ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

وتقول « ما لك ؟ » فى الشيء العجيب الذى تريد أن تعرف كيف وقع ، وكان هذا تسأولاً عن أمر مخالف لما اختاره إبليس ؛ الذى وهبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة .

ولنلاحظ أن المتكلم هنا هو الله ؛ وهو الذى يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار ؛ فله أن يطيع ، وله أن يعصى . وهو سبحانه هنا يوضح ما علمه أولاً عن إبليس ؛ وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة .

ويتابع سبحانه :

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾

وقد حدث ذلك لرؤيه أمر الله سبحانه ، واستكباره ، ولقناعته أن النار التي خُلِقَ منها أفضلُ من الطين الذي خُلِقَ منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مخلوق مهمة ، وكل كائن يؤدي مهمته هو مُساوٍ للآخر .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ليزاول كل كائن الأسباب التي وُجد من أجلها ؛ فأدم قد خلقه الله ليُجعله خليفة في الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه يباشر الأمر في السببيات بواسطة ما خلق .

فالنار - على سبيل المثال - تتسبب في إنضاج الطعام ؛ لأنه سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وجعلها سبباً في إنضاج الطعام . ومزاولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة في المُسببات معناه أن المخلوقات تُؤدى المهام التي أَرادها سبحانه لها في الوجود .

والمؤمن الحق هو مَنْ يرى في الأسباب التي في الكون ؛ أنها عطاء من الله ، وأن يده ممدودة له بتلك الأسباب .

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حضرته^(١) سيقرر سبحانه الحكم الذي أصدره عليه في قوله :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٢٥)

وفي هذا القول ما يؤكد أن الجن أيضاً يموتون ؛ ولهم أجال مثلنا ، وفي هذا الحكم بالطرد تأكيدٌ على أنه سبحانه لن يُوفقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه في النهاية .

(١) قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا .. ﴾ (٢٥) [الحجر] قال ابن كثير في تفسيره (٥٩١/٢) :

« أي : من المنزلة التي كان فيها من الملا الأعلى » ، وقال القرطبي في تفسيره

(٢٧٥٠/٥) . « أي : من السماوات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة » .

(٢) اللعن : الإبعاد والطرد من الخير ، واللعين : الشيطان ، صفة غالبية لأنه طرد من السماء ،

وقيل : لأنه أبعد من رحمة الله . [لسان العرب - مادة - لعن] .

ولكن إبليس يحاول الالتفاف ؛ فيأتى ما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ^(١) ﴾ (٣٦)

وكان إبليس بهذا القول أراد أن يُفْلِتَ من الموت ، ولكن مثل هذا المكر لا يجوز على الله أو معه ، فإِذَا كَانَ إبليس قد أراد أن يظلَّ في الدنيا إلى يوم بَعَثَ البشر ؛ فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت .

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧)

ولحظة أن يسمع إبليسُ ذلك يظن أنه قد أَفْلَتَ من الموت ؛ إذ لا مَوْتَ بعد البعث ، ويتوهم أن دعوتَه قد أُجِيبَتْ ، وكأنه قد أَفْلَتَ بغيره الذي ظنَّ به أن يتسع له الوقت ليأخذ النارَ من بَنَى آدَمَ ؛ شَهِدَ سَجُودَهُ لِآدَمَ هو الذى وضعه فى هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك ذرة من وَعَى لَعَلِمَ أن الاستكبار والتوهم بأن عنصر النار أفضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد .

ولكن تاتى من بعد ذلك مباشرة الآية التى تتضمن عدم إفلاته من الموت ؛ فيقول سبحانه :

(١) أَنْظِرْنِي : امهلنى وأخرنى . وقال القرطبى فى تفسيره (٢٧٥٠ / ٤) . . . أراد يسأله الإنظار إلى يوم يُبْعَثُونَ : ألا يموت ، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . .

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٢٨)

أى : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً ؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ..﴾ (٦٨) [الزمر]

وكذلك قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٩) [الرحمن]

وهكذا لم يُفلت إبليس من الموت .

ولقائل أن يسأل : وكيف كلّمه الله ؟

ونقول : لم يُكلّمه الله تشريفاً أو تكريماً ؛ بل غلظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يبلغوا ما شاء لمن شاء . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣١)

(١) قال ابن عباس : أراد بهذا اليوم - النفخة الأولى ، أى : حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، وبجهله إبليس ، فيموت إبليس ثم يبعث . [تفسير القرطبي ٢٧٥٠/٥] .

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ .. ﴾ (٣٩)

[الحجر]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبب لنفسه الطرد واللعنة ؛ فقد قال :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي .. ﴾ (٣٩)

[الحجر]

والحق سبحانه لم يُغوه ؛ بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصى ويعاقب ، فسبحانه قد مكن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليس أمر الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٩)

[الحجر]

وفى هذا إيضاح أن كل وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفى الأشياء التى تدمر العافية ، كمن يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يَغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن من يحيا بدخل يكفيه الضرورات ؛ فهو يأمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمن يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية ؛ إن الاستقامة لا تكلف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون فى الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفر على الإنسان مشقة التكلفة المالية لبعض من ألوان ~~الاستقامة~~ .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون من هم على

الاستقامة ، ويحاولون أخذهم إلى طريق الانحراف ؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدي ؛ ولا يخيب معي مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس في حُمَقٍ رَدَّه على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه : أيدخل في معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذي خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال :

﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْعَوْنَ ۖ ۞ (٢٦) ﴾ [الحجر]

وهذا يعني أن مجال معركته مع الخلق لا مع الخالق ؛ لذلك قال :

﴿ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ^(١) أَجْمَعِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

وكلمة (أجمعين) تفيد الإحاطة لكل الأفراد ، وهذا فوق قدرته بعد أن عرف مُقَامَه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾

فهؤلاء العباد الذين خلّصتهم لنفسك يا رب ؛ فلن أقدر عليهم ؛ لأنك أخذتهم من طريق الغواية ؛ لأنهم أحسنوا الإيمان ، وقد وصلوا

(١) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قال :

يا رب وعزتك وجلالتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم . فقال الرب :

وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استفقدوني . أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٢) .

(٤١) وفي إسناده ابن لهيعة . وانظر مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) .

إلى مرتبة من الإخلاص التبعدي درجة يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خلقه مهديين ما استطاع أحد أن يضلهم ، ولكن عزة الله ^(١) عن خلقه هي التي أفسحت المجال للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يقر بعجزه عن غواية من أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لبس فيه ، ولا قبول لما قد يظنه إبليس مجاملة منه لله ، فيقول سبحانه في الآية التالية :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ٤١ ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذي يقود العباد إلى الطاعة ؛ فليس في الأمر تفضل من إبليس الذي سبق له أن حدد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَأَنبَتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ١٧ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٨ ﴾

[الاعراف]

(١) عزة الله عن خلقه : أي استغناؤه سبحانه عنهم .

(٢) قال قتادة : ، أنامهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار . ومن خلفهم من أمر الدنيا ، فزبئها لهم ودعاهم إليها . وعن أيمنهم من قبل حسداتهم بطامع عنها . وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها . أتاك يا ابن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٠٤) .

فى ذلك القول حدّد إبليس جهات الغواية التى يأتى منها وترك
« الفُوق » و « التُّحَت » ، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائماً علوّ
عِزّة الربوبية ، ودُلّ العبودية : فالشيطان لا يدخل له أبداً .

وبواصل الحق سبحانه قوله المبلّغ عنه لنا :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٤)

وهكذا أصدر الحق سبحانه حكمه بالأّ يكون لإبليس سلطان على
مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس الأّ يتعرض لهم : فسبحانه هو
الذى يصُونهم منه : إلا مَنْ ضلّ عن هدى الله سبحانه ، وهم مَنْ
يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن « الغاوين » هى ضد « عبادى » ، وهم الذين
اصطفاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان : لأنهم أخلصوا
وخلّصوا نفوسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام
الغاوين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ ^(١) إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِحِكُمْ ^(٢) وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِحِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ
قَبْلُ . . (٢٢) ﴾

[إبراهيم]

(١) السلطان : الملك والقوة والفهر والحجة ، والبرهان . [القاموس القويم ١/ ٣٢٣] .

(٢) المصريح : المغيث الذى يُغيث غيره . والاستمخراخ : الاستئثار والإغاثة . والمستصرخ :

المستغيث . [لسان العرب - مادة : صرخ] .

سورة الحجر

ومن نعم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك في الدنيا ،
ولسوف يُقرّ الشيطان بهذا كله في اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك
سلطاناً يقهرنا به في الدنيا ، بل مجرد إشارة وتزغ ؛ ولا يملك
سلطاناً إقناع ليجعلنا نفعل ما يزرع به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يؤكد أن جزاء الغاوين قاسٍ
البحر :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

ولأن العَصِيرَ لهؤلاء هو جهنم ؛ فعلى العبد الذكي أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل ؛ كي لا يرتكب حماقةَ الفعل الذي يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلجّ عليه به نفسه . ولو أن المُسْرِفَ على نفسه استحضر العقوبة لحظة ارتكاب المعصية لَمَّا أقدم عليها ، ولكن المُسْرِفَ على نفسه لا يقرن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أَنْ إِنْسَانًا قَدْ اسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ شِرَاسَةُ
الغريزة الجنسية ، وعرفَ عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يَشَاءُ مِنْ
رغبات ، وأحضروا له أَجْمَلَ النِّسَاءِ ؛ وسهّلوا له المكانَ المناسب
للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله لك ، شَرَطُ أَنْ تُعَرِّفَ أَيْضاً مَاذَا يَنْتَظِرُكَ .
وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْوَاً فِي الْمَنْزِلِ : بِهِ قَرْنٌ مُشْتَغِلٌ . وَيَقُولُونَ
لَهُ : بَعْدَ أَنْ تُفَرِّغَ مِنْ لَدُنْكَ سَتَدْخُلُ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْمَشْتَغِلِ . مَاذَا
سَيَصْنَعُ هَذَا الْإِنْسَانُ ؟

لا بُدَّ أَنَّهُ سَيَرْفُضُ الْإِقْدَامَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تَقُودُهُمْ إِلَى
الْجَحِيمِ .

وهكذا نعلم أن مَنْ يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ إِنَّمَا يَسْتَبْطِئُ الْعُقُوبَةَ ،
وَالذَّكَىَّ حَقًّا هُوَ مَنْ يُصَدِّقُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ « الْمَوْتُ
الْقِيَامَةُ ، فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » ^(١) . وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى يَمُوتُ .
وَيُبَيِّنُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَرَاتِبَ الْجَحِيمِ ، فَيَقُولُ :

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ^(٢)

وَفِي جَهَنَّمَ يَكُونُ مَوْعِدٌ هَؤُلَاءِ الْغَاوِينَ ، وَمَعَهُمْ إِبْلِيسُ الَّذِي أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ ، وَصَمَّمَ عَلَى غَوَايَةِ الْبَشَرِ ، وَالْوَانِ الْعَذَابِ سَتَخْتَلِفُ ، وَلِكُلِّ
جَمَاعَةٍ لَهُمْ جَرِيمَةٌ يُقْرَنُونَ ^(٣) بِهَا مَعًا . فَمَنْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ سَيَكُونُونَ
مَعًا : وَمَنْ يَلْعَبُونَ الْمَيْسِرَ يَكُونُونَ مَعًا .

وَلِكُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ جَمَاعَةٌ تَدْخُلُ مِنْهُ رِبَطَتْ بَيْنَهُمْ فِي
الدُّنْيَا مَعْصِيَةً مَا : وَجَمْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَاءٌ مَا ، وَتَكُونُ مِنْ بَيْنِهِمْ

(١) ذَكَرَهُ الْعَجَلُونِيُّ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ (حَدِيثٌ رَقْمُ ٢٦١٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَتَمَامُهُ : « أَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي غَنَى كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي
ضَيْقٍ وَسَعَةٍ عَلَيْهِمْ » .

(٢) قَالِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَلْ تَسْرُونَ كَيْفَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ؟ قِيلَ : هِيَ مِثْلُ
أَبْوَابِنَا . قَالَ : لَا ، هِيَ هَكَذَا يَعْضَاهَا فُتُوحٌ بَعْضُ . زَادَ النَّعَلِيُّ : وَوَضَعَ أَحَدُ يَدَيْهِ عَلَى
الْآخَرَى . ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٥٢/٥) .

(٣) وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝﴾ [إِبْرَاهِيمَ] أَيْ : مُسَكَّنِينَ
فِي السُّيُوفِ وَالْأَغْلَالِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ قَرِينِهِ وَشَبِيهِهِ .

В. 9

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

[القاموس: القويم ٢٠٨/١]

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ (٢٤) [البقرة]

وقلنا من قَبْلُ : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات
كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويَهَبُ بصفات
الجلال البَلَايا : فهو غَفَّار ، وهو قهار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتَقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية : وأن نجعل
بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى : والطريق أن نتبعَ منهجه : فلا
تدخل النار التي هي جُذْدٌ من جنود الله .

ومنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٤٥) [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله ورسوله
واتبعوا منهجه . وإن كانت المعصية قد غلبت بعضهم ، وتابوا عنها
وأستغفروا الله : فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبَدِّل سيئاتهم حسنات .

وَمَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ سَاجِدًا فِيهَا الْعُيُونُ والمقصود بها الأنهار :
والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ^(١) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ
لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. ﴾ (١٥) [محمد]

ولعل هناك عيونا ومنايع لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

(١) آسِنُ الماء : تغيّرت رائحته . وهو الذي لا يشربه أحد من خلقه . [لسان العرب - مادة :
اسن] .

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ﴾ (٤٦)

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة في سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلام الدنيا والاطمئنان فيها مختلف عن سلام الجنة ؛ فسلام الدنيا يعكسه خوف افتقاد النعمة ، أو أن يقوت الإنسان تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم في الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)

وهكذا يُخرج الحق سبحانه من صدورهم أي حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا في المعاصي وهم مُمْتَلِئُونَ بِالْغُلِّ ، بينما هم قد طهَّروهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه في الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مطهرة . ويجتمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أيُّ منهم بحسد لغيره .

وَالْغُلُّ كما نعلم هو الحقد الذي يسكن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وجهات نظرهم في الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

(١) الغلّ النفس والعداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج في تفسير الآية : « حقيقة والله أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً في علو المرتبة لأن الحسد غلّ ، وهو أيضاً كدر ، والجنة مُبرأة من ذلك » ذكره ابن منظور في اللسان ، مادة : غلّ .

فى المعسكر المقابل طلحة^(١) والزبير رضى الله عنهما : وكلاهما مبشّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُقلّبه .

ولحظة أن قامت المعركة جاء وَجْه على - كَرَّمَ الله وجهه - فى وَجْه الزبير : فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تفرآن على ، سلّم النبى وقلّت أنت : لا يفارق ابن أبى طالب رَهْؤُهُ ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وأنت ظالم له » . فرمى الزبير^(٢) بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على على - كرم الله وجهه - : فقال على رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولأبيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أن يجمع بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال على : وفيما نزل إذن قوله الحق :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ۖ ۝ (٤٧) ﴾ [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحقدية فى النفوس يكون عميقاً ، وإن خلّعها فى اليوم الآخر يكون خلّعاً من الجنور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله : والذى عاداه فى الدنيا نظرته إلى مُحسِن له : لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عيب منه .

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى ، أحد الثمانية الذين سيفوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٢٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [الإصابة فى شيوخ الصحابة ٢/٢٩١] .

(٢) هو : الزبير بن العوام ، ابن عمه النبى ﷺ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى . زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٢٦ هجرية على يد عمرو بن جرموز . [الإصابة ٥/٢ - ٧] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .